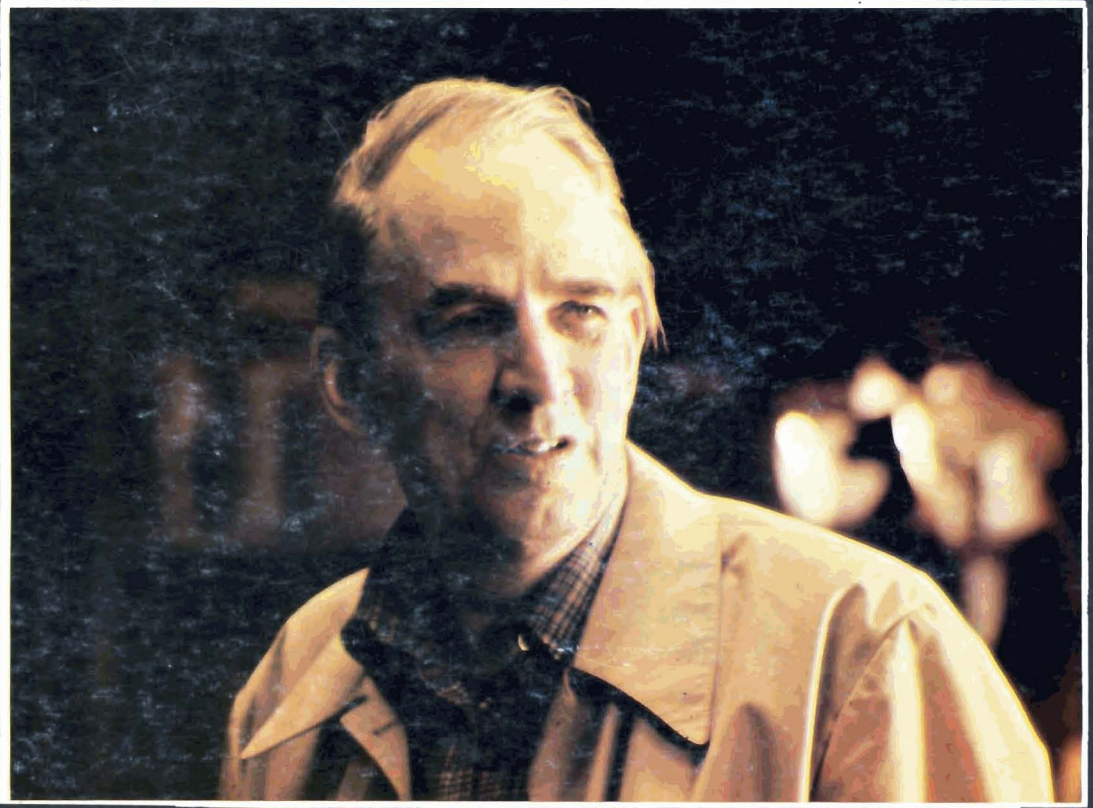


انغمار عثمان



المصباح لسحري

السيرة الذاتية

ترجمته:
باسل الخطيب

الفن السابع ١١
منشورات وزارة الثقافة
المؤسسة العامة للسينما

المصباح السحري
السيرة الذاتية

الفن السابع

« ١١٠ »

انغمار غمسان

المصباح لسحري

السيرة الذاتية

ترجمته:
باسل الخطيب

منشورات وزارة الثقافة - المؤسسة العامة للسينما

في الجمهورية العربية السورية - دمشق ١٩٩٤

العنوان الأصلي للكتاب :

THE MAGIC LANTERN

By INGMAR BERGMAN

1987

المصباح السحري : السيرة الدائبة = /The magic lantern

انغمار برغمان ؛ ترجمة باسل الخطيب . - دمشق : وزارة الثقافة ،

١٩٩٤ . - ٢١٦ ص ؛ ٢٤ سم . -

(الفن السابع ؛ ١١) .

١ - ٩٢٧ : برغمان ، انغمار ب ٢ - العنوان ٣ - العنوان الموازي

٤ - برغمان ٥ - الخطيب ٦ - السلسلة

مكتبة الأسد

الإبداع القانوني : ع - ١٢٢٥ / ١١ / ١٩٩٤

الافتاء

إلى ديانا ...

باسم

عندما ولدت في عام ١٩١٨ ، كانت أمي مصابة بالانفلونزا الاسبانية، ونظرا لسوء حالتني الصحية جرى تعميدي في المستشفى . وذات يوم زارنا طبيب العائلة العجوز ، وعندما رأني قال : « إنه يموت من سوء التغذية » . حملتني جدتي الى دارها الصيفية في دارلارنا ، وخلال رحلة القطار التي كانت تستمر يوما كاملا آنذاك ، كانت تطعمني كعكاً منقوعاً بالماء . وعندما وصلنا أخيراً ، كنت على وشك أن أموت . لكن جدتي نجحت في العثور على ممرضة لطيفة ، ندية الوجه وجميلة الشعر ، في القرية المجاورة . ورغم تحسن حالتني فقد بقيت أتقياً باستمرار ، وأعاني من آلام دائمة في المعدة .

أمراض مجهولة يصعب تحديدها كانت تعذبني دائماً ، لم أستطع أن أقرر أبدا فيما إذا كنت راغبا حقا بالبقاء على قيد الحياة . بوسمي الآن أن أستذكر حالتني الحقيقية في ذلك الوقت: رائحة إفرازات جسدي النتنة ، الملابس الرطبة والمتسخة ، ضوء الليل الاحمر المتوهج بنعومة ، الباب المفتوح قليلا والمؤدي الى الغرفة الأخرى ، صوت تنفس الممرضة اننايمة ، الخطوات المستعجلة والأصوات الهامسة ، انعكاسات الشمس على ابريق الماء الزجاجي . أستطيع أن أتذكر كل هذا ، دون تذكر أي وجود للخوف .

الخوف جاء فيما بعد .

كانت عائلتي تسكن الطابق الأول في البناء الواقع على زاوية سكيبارغانن وستورغانن في استوكهولم ، وكانت غرفة الطعام تواجه الفناء المعتم ذا الحائط الأجري المرتفع ، والمرحاض الخارجي وصناديق

تخزين الفحم . اجلس في حوض أحدهم ، يطعمني العصيدة من طبق أبيض مزين برسوم ورود زرقاء ، يعكس الضوء المتناثر من النافذة ، أميل برأسي الى الامام والى كلا الجانبين واستكشف زوايا مختلفة للرؤية ، فتتغير الانعكاسات على صحن العصيدة وترسم أشكالا جديدة . وفجأة انقيا على كل شيء .

ربما كانت هذه ذكرياتي الأولى .

في خريف عام ١٩٢٠ انتقلنا الى فيلاغاتن ٢٢ في مقاطعة اوسترمالم باستوكهولم . كانت تسود المكان رائحة الطلاء الجديد والارضية الخشبية الملمعة . اما غرفة نوم الطفل فقد غطيت أرضيتها بمشمع أصفر كالشمس ، وعلقت فيها ستائر زاهية الألوان عليها رسوم لقصور ومروج مزهرة . كانت يدا امي ناعمتين ، وهي تجد الوقت الكافي لتروي قصصا . وكان ابي يشتم كل صباح بصوت عال . وكانت هناك فتاتان ريفيتان من دالارنا تعيشان في المطبخ ، تغنيان أحيانا بشكل عفوي ، بالإضافة الى فتاة في عمري ، صديقتي في اللعب ، تسكن في الجانب الآخر البناء وتدعى تيبان ، وهي منغمرة وذات خيال . قمت معها ذات مرة باجراء مقارنة بين جسدينا فعثرنا على فروق هامة ، وقد ضبطنا أحدهم ، لكنه لم يقل شيئا .

عندما كنت في الرابعة ، وُلدت شقيقتي واختلف الوضع تماما . مخلوق رهيب وسمين فاز فجأة بالدور الرئيسي ، فأبعدت عن سرير امي ، في حين كان ابي ينحني مبتهجا فوق تلك الرزمة الباكية . لقد أنشب شيطان الغيرة برائنة في قلبي ، فاغتظت وبكيت وتدحرجت على الأرض . كنت أنا وشقيقي الأكبر ، أعداء ازليين ، فأرسينا السلام بيننا، وبدانا نرسم خططا مختلفة لقتل هذه الحقيرة والبغيضة ، ولسبب ما ، قرر شقيقي انه يجب عليّ تنفيذ الخطة بنفسي ، فشعرت بالاطراء ، واخذت أنتظر اللحظة المناسبة .

في ظهيرة يوم مشمس ، تسللت الى غرفة نوم والديّ ، حيث كان المخلوق نائماً في سلته الوردية . سحبت كرسيًا وصعدت عليه ، ووقفت أهدق بالوجه المنتفخ والفم المقطر . كان شقيقي قد أعطاني تعليمات واضحة تماما ، لكنني أسأت الفهم ، وبدلاً من أن أعصر حنجرتها ، أخذت أضغط على صدرها ، فاستيقظت على الفور مع صرخة حادة . دفعت بيدي الى فمها فاحولت عيناها ، خطوت الى الامام لأنال منها اكثر ، لكنني فقدت توازني وسقطت على الارض .

أذكر أن هذا الحدث كان مرتبطاً بمتعة شديدة ، ما لبثت أن انقلبت ، وبسرعة ، الى رعب .

* * *

واليوم انحنى على صور طفولتي لأتأمل وجه أُمي من خلال العدسة المكبرة ، وأحاول أن الامس تلك المشاعر التي اختفت منذ زمن طويل . نعم ، لقد أحببتها ، وهي تبدو جذابة في الصور ، شعرها ممشط فوق جبينها العريض ، وجهها بيضاوي ناعم ، فمها شهواني رقيق ، نظرتها صادقة ودافئة ، يداها صغيرتان وقويتان .

كان قلبي ذو الأعوام الأربعة مولعاً بالحب والوفاء ، مثل الكلاب . ومع ذلك كانت علاقتنا معقدة ، وكان وفائي يزعجها ويضجرها . وكانت تشعر بالقلق تجاه طريقي في التعبير عن حناني وهيجانتي العنيف ، فتبعدني عنها بكلمات ساخرة وباردة ، فأبكي بغضب وخيبة أمل . أما علاقتها مع شقيقي الأكبر فكانت أبسط من ذلك ، وكانت تدافع عنه دائماً من هجمات والدي الذي رباه بصرامة شديدة وجلد وحشي كأننا محل جدال متوتر .

وبالتدريج لاحظت إن أعجابي بأُمي ، الرقيق أحياناً ، والناضب أحياناً أخرى ، له تأثير صغير . وسرعان ما بدأت أختبر السلوك الذي ربما يسعدها ويثير اهتمامها . كان المرض يثير تعاطفها على الفور ،

وعندما كنت طفلاً مريضاً ذا اعتلال جسدي مزمن ، كنت أجد الطريق المأولم ، ولكن الناجح ، الى قلبها وحنانها . ومن ناحية أخرى كانت أمي ممرضة متمرسة . ما إن تكتشف الخدعة حتى توقع العقاب وأمام الجميع .

وجدت طريقة أخرى للفت انتباهها إلي ، وكانت مؤذية أكثر من سابقتها . تعلمت أن أمي لا تطيق اللامبالاة وانشغال الذهن ، إذ كانت تستعملهما سلاحين خاصين بها . وتعلمت أيضاً أن أخفف من عواطفني . بدأت اللعب لعبة غريبة كانت مقوماتها الأولية الفطرسة والبرود في التعامل . لا أستطيع أن أتذكر ماذا فعلت آنذاك ، لكن الحب يدفع بالإنسان ليغامر ، وقد نجحت ، وبسرعة ، في خلق الاهتمام بتركيبتي المألوفة من الحساسية والغرور .

أصعب مشكلة واجهتني ، هي أنني لم أتمكن أبداً من البوح بسر لعبتي ، والقاء القناع جانباً ، والسماح لنفسني بدخول عالم الحب المتبادل .

بعد سنوات عديدة ، وعندما كانت أمي راقدة في غرفتها بالمستشفى إثر أزمته القلبية الثانية ، تحدثت معها عن حياتنا . أخبرتها عن المعاناة التي لقيتها في طفولتي ، فاعترفت بأنها هي الأخرى كانت تعاني بسببها ، ولكن ليس كما توقعت أنا . لقد حملت مشاكلها الى طبيب نفسي مشهور ، فحذرنا بعبارات كئيبة بأنها يجب أن ترفض بحزم كل ما دعاه « وسائل المرضية » . وأن أي تساهل قد يلحق الضرر بي مدى الحياة .

لا تزال ذاكرتي تحتفظ وبوضوح بكل تفاصيل زيارة الطبيب . كنت أرفض الذهاب الى المدرسة رغم تجاوزي السادسة من عمري . ويوماً بعد يوم كانوا يحملونني ويدفعون بي باكياً الى الصف ، فأتقياً على كل شيء أراه ، وسرعان ما أصابني الوهن وفقدت توازني .

وفي النهاية ربحت يوما جديدا دون مدرسة ، لكن زيارة الطبيب المشهور كان لا مفر منها .

كانت له لحية هائلة وياقة قميص مرتفعة ، وكانت نفوح منه رائحة السيجار . أرخى سروالي ووضع عضوي الهزيل في احدى يديه ، وأخذ يتفحص بسبابة اليد الثانية الانفراج بين الساقين ، ثم قال لأمي التي كانت تجلس ورأئي مرتدية معطف الفرو وقبعة خضراء غامقة ذات حجاب : « إن الصبي هنا لا يزال يبدو كالطفل تماما » .

وعندما عدنا البسوني ثوبي الأصفر الفضفاض ذا الخطوط الحمراء، ثم ذهبت الى غرفة النوم التي استردتها الطفلة الصغيرة . كان أخي مصابا بالحمى القرمزية ، وكان في مكان ما خارج البيت . (كنت أتمنى طبعا لو أنه مات ، فهذا المرض كان خطيرا في تلك الأيام) . مضيت الى خزانة الألعاب وأخرجت منها عربة خشبية ذات عجلات حمراء ودرجات صفراء ، وجهزت لها فرسا خشبيا . لقد تلاشى رعب المدرسة ، أمام ذكرى الانتصار المفرحة .

* * *

ذات يوم شتوي في مطلع عام ١٩٦٥ ، كنت في المسرح عندما اتصلت بي أمي وأخبرتني أنه تم نقل أبي الى المستشفى لاستئصال ورم خبيث من حنجرتة ، وطلبت إلي أن اذهب لرؤيته . لكنني أجبته إنني لا أملك الوقت ، ولا حتى الرغبة لأن أفعل ذلك ، وإنني وأبي لا يوجد لدينا ما يقوله بعضا لبعض ، وإن أبي إنسان لا أشعر إلا بالامبالاة تجاهه وقد أسبب له الخوف والاحراج بزيارتي ، ورؤيته على ما يمكن أن يكون فراش موته . كانت أمي غاضبة وأصرت على ذهابي ، فتضايقت وأخبرتني إنني أرفض أن تبتزني عاطفيا . هذا الابتزاز الأبدي . « الا تستطيع أن تفعلها لأجلي ؟ » صاحت وهي على وشك البكاء ، فقلت لها : إن الدموع لم تكن لتحدث أي تأثير علي ، واغلقت سماعة الهاتف بعنف .

في أمسية اليوم نفسه كنت أعمل في المسرح ، ذهبت الى الكواليس
وتحدثت الى الممثلين ، ثم انفجرت بعدد من المشاهدين الذين وصلوا
متأخرين بسبب العاصفة الثلجية ، وعدت الى غرفتي لأتابع اعداد
مشهد من مسرحية (التحقيق) لبيتر وايز .

رن جرس الهاتف ، وأخبرتني عاملة المقسم إن السيدة برغمان
ترغب بالتحدث مع مدير المسرح . وبما أنه كان يوجد العديد من النساء
اللواتي يحمان اسم برغمان ، فقد سألتها بنزق عن أية سيدة برغمان
تتحدث ، فأجابت العاملة بذعر : إن المرأة هي والدة مخرج المسرح ، وهي
تريد أن ترى ابنها حالا .

ذهبت لأبحث عن أمي التي كانت قد شقت طريقها الى المسرح
وسط العاصفة الثلجية ، وكانت لا تزال تتنفس بصعوبة بسبب الجهد
والقلب الضعيف والغضب . طلبت إليها أن تجلس ، وسألتها إذا كانت
راغبة بفتجان من الشاي ، قالت : إنها لن تجلس ، وليست لديها
أية رغبة لشرب الشاي ، وإن الغرض من زيارتها أن أعيد على مسامعها
تلك الكلمات القاسية والخالية من الرحمة التي أسمعتها إياها على
الهاتف في الصباح . كانت تريد أن ترى كيف أبدو وأنا أعق والديّ
وأهينهما .

ذاب الثلج حول هذه الانسانة المكسوة بالفرو ، مخلفا بقعا غامقة
على السجاد عند قدميها . كانت شاحبة للغاية ، عيناها السوداء وان
غاضبتان ، وأنفها احمر من البرد .

حاولت أن أعانقها وأقبلها ، لكنها دفعتني عنها وصدفتني . (كانت
أمي تمتلك تقنية خاصة للصفع لا يمكن التفوق عليها ، فالضربة تهوي
مثل البرق ، بيدها اليسرى المحملة بخاتمي الزواج الثقيلين ، مؤكدة
بذلك على ألم العقاب) . انتابني الضحك ، أما أمي فانفجرت بالبكاء ،
وانهارت ، بمهارة ملحوظة ، على مقعد قريب من طاولة المكتب ، وأخفت
وجهها بيدها اليمنى ، وأخذت تبحث بيسراها عن المنديل في حقيبتها .

جلست الى جانبها ، وأكدت لها أنني سوف أذهب لرؤية أبي ،
وأنتي نادى على كل ما قلت ، وطلبت منها أن تصفح عني .

طوقتني بذراعيها ، وقالت : إنها لن تزعجني أكثر من ذلك .

بعد ذلك شربنا الشاي ، وبقينا جالسين نتحدث بهدوء حتى الثانية
صباحا .

حدث كل هذا يوم الثلاثاء . وفي يوم الأحد الذي تلاه ، اتصلت بي
إمراة من أقرباء العائلة ، كانت تسكن مع أمي أثناء وجود أبي في
المستشفى ، وأخبرتني أن أمي في حالة خطيرة ، وأن طبيبتها نانشافارتز
في طريقها اليها . هرعت الى ستورغاتن ٧ . وعندما وصلت ، وجدت
الطبيبة تفتح لي الباب ، وتخبرني دون تردد بأن أمي قد توفيت منذ
دقائق .

ويا لدهشتي ! إذ بدأت أبكي بصوت عال دون أن أستطيع السيطرة
على نفسي . سرعان ما انقضت هذه الحالة ، وكانت الطبيبة العجوز
تقف صامتا الى جانبي وهي ممسكة بيدي . وعندما هدأت قليلا ،
أخبرتني أن الأمر كله تم بسرعة . . . نوبتان استمرت كل منهما عشرين
دقيقة .

لم يمض وقت طول حتى وجدت نفسي وحيدا مع أمي في الشقة
الساكنة .

كانت مستلقية على سريرها برداء النوم الفلانيل وجاكيت صوف
أزرق . وقد أشاحت بوجهها جانبا ، وانفرجت شفتاها قليلا . كانت
شاحبة ، والظلال القاتمة تحيط بعينيها ، وكان شعرها الأسود مرتبا
بأناقة . . ولكن لا ، فشعرها لم يعد أسود ، بل رماديا فاتحا ، وقد
عمدت خلال السنوات الأخيرة الى الاحتفاظ به قصيرا . لكن صورتها
في ذاكرتي لا تزال تشعرني بأن شعرها كان أسود ، وبه تموجات رمادية .

كانت يداها تستريحان على صدرها ، وكان ثمة ضماد صغير يلف سبابتها .

وفجأة غمر الغرفة ضياء ربيعي مشرق ومبكر ، وكانت الساعة المنبه الى جانب السرير لا تزال تعمل بنشاط .

خيل إلي أن أمي كانت تتنفس وأن صدرها يملو ويهبط ببطء ، وأن بوسعي أن أسمع صوت تنفسها ، وخيل إلي أن جفنيها يتحركان ، وأنها نائمة ، وعلى وشك أن تستيقظ . .

كانت هذه لعبتي الوهمية المعتادة مع الواقع .

أمضيت بقربها ساعات عديدة . بدأت أجراس كنيسة هيدفغ إليانورا تفرع داعية للصلاة ، وتبدلت الاضاءة داخل الغرفة ، وسمعت صوت عزف على البيانو . لا أعتقد أنني كنت أعاني من الحزن وقتها أو أفكر ، أو حتى أراقب نفسي أو أؤدي دورا ما - هذا الداء المتعلق بالمهنة ، والذي بقي يلاحقني طوال حياتي بلا رحمة ، ويسلبني أكثر خبراتي عمقا .

لا أذكر كثيرا من تلك الساعات التي أمضيتها في غرفة أمي . أكثر ما أذكره ، ذلك الضماد الصغير الذي كان يغطي سبابتها اليسرى .

بعد ظهر اليوم ذاته ، ذهبت لأرى والدي في المستشفى وأخبره بموت أمي . كان قد نجا من العملية ومن نتائج مرض ذات الرئة وكان يجلس على مقعد أزرق ، حليق الذقن ومرتب الثياب . نظر إلي بتأمل . . عيناه هادئتان ، صافيتان وواسعتان . وعندما أخبرته بما أعرف ، أو ما برأسه ، وطلب مني أن أدعه وحده .

* * *

ارتبطت نشأتنا بمفاهيم الخطيئة والاعتراف والعقاب والغفران
وصلاة المائدة .. عوامل قاسية حكمت العلاقات بين الأبناء والآباء والله .
كان ثمة منطق فطري في كل ما كنا نتلقاه ونعتقد أننا فهمناه ، وربما
ساهمت هذه الحقيقة في تقبلنا المدهش للنازية . لم نكن قد سمعنا
بالحرية ولم نذق طعمها أبدا .. ففي النظام الكهنوتي تكون الأبواب
موصدة تماما .

لهذا كان العقاب أمرا بديهيا لا يجوز التساؤل بصدده . أحيانا
يكون سريعا وبسيطا مثل صفعة على الوجه أو ضربة على المؤخرة ،
وأحيانا أخرى ، يكون بالغ التعقيد ومتوارثا عبر الأجيال .

عندما كنت أتبول في فراشي ، الأمر الذي كان يحدث بكثرة وسهولة ،
كنت أجبر على ارتداء تنورة حمراء قصيرة لبقية اليوم ، وكان هذا
العقاب يعتبر مؤذيا ومضحكا في آن واحد . الجرائم الكبيرة كانت
تحصد عقابا نموذجيا يبدأ من لحظة اكتشاف الجريمة . وفي حالات
أخرى قليلة كان المجرم يعترف بفعله لأمه ، أو لأحدى الخادמות ،
أو النساء الكثيرات اللواتي كن يوجدن في بيت الكاهن لأسباب مختلفة .

النتيجة الفورية للاعتراف كانت تتمثل في التجاهل المطلق ..
فلا أحد يكلمك ، ويطول زمن العقاب وموعد حلول الغفران . بعد
العشاء والقهوة ، يقام اجتماع في غرفة الأب ، حيث يعاد الاستجواب
والاعتراف ، ثم يؤتى بالمضرب الخشبي الذي يستخدم عادة لتنظيف
السجاد ، عليك أن تقرر بنفسك عدد الضربات التي تستحقها . وبعد
أن تحدد حصتك ، وينزع عنك البنطال والسرwal الداخلي ، وتنبطح
على الأرض ، ويمسك أحد بعنقك ويبدأ بعد الضربات .

لا أذكر أن الأمر كان مؤلما . المؤلم حقا كان الجو بحد ذاته ،
واحساس الذل المرتبط به ، وقد نال شقيقي نصيبه من هذا العقاب ،
وكانت أمي تجلس الى جوار سريريه ، تعالج له مؤخرته التي ترك المضرب

الخشبي عليها آثاره الدائرية الحمراء . وبما أنني كنت أكره شقيقي وأخشى من ثورات غضبه المفاجئة ، فقد كنت أشعر بالرضى وأنا أراه يعاقب بهذه القسوة .

وبعد أن ينتهي عدو الضربات ، يجب أن تقبل يد والدك .. فيعلن بدوره الففران .. فيزول عبء الخطيئة ، وتتلى الصلاة . ومع ذلك ، عليك أن تمضي الى فراشك دون عشاء ، لكن شعورا بالراحة يرافقك آنذاك .

وكان ثمة نوع آخر من العقاب ، غير سار بالنسبة لطفل يعذبه خوفه من الظلام ، إذ يحبس داخل خزانة خاصة . وقد أخبرتنا أما في المطبخ أنه بداخل هذه الخزانة يعيش مخلوق مخيف ، يلتهم أصابع أقدام الأطفال سيئي السلوك ، وكنت أسمع بوضوح صوت شيء ما يتحرك داخل الخزانة في الظلام ، فيصل رعيي الى أقصى درجاته . لا أذكر ماذا كنت أفعل عندها ، ربما كنت أتعلق بحمالة الثياب لأنقذ قدمي من الاتهام .

وسرعان ما فقد هذا العقاب فعاليته المخيفة عندما وجدت الحل .. فقد أخفيت في إحدى زوايا الخزانة مصباحا يصدر ألوانا حمراء وخضراء . وما أن أحبس داخل الخزانة حتى ألتقطه ، وأوجه حزمة الضوء الملونة على الجدار .. وأتظاهر أنني في السينما . وذات مرة فتح باب الخزانة فجأة ، فألقيت بنفسي على الأرضية الخشبية ، وأغمضت عيني وتظاهرت بأنني فاقد وعيي ، فأصيب الجميع بالفرع ، باستثناء أمي التي أحست بالخدعة ، لكنها لم تجد الدليل على ذلك .. وهكذا تأخر موعد العقاب التالي .

عرفت أنواعا أخرى من العقاب : حرمان من السينما والطعام ، حجز في السرير ، وظائف إضافية ، ضرب على الرأس ، شد الشعر ، تنظيف المطبخ (وقد كان عملا لطيفا) . لا أحد يتكلم معك لمدة من الزمن .. وهكذا .

أما الآن ، فأنني أستطيع أن أفهم سبب اليأس الذي كان ينتاب والدي ، فأسرة الكاهن تعيش عادة بشكل مكشوف ، غير محمية من عيون الآخرين . ويجب أن يكون بيت الكاهن مفتوحا على الدوام لتعليقات وشكاوى رعايا الكنيسة . لقد كان والدي قريين الى درجة الكمال ، لكنهما كانا يضعفان أمام ضغوط غير طبيعية ، كان يوم عملهما يبدأ ولا ينتهي ، وكان زواجهما صعبا ، ونظامهما الخاص شديد الحزم ، وكان ولدهما يعكسان كثيرا من الصفات الموجودة لديهما أساسا ، والتي طالما عاقبا نفسيهما لأجلها . فشقيقي كان ابنا عاصيا وغير قادر على حماية نفسه ، وقد استخدم والدي كل طاقته من أجل تحطيمه ، ونجح في ذلك . أما شقيقتي فكانت محبوبة جدا لديهما ، وكانت تستجيب لهما على نحو فيه كثير من الجبن وطمس الذات .

اعتقد أن أحوالي تحسنت عندما أصبحت كاذبا ، وأوجدت شخصا إضافيا في داخلي لا يشترك مع حقيقتي إلا بالشيء القليل ، بعدها لم أتمكن من الفصل بين ذاتي وهذا الشخص ، الأمر الذي ترك أضرارا لاحقة على حياتي وإداعي في مرحلة النضج . أحيانا أكون مضطرا الى مواساة نفسي بحقيقة أن الانسان الذي عاش كذبة ، يحب الحقيقة .

كذبتى الواعية الاولى تقف بوضوح في ذاكرتي . . . فعندما أصبح والدي قسيسا ملحقا باحدى المؤسسات ، انتقلنا الى بناء أصغر قريب من الحديقة الواسعة التي تحيط بمنطقة ليجانسكريجن في استوكهولم . كان يوما شتائيا باردا ، وكنا نتسلى ، أنا وشقيقي ورفاقه ، بالقاء قطع الثلج على نوافذ أحد البيوت وتحطيمها ، أسرع بواب البناء وأخبر والدي بالأمر . بدأت التحقيقات . . . اعترف شقيقي ، وتبعه رفاقه . في ذلك الوقت كنت موجودا في المطبخ أشرب الحليب ، وأراقب إليها تجهز الفطائر ، عندما دخلت سيري ، خادمة المنزل ، وأطلعتنا على عملية العقاب البشعة التي تجري خارجا ، ثم التفتت الي وسألتنى فيما اذا كنت قد اشتركت في هذا التخريب المتعمد ، وهو الامر الذي سبق وإنكرته أثناء التحقيقات الاولى (وقد اطلق سراحي مبدئيا لعدم توفر

الادلة) . لذلك عندما سألتني سيري ، أدركت على الفور أنها تحاول الايقاع بي ، فأجبتها بصوت هادئ بأنني كنت أراقبهم ، ثم رميت ببعض الكرات الثلجية الصغيرة ، وعدت الى المنزل لأن قدمي قد تجمدتا من البرد . بعدها فكرت بأنني يجب أن أتكم بهذه الطريقة الهادئة عندما أكذب .

كان اكتشافا حاسما ، وبالطريقة نفسها التي اتبعها (دون جوان) موليير ، قررت بدوري أن أصبح منافقا . لا أستطيع الجزم بأنني كنت ناجحا في ذلك دائما ، كانت تعوزني الخبرة ، وأحيانا كان يفتضح أمري .

احدى قريبات أسرتنا ، كانت امرأة محسنة واسعة الشراء ، تدعى العمة آنا ، وكانت تدعونا الى حفلات للاطفال مليئة بالمسرات ، وتهدينا اشياء ثمينة ومشتهاة في ليالي عيد الميلاد ، وتأخذنا كل سنة الى العرض الاول لسيرك شومان في دجورغاردن ، هذا الحدث الذي كان يدفعني الى حالة من الانارة المحمومة : الرحلة بالسيارة مع سائق العمة آنا ، عبر الابنية الخشبية المضيئة ، ذات الروائح الغامضة . قبة العمة آنا المفضضة ، الاوركسترا المدوية ، سحر التحضيرات ، وزئير الاسود والنمور وراء ستائر مدخل السيرك الحمراء ، أحدهم يهمس بأن اسدا ظهر تحت القبة وأن المهرج مصاب بالفرع . سرعان ما أغفو اثر احساس شفاف ، ثم استيقظ على صوت موسيقا رائعة وأجد امامي امرأة في ثياب بيضاء تمتطي صهوة حصان فحل أسود .

وفجأة وجدت نفسي أقع في حب هذه المرأة ، وادخلها الى عالم تخيلاتي ، وادعوها اسمراالدا (ربما كان هذا اسمها) . لكن تخيلاتي سرعان ما أخذت طريقها وبكل مخطر الى عالم الواقع بعد أن عهدت بسيري الى صديق لي في المدرسة ، يجلس بجانبني في الصف ، وبدعى نايس . . . أخبرته بأن والذي قد باعني الى سيرك شومان وأناي ، سأرحل قريبا عن المدرسة والبيت لاتدرب وأصبح بهلوانا واعمل مع اسمراالدا

التي تعتبر اجمل امرأة في الدنيا . وفي اليوم التالي انتشر سري في المدرسة كلها .

استاذة الصف اعتبرت الامر شديد الخطورة ، فبعثت لامي برسالة عنيفة . بعد ذلك بدأ مشهد المحاكمة المخيف ، فوفقت ووجهي للحائط وعانيت من الاذلال والخزي في كل من المدرسة والبيت .

بعد خمسين سنة ، سألت أمي فيما اذا كانت لاتزال تذكر قصة بيعي للسرك ، فأجابت بأنها تذكر القصة جيدا ، فعدت أسألها لماذا لم يسخر أحد مني ، أو على الأقل لم يصب بالدهشة لهذا الخيال الجريء ؟ لماذا لم يتساءل أحد منهم حول السبب العميق الذي يجعل طفلا في السابعة يتمنى لو يهجر بيته ويبيع الى السرك ؟ وعندئذ أخبرتني أمي بأنهم كانوا قد عانوا الكثير - وفي مناسبات عديدة - بسبب تخيلاتني وأكاذيبي ، وأنها في فورة غضبها استشارت إخصائيا للاطفال فأكد لها أهمية ان يتعلم الطفل ، في مرحلة مبكرة ، التمييز بين الخيال والواقع . وهكذا كان يجب مواجهة أكاذيبي الوقحة والآثمة بالعقاب المناسب .

حاولت ان أنتقم من صديقي السابق الذي أفشى سري ، فسرقت سكين شقيقي وطاردته وهو يفرّ أمامي ويدور حول بناء المدرسة ، وعندما أقت المعلمة بنفسها لتفصل بيننا ، حاولت أن أقتلها .

أبعدت عن المدرسة وضربت بقسوة . أما صديقي المزيف فقد أصيب بشلل الاطفال ومات .. ففرحت كثيرا . توقف صفنا عن الدراسة لمدة ثلاثة أسابيع ، وبعدها نسوا كل شيء ..

أما أنا فقد بقيت أتخيل أسمر الدا . ازدادت مغامراتنا خطورة . وأصبح حبنا أكثر تأججا ، في الوقت الذي بدأت أتعلق بفتاة في صفي تدعى غلاديس ، ومن ثم مع واحدة أخرى ، هي تيبان .. الخائنة .

حديقة صوفيا همت ، المستشفى الملكي الكبير ، الواجهة المطلة على فالهالفاجن ، استاد على جانب ، وكلية التكنولوجيا على الجانب الآخر . والأبنية التي تتناثر على المساحات الخضراء المنبسطة . . .

كنت أتجول في هذه الامكنة بحرية تامة ، وأختبر الأشياء كلها . اثار اهتمامي كنيسة صغيرة مبنية من الحجر الصغير في عمق الحديقة؛ فاستطعت من خلال صداقتي مع خادم الكنيسة الذي يقوم بنقل الجثث من المستشفى الى الكنيسة ، أن أتعرف على كثير من القصص الجيدة ، وأن أشاهد جثثاً في حالات مختلفة من تعفنها . كان هناك بناء آخر يحظر دخوله ، ويؤدي الى غرفة الأفران الأربعة الضخمة التي كان يُوتى بالفحم اليها بواسطة عربات صغيرة تجرها الخيول في أيام محددة من الأسبوع . واليوم ، كما في الماضي ، لا تزال هذه الأفران تستخدم لحرق حمولات سرية من الجثث المشوهة والأعضاء المتوردة .

في أيام الأحاد ، كان والدي يرأس الخدمة الاجتماعية في الكنيسة التي كانت تمتلئ بالمرضات بزيهن الأسود الموحد والمراويل البيضاء وأغطية الرأس الخاصة بصوفياهم . وعلى الطرف المقابل لبيت الكاهن ، كان يوجد بناء تقطنه المرضات المسنات اللواتي وهبن حياتهن للمستشفى . كن شبيهات بالراهبات ، يعشن ضمن نظام الأديرة الصارم . وكان بوسع جميع قاطني هذا البناء أن يروا كل ما يحدث داخل بيت الكاهن . . . وكانوا يرونه فعلاً .

وكي أكون صادقاً ، فإنني انظر الى سنواتي المبكرة بكثير من البهجة والفضول . كان خيالي وأحاسيسي مشبعين تماماً ، ولا أذكر وجود لحظات باهتة في طفولتي . كانت الأيام والساعات تتفجر بالاكتشافات والرؤى غير المتوقعة واللحظات السحرية . لا يزال بوسعي أن اطوف الآن في عوالم طفولتي ، وأختبر مرة أخرى كل الأضواء والروائح والفرغ والحلقات والتلميح والهمسات . . . هذه الذكريات التي تشبه كثيراً فيلماً سينمائياً قصيراً أو طويلاً ، تم تصويره بشكل عشوائي .

تمتاز الطفولة بأنها تزيل كل ما هو مخفي بين السحر والعصيدة الدقيقة ، بين الرعب المطلق والفرح الغامر . لا وجود لتخوم سوى الحظر والأنظمة التي كانت مبهمة وغير مفهومة . اذكر على سبيل المثال 'نني لم أستوعب مفهوم الزمن . . قيل لي : « يجب أن تتعلم كيف تكون دقيقاً في مواعيدك . لقد أعطيت ساعة يد ويجب أن تخبر الوقت بدقة » لكن الزمن يتوقف بالنسبة لي ، شيء ما يخبرني أنني جائع ، وسرعان ما يحدث شجار .

كان يصعب تمييز الخيال عن الحقيقة . فعلت كل ما بوسعي . وربما كان من الممكن الإبقاء على الواقع كحقيقة . ولكن ماذا أفعل بالأشباح والأطياف . . وقصص البطولة القديمة؟! أهى حقيقة؟ الرب والملائكة؟ المسيح؟ آدم وحواء؟ الطوفان؟ وحقيقة ما حدث بين إبراهيم وإسحاق؟ هل كان إبراهيم سيدبجه حقاً؟ وأنظر برعب ، فأتعرف على إسحاق في نفسي ، هذه كانت حقيقة . الأب يريد أن يجز عنق انفمار . ماذا سيحدث لو تأخر الملاك؟ سوف يكون ، ويسيل الدم ، وانفمار يتسم بكآبة . . إنها الحقيقة .

ثم جاءت السينما .

قبل عيد الميلاد بأسابيع ، جاءنا سائق العمه الثرية آنا ، بزيه الأنيق ، حاملاً كمية من الهدايا وضعت كالعادة في السلة المخصصة لهدايا العيد في خزانة أسفل الدرج . ثمة رزمة أثارت اهتمامي على نحو خاص . كانت بنية اللون وتحمل صورة مخزن هامنفاتن ، الذي لم يكن يبيع آلات التصوير الفوتوغرافي فحسب ، بل وأيضاً كاميرات سينمائية حقيقية .

شغفت بألة السينما هذه أكثر من أي شيء آخر . وكنت قد ذهبت الى السينما في العام الماضي لأول مرة في حياتي ، وشاهدت فيلماً يحكي قصة حصان ، وربما كان اسم الفيلم (الأسود الجميل) ، وهو مقتبس

عن كتاب مشهور ، وكان يعرض في سينما شتور حيث جلسنا في مقدمة الصالة . هذه كانت البداية بالنسبة لي ، لقد أصبت بالحمى التي لم أشف منها قط . في السينما ظلال صامتة تلتفت إلي . فأرى وجوها الشاحبة ، وأسمع أصواتاً غير واضحة تخاطب أكثر أحاسيسي عمقا وسرية . لقد مضى ستون عاماً ولم يتغير شيء : الحمى لا تزال هي نفسها .

في وقت مبكر من خريف العام ذاته ، زرت صديقاً يملك آلة عرض سينمائي ومجموعة من الأفلام ، فوضع لي ولصديقتي تيبان فيلماً ، وسمح لي أن أدير الجهاز بيدي ، في حين أخذ هو يعانق تيبان ويقبلها .

كان عيد الميلاد مليئاً بالسرور ، وقد أدارته أمي بحزم . . . إذ كان من الضروري وجود تنظيم معتبر خلف طقوس الضيافة ووجبات الطعام وزيارات الأقارب وهدايا العيد وإجراءات الكنيسة .

تبدأ عشية عيد الميلاد هادئة ، فبعد صلاة الساعة الخامسة في الكنيسة ، نتناول وجبة خفيفة على ضوء الشموع المثبتة على الشجرة ، ثم نستمع الى قصة الميلاد ونذهب الى السرير في وقت مبكر (إذ يجب علينا الاستيقاظ مبكراً في صباح اليوم التالي لحضور القداس) . الهدايا لم تسلم بعد ، لكن الأمسية تمضي مبهجة . . . تعزف فيها مقدمات موسيقية لمهرجانات عيد الميلاد . بعد وجبة الطعام ، يكون والذي قد انتهى من واجباته الكهنوتية ، فيستبدل غفارته ببزة سوداء ، ويصبح مزاجه في أفضل حالاته ، فيرتجل حديثاً شعرياً ، ويرحب بالضيوف ، وينشد أغنية خاصة بالمناسبة ، ويتبادل الانخاب مع الموجودين ، ويقلد بعض أصدقائه فيضحك الجميع . لقد كنت أفكر في أحيان كثيرة ، بطيبة قلبه المفرحة ولطفاته ، ودمايته وكرمه ، كل هذه الصفات التي كانت تتوارى خلف سوداويته ووحشيته وجمهوده . أعتقد انني لم أكن منصفاً بحقه في ذاكرتي .

بعد الافطار في اليوم التالي، نعود الى أسرتنا لبضع ساعات، ويستمر نظام المنزل الأزلي حتى الساعة الثانية عندما تقدم قهوة بعد الظهر ، ثم نفتح أبواب المنزل لكل من يرغب بتهنئة الكاهن بالعيد ، وكان عدد من الأصدقاء موسيقيين متمونين فكانت فترة بعد الظهر مهرجانا موسيقياً مرتجلاً . بعدها تبدأ ذروة يوم الميلاد بالتصاعد، وجبة العشاء وكانت تقام في المطبخ الواسع حيث توضع المراتب الإجتماعية والكهنوتية جانباً لبعض الوقت ، ويقدم الطعام كله على الطاولة ويفطى الى أن يتم توزيع الهدايا في غرفة الطعام . كان والدي يشرف على العملية وهو يدخل السيجار ويحتسي الليكيور . تعطى الهدايا ، وتتلئ الأشعار بصوت عالٍ ، فيطرى أو يعلق عليها . لا هدايا دون قراءة الأشعار .

بعدها حدثت قصة جهاز السينما ، فقد حصل شقيقي عليه .

وعلى الفور بدأت أعوي ، واختفيت تحت الطاولة وانفجرت بالبكاء . قالوا لي إنني يجب أن أسكت فوراً . لكنني اندفعت الى غرفة النوم وأنا ألن وأشتم وأهدد بالهروب . وفي النهاية غفوت بعد أن أرهقني الحزن .

واستمرت الحفلة .

في وقت متأخر من المساء ، استيقظت على صوت غرترود وهي تنشد أغنية شعبية في الأسفل . كانت مصابيح المساء مضاءة ، ولمحت من بين هدايا شقيقي الأخرى الموضوعه على الطاولة ، آلة العرض السينمائي بغطائها المتوي واوحة عدساتها الجميلة ، ودولاب الأفلام المسنن .

اتخذت قرارى دون تردد ، فأيقظت شقيقي داغ وعرضت عليه صفقة : جيشي المؤلف من مائة جندي مقابل جهاز السينما . وبما ان داغ كان يمتلك جيشاً ضخماً ، ويتورط مع أصدقائه دائماً في ألعاب الحرب ، فقد تمت الصفقة وبموافقة الطرفين .

وأصبح جهاز السينما ملكاً لي . .

لم تكن آلة معقدة ، فمصدر الضوء كان مصباح كيروسين ، وذراع التدوير كانت مرتبطة بدولاب مسنن . وفي مؤخرة الصندوق المعدني توجد مرآة عاكسة بسيطة ، وثمة شق صغير وراء العدسة لشرائح الفيلم . كذلك كان الجهاز يتضمن مربعاً أرجوانياً يحتوي على شرائح زجاجية ، ومقطعاً من الفيلم (قياس ٣٥ مم) طوله ثلاثة أمتار ، ملصق على الدولاب المسنن . وكانت هناك معلومات على الغطاء ، تفيد بأن عنوان الفيلم (السيدة هول) . لم يكن أحد يعرف من هي السيدة هول ، ثم انضح أنها كانت المرادف الشعبي لآلهة الحب في دول البحر المتوسط .

وفي الصباح التالي ، لجأت الى خزانة الثياب الحائطية الواسعة في غرفة النوم ، ووضعت آلة العرض السينمائي على قفص ، وأضأت مصباح الكيروسين ، ووجهت حزمة الضوء الى الجدار المطلي بالأبيض ، ثم وضعت الفيلم داخل الآلة .

ظهرت صورة مرج أخضر على الحائط . وفي منتصف المرج كانت تنام فتاة ترتدي اللباس الشعبي . وفجأة أوقفت العرض ! من المستحيل أن أصف ذلك . لا أستطيع أن أجد الكلمات المناسبة لأعبر عن إثارتي . ولكنني أستطيع في أي وقت أن أستحضر رائحة المعدن الساخن ، المتزجة برائحة كرات النفتالين الموزعة في خزانة الثياب ، وذلك الغبار الضوئي في فضاء الخزانة ، والمقبض في يدي ، والمربع المرتعش على الحائط .

تابعت العرض ، فرأيت الفتاة تنهض ، ثم تجلس ، ثم تنهض من جديد ، وتمد ذراعيها في الهواء وتستدير وتختفي في الجهة اليمنى . ولو كنت تابعت تحريك المقبض لظهرت الفتاة مرة أخرى ، نائمة على العشب ، تعيد تماماً كل حركاتها السابقة .

لقد كانت تتحرك .

* * *

طفولة تمضي مع صلوات المائدة في بيت الكاهن بصوفياهمت ، مع الإيقاع اليومي وأعياد الميلاد ومهرجانات الكنيسة وأيام الاحاد ، مع الواجبات والألعاب ، مع الحرية والإنسجام والأمان . في الشتاء طريق طويل ومحمتم الى المدرسة ، وفي الربيع ركوب الدراجات ولعبة البلى ، ثم القراءة بصوت مرتفع ، قرب النار في أمسيات الاحد الخريفية .

لم نكن نعرف أن أمانا قد مرت بقصة حب عارم، وأن والدنا كان يعاني من إحياط قاس . كانت أمانا تستعد لإنهاء زواجها والإنفصال عن والدنا، الذي هددها بالانتحار لو فعلت . تصالحا ، وقررا أن يستمرا سوية « لمصلحة الأطفال » ، كما قيل لنا آنذاك .

ذات أمسية خريفية، كنت مشغولاً بالتي السينمائية في غرفة النوم، وكانت شقيقتي نائمة في غرفة أمها ، وشقيقي يلعب في الخارج ، عندما سمعت فجأة صوت شجار في الأسفل ، صوت مخيف لم أسمعه من قبل . كانت أمي تنتحب وأبي غاضباً . اقتربت متسللاً من الدرج ورأيت والذي على وشك أن يتقاتلا ، أمي تحاول سحب معطفها إليها وأبي يمنعها ، ثم تركت معطفها واندفعت نحو الشرفة ، لكن أبي هرع وراءها، ودفعها جانباً، ووقف مقابل الباب ، صفعته على وجهه، فدفعها بقسوة تجاه الحائط ، ففقدت توازنها وسقطت على الأرض . كانت شقيقتي قد استيقظت بسبب الضجة وبدأت تبكي . عندها توقف والذي عن الشجار .

لا أستطيع أن أذكر تماماً ماذا حدث بعد ذلك . . كانت أمي جالسة على الأريكة في غرفتها ، أنفها ينزف دماً ، تحاول تهدئة شقيقتي .

عدت الى غرفتي ونظرت الى آلة السينما ، وتهاكت على ركبتى بشكل يدعو للشفقة ، ووعدت الله انه بوسعه الحصول على هذه الآلة والافلام كلها إذا عاد ابي وامي أصدقاء من جديد .

وقد استجاب الله الدعواتي . تدخل قس أبرشيه هيدفع إليانورا ، وكان يرأس والذي في عمله ، فتصالحا ، ثم دعتهما العمدة آنا الى إجازة طويلة في إيطاليا ، واخيراً تدخلت جدتي وحسنت الموضوع ، وعاد الوهم بالأمان .

كانت جدتي تعيش في أوبسالا ، وتمتلك بيتاً ريفياً في دالارنا . فعندما ترملت في الثلاثين ، وزعت شقتها الأنيقة في تراد غاردسفانت ، وانتقلت الى شقة أخرى مؤلفة من خمس غرف ومطبخ وغرفة للخادمة . عندما كنت صغيراً ، كانت جدتي تسكن هناك مع الأنسة هيلين نلسون - النصب التذكاري الخالد لنموذج المرأة في مقاطعة سمالاند - كانت تطهو طعاماً طيباً ، ومتدينة جداً ، وتدلعنا نحن الأطفال . وبعد أن توفيت جدتي ، جاءت الى أُمي التي شملتها بالرعاية . وعندما بلغت الخامسة والسبعين ، بنيت بسرطان الحنجرة ، فاعتزلت حجرتها ، وكتبت صيتها ، ثم رحلت الى شقيقها في بارا هولم ، حيث توفيت بعد بضعة أشهر . هيلين نلسون ، التي كنا نحن الصغار ندعوها (لالا) ، عاشت مع جدتي وامي ما يربو عن الخمسين عاماً .

عاشت جدتي ولالا باستقلالية مزاجية مشتركة ، استلزمت قدرأ كبيراً من التجاوزات دون أن تثير تساؤل أحد . بالنسبة لي ، كانت تلك الشقة الواسعة في تراد غارد سفانت ، مثلاً للأمان والسحر : الساعة الحائطية الضخمة ، ضياء الشمس الذي يزهو على السجاد الأخضر ، السنة النار في الموقد الآجري ، المدخنة الهادرة ، وأبواب الموقد الصغيرة الرنانة . أما الشارع ، فثمة مركبة ثلجية بأجراسها المجلجلة تمضي في مكان ما ، ونواقيس الكاتدرائية تدعو لصلاة أو جنازة ، ودائماً في

الصباح والمساء ، كنت أسمع أجراس كاتدرائية غونبلا البعيدة والمرهفة .

أثاث قديم ، ستائر قاتمة ، لوحات غامضة . وفي نهاية الصالة الممتدة والمظلمة ، توجد غرفة عجيبة ذات أربعة ثقب في أسفل بابها ، وورق جدران أحمر ، وكروسي من خشب الماهوغاني ، منحوت على شكل عرش ومزين بالنحاس والزخارف . كانت هناك مسافة قصيرة مغطاة ببساط ناعم تؤدي الى كرسي العرش ذي الهوة القاتمة والرائحة الغريبة، وكان الجلوس على عرش الجدة يتطلب شجاعة حقيقية .

كان موقد الصالة يبعث رائحة خاصة به ، هي مزيج من الفحم المحترق والمعدن الساخن ، وعندما كانت لالا تحضر العشاء في المطبخ ، كان شذى الطعام يطفو بدفء في الشقة كلها ، ويندمج باتحاد علوي مع الروائح الغامضة المنبعثة من الغرفة السرية .

وكان السجاد يفوح برائحة النظافة وكرات الفتالين التي تخزن به عندما يطوى في الصيف . وكانت لالا تقوم كل جمعة بتلميع الأرضية الخشبية بشمع النحل والترينتتين وسائل ذي عبير نفاذ ، أما اللينوليوم فكانت تستخدم لتنظيفه مزيجاً من الحليب الفاسد والماء . وهكذا كان الناس يسرون في الشقة وكأنهم وسط سيمفونيات من الروائح ... بالإضافة الى روائح البودرة والعطور وصابون القطران والبولوالجنس والعرق ومراهم الشعر والسعوط والطعام . بعض الأشخاص كانت لهم روائح بشرية ، والبعض الآخر روائح تشعير بالخطر . فالعمة إما كانت تضع شعراً مستعاراً تلصقه على صلعتها بواسطة نوع خاص من الصمغ - فكانت تفوح منها رائحة الصمغ دائماً . أما جدي فكانت لها رائحة الفليسيرين وماء الورد . وأمي لها رائحة طيبة مثل الفانيليا . أما الرائحة المفضلة عندي فكانت لمرضة شابة عرجاء ، مكتنزة ، ذات شعر أحمر . وكان أروع شيء في العالم أن أضع رأسي على ذراعها وأنام معها في سريرها ، وأدفن رأسي في رداء نومها الخشن .

كان عالماً مغموراً بالأضواء والروائح والأصوات . واليوم ، عندما اكون هادئاً ، أستطيع أن أمضي من غرفة لأخرى ، فأعرف وأشعر بكل شيء كان . في هدوء بيت جدتي تفتحت أحاسيسي التي قررت أن احتفظ بها الى الأبد . ولكن أين اختفى كل هذا الآن ؟ هل ورث أحد من أبنائي تلك الإنطباعات التي تركتها أحاسيسي ؟ أوسع أحد أن يرث الإنطاعات التي تركها الأحاسيس والتجارب والرؤى ؟

الأيام والأسابيع والأشهر التي أمضيتها في بيت جدتي أصبحت قدرتي على الصبر وحاجتي الى الصمت والنظام . كنت ألهو بالألعاب وحدتي دون رغبة بوجود أصدقاء معي ، في حين كانت جدتي تجلس على كرسي في غرفة الطعام ، متمسحة بالسواد ، تقرا كتاباً أو تراجع حسابات او تكتب رسائل ، فأسمع صوت ريشتها الفولاذية تصير بوهن ، وكانت لا لا تفني وحدها في المطبخ . انحنيت على لعبة المسرح ، وجعلت الستار يرتفع بشكل مثير ، كاشفاً عن فاعة الرقص المشرفة حيث ترقص سندريلا . كانت العابي تجعلني سيد المسرح ، وخيالي يجعل هذا المسرح مأهولاً بالشخصيات .

استيقظت ذات يوم أحد وأنا أشعر بالآلام في حنجرتي ، فأعفيت من الذهاب الى الكنيسة وبقيت في الشقة وحدي . كان الطقس ربيعياً وأشعة الشمس تروح وتجيء بحركات سريعة صامتة على الستائر واللوحات . جلست تحت طاولة الطعام الضخمة وأسندت ظهري الى إحدى قوائمها المزخرفة . كانت الكراسي تحيط بالطاولة ، والجدران مغطاة بالورق الأصفر الذي بدأ يبهت لونه مع الزمن ويفوح برائحة القدم . وكان بوفيه الغرفة يرتفع خلفي كالحصن ، وإبريق الماء الزجاجي مع قطع الثلج فيه يتلألأ بأضواء متوهجة . وعلى الحائط المقابل علقنا لوحة لبيوت بيضاء وصفراء وحمراء تقوم على ضفاف نهر ترسو فيه قوارب مستطيلة .

ساعة غرفة الطعام التي كانت تلامس السقف المزخرف ، كانت تحدث نفسها مثلما يفعل انسان منطوي على ذاته . وكان بوسمي أن أرى من موقعي تحت الطاولة ، الخضرة المبهجة لغرفة الاستقبال ذات الجدران الخضراء والسجاد والاثاث والستائر ، وأن أرى كذلك التمثال الصغير لتلك السيدة العاربية البيضاء ، المبتورة اليدين ، وهي تنحني الى الامام قليلا وتنظر إلي مبتسمة . وكانت هناك ساعة مطلية بالذهب وفيها قبة زجاجية ، يوجد بداخلها شاب يمسك الناي ، وفتاة بقبعة كبيرة وتنورة قصيرة . وكان كلاهما مطليا بالذهب ، وعندما كانت الساعة تدق الثانية عشرة ، كان الشاب يبدأ العزف وترقص الفتاة .

يشع ضوء الشمس أكثر ويضيء المواشير الزجاجية للثريا ، وتدق الساعة ، فيعزف الشاب وترقص الفتاة ، ويوميء رأس السيدة البيضاء العاربية ، وأرى شبح الموت يسحب منجله على الارض ، وأرى ابتسامة جمجمته الصفراء ، وخياله على زجاج باب الشرفة .



تملكتني رغبة لان أرى وجه جدتي ، فأمسكت بصورة ورايت فيها جدي ، مدير المواصلات ، وجدتي ، وابناء زوجها الثلاثة . كان جدي ينظر الى جدتي بفخر ، لحيته السوداء مثذبة بعناية ، نظارته الأنفية ذات اطار ذهبي ، ياقة قميصه عالية ، وبزته دون أخطاء . أما أولاده الثلاثة فكانوا شباباً ، لهم نظرات مترددة وهيئات واهنة . أما أولاده العدسة المكبرة ، وبدأت أنفحص ملامح جدتي ، عيناها شاحبتان ولكنهما حادثان ، وجهها ريان وممتلىء ، رقبته عنيذة وفمها حازم رغم الابتسامة اللطيفة التي تقطنها كاميرا الاستوديو . شعرها أسود وقصير ومرتب بدقة . لا أستطيع القول : إنها كانت جميلة ، لكنها كانت تشع بقوة الإرادة والذكاء والمرح .

كانت وجدي عريسين جديدين ، يعطيان انطباعاً قوياً بالثقة بالنفس وكانهما يقولان : لقد قبلنا بأدوارنا وسوف نتصرف وفقاً لها . أما الأبناء فقد بدوا مشتتين ، مقهورين ومتمردين أيضاً .

لقد بنى جدي في دالارنا واحداً من أجمل بيوتها الصيفية ، وكان يطل على النهر العريض ومخازن الحبوب والهضاب . وكان جدي يحب القطارات وخط السكة الحديدية الذي يخترق أرضه في منحدر يبعد بضعة مئات من الأمتار عن الدار ، فكان يجلس على الشرفة ويحدد مواعيد القطارات الثمانية واتجاهاتها وحمولاتها ، وكان يوسعه أن يرى أيضاً الجسر الذي تمتد فوقه السكة الحديدية عبر النهر ، والذي كان عملاً هندسياً مبدعاً يبعث في نفس جدي الفخر والسعادة . قالوا : انني كنت أجلس طويلاً على ركبتيه ، لكنني لا أذكر شيئاً من هذا ، لقد ورثت عنه شكل أصابعي الحاد ، وربما حماسه المنقطع النظير للمحركات البخارية .

ترملت جدتي بسرعة ، فانشجت بالسواد وابيض شعرها . تزوج الأبناء ورحلوا عن المنزل وبقيت هي وحيدة مع لالا . لقد أخبرتني أمي ذات يوم بأن جدتي لم تحب أحداً سوى ابنها الأصغر أرست ، وأن أمي حاولت أن تحظى بحبها عن طريق التشبه بها في كل مناسبة ، لكنها أخفقت لأنها كانت إنسانة من النوعية الأكثر طيبة .

أما أبي فقد وصف جدتي بأنها بغي مستبدة ، وطبعاً لم يكن وحيداً في رأيه هذا .

وعلى الرغم من كل هذا ، فإن أروع أوقات طفولتي انقضت برفقة جدتي . كانت تعاملني بحنان قاس وبرغبة للفهم . لقد حافظت معها ، ضمن أشياء أخرى عديدة ، على طقس كنت أحبه للغاية . فقبل العشاء ، كنا نجلس على الكنبه الخضراء ونناقش أموراً كثيرة لمدة ساعة من الزمن . كانت جدتي تحدثني عن العالم والحياة والموت (الذي كان يشغل حيزاً

كبيراً من تفكيري آنذاك) : وكانت تريد أن تعرف كيف أفكر بدوري ، فستمع إلي باهتمام ، وثراني من خلال أكاذيبي ، وأحياناً ترميها جانباً بسخرية ودودة . لقد منحنتني الفرصة لأن أتحدث كأنسان حقيقي ، له حق في الكلام ، دون أن يلجأ للخداع .

كانت أحاديثنا تدور في أمسيات الشتاء الحميمة .

جدتي كانت تمتلك صفة أخرى مفرحة . كانت تحب الذهاب الى السينما ، وإذا كان الفيلم مسموحاً به للأطفال ، كانت تأخذهم معها . وكان هناك عنصر واحد يفسد علينا متعتنا ، وهو حذاء جدتي المطاطي . فجدتي كانت تكره مشاهد الحب التي كانت أعشقها ، وعندما يجتمع البطل والبطلة في النهاية ، ويفيض بهما الشوق ، ويعبران عن مشاعرهما ، كان حذاء جدتي المطاطي يصابىء ، وكان صوته يملأ قاعة السينما كلها .

كان كل واحد منا يقرأ للآخر بصوت مرتفع ، كنا نخترع قصصاً ، خصوصاً تلك المتلفة بالاشباح وامور الرعب الاخرى ، وكنا نرسم اشخاصاً على شكل مسلسل ، يبدأ أحدنا برسم مشهد ويتابع الاخر رسم المشهد التالي حتى يتطور الحدث . كنا نرسم « أحداثاً » لأبام عديدة ، ويتجمع لدينا حوالي أربعين أو خمسين مشهداً يتضمنون نصوصاً وشروحات .

أما النظام المنزلي في تراد غاردسفان فقد كان صارماً جداً . فعندما تشعل النار في المواقد الاجرية ، تكون الساعة السابعة صباحاً ، فنستيقظ ونغتسل بالماء البارد ، وتناول العصيدة والخبز المدهون بالزبدة ، ثم نصلي ونصرف الى وظائفنا ودورسنا تحت اشراف الجدة . وفي الواحدة نتناول الشطائر والشاي ، ثم نغادر المنزل مها كانت الأحوال الجوية ، ونمضي لمشاهد ماتعرضه دور السينما . العشاء في الخامسة بعد الظهر ، ثم التسلية بالعباب قديمة تعود الى طفولة العم ارنست . نقرأ بصوت عال ، نصلي صلاة المساء ، ثم تفرع أجراس غونيل . ويبدأ الليل في الساعة الثامنة .

استلقي على السرير الضيق ، وأنصت الى الصمت ، وتأمل حزمة الضوء المتدفقة من مصباح الشارع عبر زجاج النافذة ، ترسم أضواءً وظلالاً على السقف . وعندما تتعرض سهول او بسالا للعواصف الثلجية، كان مصباح الشارع يتأرجح بعنف فتجدد الظلال ، وتسمع أصوات قصف في المواقف الآجرية .

في أيام الآحاد ، كنا نتناول العشاء في الساعة الرابعة وذلك بسبب حضور العمه لوتن . كانت تقطن منزلاً يعود الى ارسالية تبشيرية قديمة، وقد درست مع جدتي في المدرسة الثانوية نفسها ، وكانتا من الدفعة الاولى المتخرجة في هذه المدرسة ، وعلى مستوى البلاد . بعدها ذهبت العمه لوتن الى الصين ، ففقدت جمالها واسنانها واحدى عينيها .

كانت جدتي تعرف بانني اعتبر العمه لوتن مقززة ، فرأت أن تقسو علي وتجلسني دائما في مواعيد العشاء بجانب العمه ، فأستطيع أن ارى أنفها ذا الشعر مباشرة ، وداخل أنفها ، حيث كتلة المخاط الصفراء المخضرة . كانت تفوح منها رائحة بول جاف ، ويتخلخل طقم أسنانها عندما تتكلم . وأثناء الطعام ترفع صحنها الى وجهها ، وأسمع أحيانا هديرا مكبوتا يعلو في معدتها .

لكن هذا الانسانة المثيرة للاشمئزاز كانت تمتلك كنزا . فبعد العشاء والقهوة كانت تخرج من صندوق خشبي أصفر ، مسرح ظلال صينيا . وكانت تمد قماشاً أبيض فوق عتبة الباب الفاصل بين غرفتي الاستقبال والطعام ، وتطفىء الضوء وتبدأ باستعراض لعبة الظلال تلك . كانت ماهرة للغاية اذ تشكل عدة ظلال في آن واحد . في البداية تصبح الشاشة حمراء او زرقاء ، وفجأة يندفع عفريت على الخلفية الحمراء ، ثم يسطع القمر على الزرقاء ، ثم يتحول كل شيء الى اللون الأخضر ونرى سمكة عجيبة تفوص في أعماق البحر .

كان الأعمام يأتون للزيارة أحيانا وبرفقتهم زوجاتهم المرعات .

كان الرجال سماناً ، ملتحين ، يتحدثون بأصوات مرتفعة . وكانت النسوة ترتدين قبعات كبيرة وتعقن برائحة العرق . كنت أحاول أن أكتم أنفاسي قدر الامكان ، لكنهم كانوا يحملونني ، ويضمونني ويقبلونني ، يقرصونني ويعضونني ، وكنت انا هدفا لاسئلة حميمة : هل بلل الصبي نفسه هذا الاسبوع ؟ او الاسبوع الذي قبله ؟ افتح فمك ودعني أرَ هل يوجد لديك أسنان رخوة ؟ هنا يوجد شيء سيء ، هل نخلمه ؟ سوف تحصل على عشرة أورات(*) أعتقد أن الصبي يعاني من بداية حول . انظر هنا الى اصبعي ، نعم ، هذه عين لا تستطيع أن تتتبع جيدا . يجب أن تغطي عينك مثل القرصان . أغلق فمك . أنت تتشاءب كثيرا . لديك الزائدة الأنفية على ما أظن . أغلق فمك . الانسان يبدو ابله اذا بقي فمه مفتوحا . يجب أن تسمى جدتك لاجراء عملية جراحية لك . من المسيء أن تتجول وفمك مفتوح باستمرار ...

كانوا يتحركون بسرعة ، ويلتفتون حولهم بلا لباقة . وكانت الزوجات يدخن ، لكنهن يمتنعن عن ذلك في حضور الجدة . فيستشطن غضبا ، ويتعرقن . كانت اصواتهن حادة وسريعة ووجوههن مطلية . لم يكن يبدون كأمهات ، رغم أنهم كن أمهات . لكن العم كارل كان مختلفا .



(*) أور : عملة سويدية .

كان العم كارل جالسا على أريكة جدتي الخضراء ، يتلقى اللوم منها . كان رجلا ضخما وسمينا ذا جبهة عالية ، يعلوها القلق في هذه اللحظة بالذات . وكان رأسه الاصلع منقطا ببقع بنية ، وشعيرات اذنية حمراء . وكانت معدته تطفو فوق فخذه ونظاراته المبقشة دائما تخفي عينيه الزرقاوين الطيفتين ، وقد عقد بقوة يديه المكنزتين الناعمتين بين ركبتيه .

اما جدتي فجلست باتزان على مقعدها عند طاولة غرفة الاستقبال ، ووضعت كشتبانها على سبابتها اليمنى . وعندما كانت تريد التشديد على كلمة ما كانت تدق بالكشتبان على سطح الطاولة اللامع . وكالعادة ، كانت متشحة بالسواد ، تضع ياقة بيضاء ، وبروشا من حجر كريم ذي نقش بارز . وكان شعرها الابيض يلمع بسبب حزمة ضوء الشمس . كان يوما شتائيا باردا ، النار متأججة في المواقد والنوافذ مزينة بأصص الأزهار المتجمدة . دقت الساعة معلنة الثانية عشرة ، وبدأت الفتاة ترقص للشاب داخل القبة الزجاجية ، وعبرت مركبة ثلجية بأجراسها المتراقصة الشارع المرصوف بالحصى ، وتركت صدى ثقيلًا .

كنت جالسا على الأرض في الغرفة المجاورة ، حيث انتهيت لتوي مع العم كارل من وصل السكة الحديدية للقطار الذي أهدته اليه العمة الشرية آنا بمناسبة عيد الميلاد ، عندما ظهرت جدتي في الباب فجأة ودعت العم كارل الى المحاكمة بصوت مرتعش ، فنهض ، وتهد وارتدى سترته ، وشد حزام بنطاله ولحق بجدتي الى غرفة الجلوس . أغلقت جدتي الباب ، لكنها لم تفلقه جيدا ، فاستطعت أن اتابع كل ما يحدث كما لو كان على خشبة المسرح ...

كانت جدتي تتحدث ، والعم كارل يمطمط شفتيه المزرقتين استياء ، ويفوص برأسه أكثر فأكثر بين كتفيه . كان العم كارل نصف عم ، إذ كان الابن الأكبر لزوج جدتي ، ولم يكن يصغر جدتي بفارق كبير . وكانت هي وصية عليه ، فقد كان رقيقا وغير قادر على الاعتناء بنفسه ، لدرجة أنه كان يبحث أحيانا عن مأوى يلجأ إليه ، لكنه كان يعيش كضيف يدفع ثمن اقامته مع سيدتين في منتصف العمر ، وهما العمتان بيذا واستر اللتان كانتا تعنيان به قدر الامكان . كان مخلصا ورقيقا مثل كلب ضخم ، لكنه تجاوز الحد كثيرا في الآونة الأخيرة ، عندما اندفع ذات صباح ، خارجا من غرفته ، شبه عار ، وانقض بنفسه على العممة بيذا وأمطرها بوابل من القبلات والكلمات غير اللبقة . أما العممة بيذا فلم تصب بالفزع ، وركلت العم كارل في الموضع المطلوب ، تماما كما نصح الطبيب . ثم اتصلت بجدتي .

أحس العم كارل بالكرب الفظيع وسالت دموعه . لقد كان بطبيعته إنسانا مسالما ، يتردد كل يوم أحد على الكنيسة بصحبة العمتين بيذا واستر ، وهو يرتدي حلته الغامقة النظيفة ، مظهره لطيف ، وصوته من طبقة الجهر الأول فكان غالبا أحد المنشدين ، يشارك في جميع الفعاليات ، ويقوم بدور حامل الصولجان ، ويظهر في حفلات القهوة وتجمعات الخياطة ، فيقرأ بصوت عال للنسوة اللاتي ينصرفن بانشفال كامل الى خياطتهن .

كان العم كارل مخترعا حقيقيا ، حاصر مكتب براءات الاختراع الملكي بعشرات التصاميم والرسومات دون أن يلقى النجاح الكافي ، واختاروا مشروعين اثنين فقط من كل ما قدمه : آلة تجعل جبات البطاطس ذات حجم واحد ، وفرشاة مفصلة أوتوماتيكية .

كان العم كارل كثير الشكوك ، يعيش هاجسا مرعبا من أن أحدهم سوف يسرق أفكاره الجديدة ، لذا كان يحمل أوراقه معه دائما ، يضعها في لفة من القماش المشمع ويخفيها بين بنطاله وسرواله الداخلي

الطويل ، وقد كان القماش المشمع ضرورياً لأن العم كان يعاني من التبول المرضي العفوي . وأحيانا ، أثناء التجمعات الكبيرة لم يكن بوسعهم مقاومة عواطفه الجياشة ، فكان يلفّ ساقه اليمنى حول إحدى قوائم الكرسي الأمامية ، ويرتفع قليلا ، ويدع بنظاله وسرواله الداخلي ينتقعان بالسائل اللطيف المستحث ذاتيا .

كانت جدتي والعمتان على معرفة بنقاط ضعفه ، وكن قادرات على كبحه من خلال مناداته باسمه بشكل حاد وسريع : « كارل » . ولكن ذات مرة سمعت العمّة أهدأ صوت أزيز في الموقد الحار ، فأسرعت ررجدته يتبول في الموقد ، ويقول لها : « ها أنا أصنع فطائر محلاة » .

كنت أحترم العم كارل وأعتقد جازماً بكلام العمّة سيفن حوله ، بأنه واحد من أكثر إخوته موهبة . في الماضي وبدافع الفيرة القائلة وجه البرت ضربة بالمطرقة على رأس شقيقه الأكبر كارل ، فأصابه بوهن مستديم في عقله .

وقد أعجبت به كثيرا عندما اخترع أشياء جديدة لمصباحي السحري وجهازي السينمائي . أعاد تركيب العدسات وحامل الشرائح الفيلمية ، أدخل الى الجهاز مرآة مقعرة وأضاف ثلاث قطع من الزجاج الملون ، وأوجد خلفية متحركة للأشكال . وكانت الأنوف تكبر ، والأشباح تظهر من القبور التي يضيئها القمر والسفن تفرق ، وأمّ ترفع بطفلها عالياً قبل أن تبتلع الأمواج كليهما . واشترى العم كارل شرائح فيلمية جديدة دفع خمسة أورات ثمن المتر الواحد منها، ونقعها في ماء حار ممزوج بالصودا ليزيل المستحلب الأساسي ، وبعد أن جفت الشرائح ، رسم عليها مباشرة وبواسطة الحبر الصيني ، رسوماً متحركة ، وأحيانا أشكالاً لا على التعيين يمكنها فيما بعد أن تتحول وتنفجر وتقلص .

كان يجلس وراء طاولة العمل باستفراق مطلق ، ويضع شرائح الفيلم فوق صحيفة زجاجية مضاءة من الأسفل ، ويرفع نظاراته الى جبهته ،

ويضع عدسة مكبرة على عينه اليمنى . كان يدخن غليوناً معقوفاً قصيراً ، ويحتفظ بمجموعة من الغليونات المتشابهة أمامه على الطاولة ، منظفة ومعبأة وجاهزة للاستخدام . أما أنا فكنت أهدق بتصميم في الأشكال الصغيرة تنشأ بسرعة ودون تردد في الكادرات الصغيرة ، وأسمع العم كارل وهو يثرثر وينفخ غليونه ويلهث أثناء عمله . . . ويتحدث :

« ها هو تيدي ، كلب السيرك ، يتشقلب الى الامام . انه يعرف كيف يفعل هذا . لكن المدرب القاسي يدفعه ليتشقلب الى الورا ، وتيدي المسكين لا يعرف ، ها هو راسه يرتطم بالدائرة ويرى شمساً ونجوماً . سوف نلون النجوم بألوان أخرى ، كالأحمر مثلاً . هناك نتوء يظهر مكان الضربة ، لونه أحمر أيضاً . لا اعتقد أن العمتين بيذا واستر موجودتان في المنزل . اذهب الى غرفة الطعام وافتح الجارور الصغير على يسار البوفيه وستجد بداخله كيساً مليئاً بالشوكولا المحشية بالكريما . لقد أخفوها عني لأن أمك قالت : لا يجوز لي اكل الحلويات خذ اربع قطع واحذر أن يراك أحد . . » .

أديت المهمة ، واحضرت اربع قطع اعطاني منها واحدة فقط ، وألقى بالقطع الباقية في فمه وأخذ يستمتع بها ، ثم أسند ظهره الى الكرسي وأخذ يهدق بفسق الشتاء الرمادي ، وقال فجأة : « سوف أريك شيئاً ، ولكن اياك أن تقل لأمك . » ونهض وأضاء المصباح الرئيسي في الغرفة ، فانعكس أصفر على سطح غطاء الطاولة الشرقي ودعاني للجلوس مقابله ، ثم مزق قطعة من قميصه حول معصمه الأيسر ، بدأ بحذر ، ثم أخذ يمزقها بعنف الى أن تحرر معصمه وذراعه من كم القميص وبدأ لي أن بضع قطرات من سائل بلون الفيوم قد اخذ يتدفق فوق الطاولة . هكذا بدأ لي .

« توجد هندي حلتان ، ويجب علي أن اذهب كل يوم جمعة الى بيت جدتك لاغير حلتي وملابسي الداخلية ، انني أقوم بهذا منذ تسعة وعشرين عاماً ، ويجب أن أتعلق به كالطفل . . هذا ليس عدلاً . . سوف

يعاقبها الله . ان الله يعاقب المتسلطين .. انظر هناك .. ان النار تشتعل
في البيت المقابل . » .

كانت شمس الشتاء قد ظهرت فجأة . وشقت فجوة بين الفيوم
الرمادية القائمة وصبت ضياءها مباشرة على اللوح الزجاجي لاحد بيوت
البناء المقابل في غاملا آفاتن ، وكانت انعكاسات الضوء تلقي بمربعات
صفراء داكنة على سطح ورق الجدران . اضيء نصف وجه العم كارل
بالضوء المتوهج ، وكانت يده العارية تستند على الطاولة .. أو هكذا
كان يبدو لي .

عندما توفيت جدتي أصبحت أمي وصية على العم كارل ، فانتقلت
الى استوكهولم حيث استأجر غرفتين صغيرتين من سيدة عجوز تقيم في
رينغافاغن . واستمر النظام نفسه . كان يأتي كل يوم جمعة الى بيت
الكاهن ويتسلم ثياباً داخلية نظيفة ويرتدي بدلة نظيفة ومكوية وبلا بقع ،
ويتناول العشاء مع العائلة . لم يتغير مظهره أبداً ، جسمه لا يزال
مستديراً وثيلاً ، وجهه وردي منتفخ ، عيناه الزرقاوان اللطيفتان خلف
النظارات السمكية . واستمر يحاصر مكتب براءة الاختراعات بمشاريعه
الجديدة وينشد التراتيل أيام الاحاد في الكنيسة . وكانت أمي تدبر له
اموره المالية وتمنحه مصروفاً ثابتاً ، وكان يدعوها « الأخت كارين » ،
ويسخر أحياناً من محاولاتها للتشبه بجدتي : « تحاولين أن تكوني زوجة
اب . توقفي عن ذلك . فانت طيبة أكثر من اللازم » .

في يوم جمعة ، جاءت صاحبة المنزل حيث يسكن العم كارل وتحدثت
مع أمي طويلاً . كانت المرأة تبكي بصوت عال يمكن سماعه من خلال بضعة
حيطان . وبعد ساعة أو ساعتين ودعتنا وكان وجهها منتفخاً واحمر من
البكاء . انضمت أمي الى لالا في المطبخ ، جلست على الكرسي ، وبدأت
تضحك .

قالت : « لقد خطب العم كارل واحدة تصفره بثلاثين سنة » وبعد
بضعة أسابيع جاء الخطيبان الجديدان لزيارتنا ، وللتحدث حول مراسيم

الزفاف التي يفترض أن تكون بسيطة للغاية وتقام في الكنيسة . كان العم كارل ، على غير عادته ، يرتدي قميصاً رياضياً وسترة فضفاضة وبنطالاً ضيقاً من الفلانيل دون بقع عليه . وكان قد استبدل بنظاراته القديمة أخرى حديثة ، وبخذائه ذي الأزرار آخر جديداً . كان صامتا ، حزينا ومنطويا ، لم يتفوه بكلمة اعتراف واحدة ، ولم تبد عليه أية شطحة من شطحات الخيال العاصفة .

كان قد حصل على وظيفة حامل الصواجان في كنيسة صوفيا وتخلّى عن اختراعاته ، لكنه همس لي : « هذا مجرد وهم .. سوف ترى .. » .

كانت خطيبته قد تجاوزت الثلاثين ، ضئيلة ورفيعة ، عظام كتفيها بارزة وساقها رفيفتان . كانت أسنانها بيضاء وكبيرة وشعرها بلون العسل ، أنفها حاد ودقيق ، فمها رقيق ورقتها مستديرة . عينها سوداوان ولكن مضيئتان ، وكانت تعامل خطيبها بحنان وتملك وتسند يدها القوية على رقبته . لقد كانت معلمة رياضة .

وهكذا توقفت الوصاية التي كانت تبدو أبدية . قال العم كارل : « ان رأي زوجة أبي فيما يتعلق بحالتي العقلية هو احد أوهامها . لقد كانت شخصاً يحب السلطة ، لذا فهي بحاجة دائمة لوجود شخص تتحكم به » .

أما خطيبته فأخذت تتأمل الاسرة بعينها البراقنتين ، ولم تقل شيئاً . بعد بضعة أشهر انفسخت الخطوبة . وعاد العم كارل الى غرفتيه في رينغافاغن وترك عمله كحامل صولجان في الكنيسة . وقد اعترف لامي ان خطيبته حاولت ان توقفه عن اختراعاته وانتهى الامر بالصراخ والمشاجرات وبخدوش على وجنتي العم كارل الذي قال : « ظننت ان بوسمي التوقف عن الاختراعات ، لكن الامر كان مجرد وهم .. » .

وعادت أُمي وصية عليه من جديد ، وعاد يأتي إلى بيتنا كل يوم جمعة ، فيفتر حلته وثيابه الداخلية ويتناول العشاء مع العائلة ، وزدادت رغبته في أن يتبول على نفسه .

كانت لديه عادة أخرى أشد خطورة . . فثناء عبوره إلى المكتبة الملكية أو مكتبة المدينة ، حيث كان يمضي معظم أيامه ، كان يعبر الطريق من خلال نفق السكة الحديدية في جنوب استوكهولم . لقد كان في النهاية ابن مهندس مواصلات شيد الخط الحديدي الواصل بين كريلبو وإينسون فضلا عن عشقه للقطارات . وعندما كانت القطارات تهدر داخل النفق وتعبّر أمامه ، كان يلتصق بظهره إلى الجدار الحجري . يسحره الصوت واهتزاز الحجارة القديمة ، ويسكره الدخان والغبار .

وذاًت يوم ربيعي ، عثروا على جثته ممزقة عند قضبان السكة ، ووجدوا داخل بنطاله ملف القماش المشمع وبداخله تصميم لمشروع يجعل عملية استبدال الكرات الزجاجية لمصابيح الشارع أكثر سهولة .

* * *

عندما بلغت الثانية عشرة ، سمنح لي أن أرافق موسيقياً يعزف على آلة السيلستا في كواليس المسرح أثناء عرض مسرحية سترندبرغ (لعبة حلم) . كانت تجربة قاسية . كنت أراقب ليلة بعد ليلة ، من موقعي في برج ستار المسرح مشهد الزواج بين المحامي والفتاة . كانت اول مرة في حياتي أحس بسحر التمثيل . وكان هناك ممثل يؤدي دور ضابط ، يقف في الكواليس بانتظار لحظة دخوله ، كان ينحني ويتفحص حذاءه وقد شبك يديه خلف ظهره ، ثم يبدأ بتنظيف حنجرته دون صوت . كان انساناً عادياً على نحو مثير للدهشة . وعندما تحين اللحظة يفتح الباب ويدخل انى بقعة الضوء . وهناك كان يتحول . . . كان يصبح الضابط .

* * *

بالإضافة الى انني كنت أخفي في داخلي حالة اضطراب مستمرة وجب علي أن أراقبها وأسيطر عليها ، فقد كنت أعاني من القضب الشديد عندما أواجه أموراً لم تكن متوقعة او متنبأ بها . وهكذا تتحول ممارسة مهنتي الى ادارة متحذقة لأمور سيئة لا يصح ذكرها . انني اتصرف كوسيط ينظم ويهيئ الطقوس المناسبة . ثمة منتجون يخلقون فوضى خاصة بهم ، ومن ثم ، في أفضل الاحوال ، يخرجون بعرض مسرحي من هذه الفوضى . ان أسلوب عمل الهواة هذا يشير أشمئزازي . انا لا اشارك في الدراما أبدا ، بل أحولها واجعلها صلبة . والا هم من هذا كله أنني لا أملك حيزاً لعقدي الذاتية ، ولكن مفاتيح لاسرار النص والسيطرة على نبضات ابداع الممثل . أكره الشغب والعذوانية والعواطف المتفجرة بلا حساب . ان البروفات التي أجريها بمشابة عمليات للمقدمات واستعداد للهدف حيث يجب أن يسود النظام الذاتي والنظافة والهدوء . ان البروفات عمل لائق وليس معالجة خصوصية للمنتج أو الممثل .

انني احتقر والتر الذي يأتي ثملا في التاسعة والنصف صباحاً ويتقياً كل عقده الذاتية ، أشمئز من تيريزا التي تندفع وتماقني وسط عاصفة من رائحة العرق والطور ، أود أن اضرب بول ، هذا الرجل المخبول الذي يأتي بحذاء ذي كعب عال ، وهو يعرف أنه سيمضي يومه ذهاباً وإياباً على الخشبة ، لا استسيغ فانيا ، التي تأتي دائماً متأخرة وهي غير مرتبة ، تثرثر وتنفخ ، وتحمل الاكياس والحقائب ، تضايقني سارة التي نسيت نسختها ، ولديها مكالمات هاتفية يجب أن تقوم بها . أريد هدوءاً مطلقاً ونظاماً ومودة . هكذا فقط نستطيع أن نلامس عالماً بلا حدود ؛ وأن نفسر الأمور الفاضلة ، ونتعلم آلية البروفة . . . البروفة المتدفقة بالحياة . انه العرض المسرحي نفسه يجري كل ليلة ، ومع ذلك فهو دائماً يولد من جديد . الامر يتعلق بادراك السر ، بحيث لا يتحول العرض الى تكرار متمدد لا حياة فيه . الممثلون الجيدون يعرفون السر والممثلون متوسطو الجودة عليهم أن يتعلموا ، أما السيئون فلن يتعلموا أبداً .

إذا يكمن عملي في ادارة النصوص وساعات العمل . انا مسؤول عن الايام بحيث لا تمضي بلا جدوى . أراقب ، أسجل ، أبني وأسيطر . انا العيون والاذن البديلان للممثل . اقترح ، أواسي ، أشجع أو أرفض . لست تلقائياً ولا مندفعاً . يجب أن ابدو وكأنني هكذا فعلاً . اذ يكفي أن ارفع القناع للحظة وأعبر عما أشعر به حقاً حتى يلقي بي اصدقائي من النافذة .

وعلى الرغم من القناع فانا لا أتكرر أبداً . ان حدسي يتكلم بسمعة ووضوح . انا حاضر دائماً . القناع مجرد مرشح لا يسمح لاي أمر شخصي أن ينفذ من خلاله . يجب أن يبقى اضطرابي في مكانه بحيث لا يلحظه أحد .

لقد عشت لفترة طويلة مع ممثلة موهوبة للغاية ، تكبرني سنأ . كانت تحتقر نظريتي في النقاء والطهارة وتعتبر المسرح خراء وشهوة ، غضباً وحقداً .

وكانت تقول لي : « الشيء الوحيد الممل فيك يا انفمار برغمان هو ولعك بالأشياء الصحيحة والمفيدة . يجب أن تتخلى عن هذا الولع فهو وهم مشكوك به ، وسوف يخلق أمامك عقبات لن تجرؤ على تجاوزها . يجب ان تتصرف كالدكتور فاوست عند توماس مان ، وتبحث عن عاهرة مصابة بالسفلس » .

ربما كانت محقة ، وربما كان كل هذا مجرد هراء رومانسي في تيار فن البوب ومشاهد المخدرات المشوهة . لا أعرف بالضبط . كل ما أعرفه أن هذه الممثلة الجميلة والمتألقة قد فقدت ذاكرتها وأسنانها وتوفيت في سن الخمسين بمستشفى للأمراض العقلية . وهذا ما حصلت عليه مقابل تعبيرها عن مشاعرها .

ولهذا فان الممثلين الاذكياء معرضون للخطر اذ تصبح تأملاتهم الجديدة ذات صفة كارثية . لقد كان ايفور سترافنسكي يحب التعبير عن نفسه وكان يكتب قدرا كبيرا من المقطوعات المرتجلة ، فالبركان المتأجج في داخله يصعب كبحه . ثم يأتي موسيقيون متوسطو الجودة ويقروؤن أعماله ويؤمنون برؤوسهم تعبيرا عن اعجابهم . ومن ثم يبدوون وهم أشخاص لا وجود لآقل أثر من البركان في داخلهم - برفع هراواتهم ، ويقودون العمل الموسيقي ويحاولون كبحه ، في حين أن سترافنسكي الذي لم يكن معتادا على قيادة مقطوعاته ، قاد ذات مرة مؤلفه (أبولون موساغيت) كما لو كان تشايكوفسكي بنفسه . أما نحن الذين كنا قد قرأنا المؤلف ، فقد استمعنا اليه بدهشة .

* * *

في عام ١٩٨٦ شرعت باخراج مسرحية سترندبرغ (لعبة حلم) للمرة الرابعة . وقد بدا القرار صائبا بتقديم (الأنسة جولي) و (لعبة حلم) في العام نفسه . كانت غرفتي في المسرح الدرامي الملكي ، والمعروف

باسم درامتين ، قد أعيد تصليحها فانتقلت اليها مجددا وشعرت كأنني
في بيتي .

رافقت فترة التحضيرات مجموعة من المشاكل والتعقيدات . في
البداية تعاقدت مع مصمم مناظر في غوتنزغ والذي ما لبث أن تخلت عنه
زوجته بعد عشر سنوات من الحياة المشتركة وذهبت مع ممثل شاب .
هبت على مصمم المناظر آلام القرحة ووصل الى بيتي في فارو (جزيرة
الخراف) بحالة بائسة ، وكان ذلك بعد منتصف الصيف .

بدأنا اجتماعاتنا اليومية وكلنا أمل بأن أجواء العمل سوف تحتوي
شعوره بالاحباط والقهر . كانت شفثاه ترتعشان ، نظر إلي بعينين
بارزتين وهامدتين وهمس قائلا : « أريدها أن تعود » . لم أبشر بعلاج
الأرواح ، وأكدت له ضرورة الاستمرار في العمل ، لكنه بعد أسابيع
قليلة انهار تماما واعترف بأنه لن يكون بالمستوى المطلوب ، ثم حزم
حقائبه وعاد الى غوتنزغ ، حيث أبحر بعد فترة مع عشيقة جديدة .

اضطرت للاستعانة بصديقة قديمة وهي ماريك ثوس . كانت
ودودة ومتحمسة للعمل ، فجاءت واستقرت في بيت الضيافة وبدأنا بداية
طيبة . كانت ماريك قد عملت في المسرحية نفسها مع أولف مولاندر ،
مؤسس التقليد المسرحي الخاص بسترندبرغ .

لم اكن أشعر بالرضى تجاه الطول الإخراجية الثلاثة السابقة ،
فالنسخة التي صورها التلفزيون السويدي كانت محزنة بسبب الكوارث
التقنية ، إذ لم يكن ممكنا في ذلك الوقت اجراء مونتاج للأشرطة . والعرض
الثاني لم ينجح بسبب ضيق المسرح رغم وجود ممثلين ممتازين . أما
التجربة التي أخرجتها للألمان فقد لاقت فشلا ذريعا .

هذه المرة قررت تقديم نص المسرحية كاملا دون أي تعديل أو
حذف ، تماما كما كتبها سترندبرغ ، وكنت أسمى كذلك الى ايجاد

حلول تقنية وجمالية للمشاهد صعبة التنفيذ ، أردت أن يشعر الجمهور بالجو القدر في فناء مكتب المحامي ، بالجمال العريق لمنطقة فيرفريك الريفية ، بالضباب الجهني لجحيم سكامسوند ، وبالازهار الساحرة المحيطة بقلعة ريسنغ .

كانت خشبة المسرح في درامتين غير عملية ، مضبوطة وفي حالة يرثى لها . وكانت أساسا قاعة للعرض السينمائي قد حوّلت لمسرح دون أن تخضع للإصلاحات منذ عام ١٩٤٠ ، وقد قررنا إزالة أربعة صفوف من الكراسي الامامية حتى نوسع خشبة المسرح، ونكسب خمسة امتار اضافية .

وبهذه الطريقة حصلنا على غرفتين اضافيتين ، واحدة خلفية واخرى امامية . الغرفة الامامية ، الاقرب الى الجمهور ، هي غرفة الكاتب ، لها نافذة ملونة حديثة الطراز وتطل على شجرة النخيل ، وتضم خزانة الكتب ذات الباب السري . والى يمين الخشبة اكوام النفايات وحجرة المؤونة الغامضة ، وفي الزاوية جلست « إديت البشعة » قرب البيانو ، كانت ممثلة وعارضة بيانو ممتازة ، ترافق الاحداث بالفعل والموسيقا .

وكانت الغرفة الامامية تفضي الى غرفة اخرى سحرية . عندما كنت طفلا ، اعتدت أن أقف في غرفة الطعام المظلمة ، وانظر الى الصالون عبر الابواب المفتوحة قليلا . . كانت الشمس تضيء الاثاث والاشياء وكل شيء يبدو أخضر مثل الاكواريوم ، وكان الناس هناك يتحركون ، يختفون ، ثم يظهرون ويقفون ويتحدثون بأصوات خافتة ، كانت الازهار تتألق على حافة النافذة . والساعة تتكك . كانت غرفة سحرية ، أردت أن أخلق واحدة مثلها في الغرفة الداخلية على خشبة المسرح .

في أيار عام ١٩٠١ تزوج سترندبرغ من فتاة جميلة وغريبة تعمل في مسرح الدراما الملكي . كانت قد بلغت الثلاثين وحققت نجاحا ملحوظا .

استأجر سترندبرغ شقة جديدة في كارلابلان ، تحتوي على خمس غرف واختار لها الأثاث وورق الجدران واللوحات والتحف العتيقة . وهكذا دخلت العروس الشابة الى عالم من الديكور اختاره لها زوجها الكهل ، وبدأ الشريكان المتناقضان تماما يتحملان بحب وإخلاص وذكاء ، من أجل الاستمرار في الدورين المختارين لهما . ومع ذلك سرعان ما سقطت الإقنعة واتضحت مأساتهما ، فتركت الزوجة المنزل غاضبة وذهبت لتقيم عند أهلها في إحدى الجزر ، وبقي سترندبرغ وحيدا مع ديكوراتها في بيته ، في مدينة هجرها أهلها هربا من الحر ، وأصيب بمرض مجهول .

في مسرحية (الى دمشق) يقول الغريب رداً على السيدة التي جاءت لتلعب معه لعبة الموت : « تماماً مثلما لعب مع الحياة . لقد كنت كاتباً . لم أستطع أن أقاوم إحساسي الفطري بالكتابة ولا أن أنظر الى الأمور بشكل جدي حتى عندما كانت تتعلق بأحزاني الكبيرة ، وثمة لحظات كنت أشعر خلالها أن الحياة ليست واقعية أكثر من كتاباتي » .

والآن أصبح الجرح عميقاً وبدأ ينزف بغزارة ، ولم يعد ممكناً تجاوزه كما يحدث أثناء مصائب الحياة الأخرى . إن الألم يشق طريقه نحو الغرفة المجهولة ويفتح مسرباً للفيضان . سترندبرغ يكتب في يومياته أنه يبكي وأن الدموع تطهر عينيه ، وأن بوسعه رؤية نفسه بنظرات متسامحة وقانعة . لقد كان يتحدث بلغة جديدة .

ويمضي نصف المسرحية الأولى بسلاسة ، دون صعوبة في التأويل ، وكل شيء يبدو مليئاً بالفرح والعذاب والحياة والأصالة والمفاجآت . إن هذه الدراما تخلق مسرحها بنفسها .

تبدأ الصعوبات بعد ذلك ، فتحل مشاهد فاغريك بعد سكامسوند . يتعثر الإلهام . لو لجأت الى الإختصار فسوف تموت المشاهد ، وإذا قدمتها كاملة ، فسوف يتعب الجمهور .

كان الأمر يتطلب أعصاباً باردة ومحاولة التقاط إيقاع مفقود . وكان هذا ممكناً فالنص لا يزال قوياً ومسلماً وشاعرياً ، ولم تعد (لعبة حلم) مجرد لعبة حلم ، ولكن عرضاً موضوعياً ذا نوعية مشكوك بها .

ومع ذلك بقيت لدينا أكثر المشاكل تعقيداً . نحن نعرف أن السلام يعم المنزل الآن ، فالزوجة الشابة الحامل وهبت نفسها لزوجها الكاتب الذي توقف عن التدخين حتى يثبت حسن نيته . إنهما يذهبان الى المسرح والأوبرا ، وقيمان حفلات عشاء وينظمان أمسيات موسيقية . إن مسرحية الحلم تزدهر هنا . ويكتشف سترندبرغ أن الدراما تتبلور لتصبح بانوراما لحياة إنسانية يشرف عليها رب مشغول البال ، ويشعر فجأة بأنه مدعو لأن يعبر بالكلمات عن الحد الفاصل الذي كان يستعرضه سابقاً بطريقة غير حازمة . تأتي ابنة اندرا وتمسك بيد الكاتب ، لتأخذه بعيداً ، ويقرا ان أشعاراً عديمة القيمة .

إن المخرج الذي يترك سترندبرغ يتخبط في عصارته الذاتية، سوف يواجه متاعب لا يمكن تحملها . كيف يمكن خلق كهف مينغل دون أن يفسد روح المشهد ؟ كيف يمكن المناورة بصدد عويل الكاتب الطويل والموجه الى اندرا والذي يتألف بشكل أساسي من الشكوى واللوم ؟ كيف يمكن خلق عاصفة ، وتحطم السفن ، والأصعب من هذا كله ، عرض المسيح وهو يسير على الماء ؟

حاولت أن أقدم عرضاً مسرحياً صغيراً ضمن العرض الأساسي . ينظم الكاتب مكاناً للتمثيل يحتوي على شاشة وكروسي وغرامافون ، ويغطي ابنه اندرا بشال شرقي ، ويتوج نفسه أمام المرأة ويعطي لصديقه الممثل بضع صفحات من النص الأساسي ، ثم يتدرجون من اللعب الى الجد ، من المحاكاة الساخرة الى الهزل ، ثم يعودون الى الجد ثانية ، مسرح عظيم وهارمونية نقية وبسيطة .

لقد أسعدنا هذا الحل ، وعثرنا في النهاية على طريقة عملية .

أما المشاهد التالية التي تدور في كواليس المسرح فهي باهتة ولا تقول شيئاً ، ومع ذلك فلا يمكن إلغاؤها .

وعلى الرغم من كل ذلك، فإن المشهد الختامي عند المذبح يبدو رائعاً للغاية ، حيث تعلن ابنة اندرا عن حل لسر الحياة وغموضها . ووفقاً ليوميات سترندبرغ ؛ فقد كان يقرأ في تلك المرحلة كتباً حول الميثولوجيا والفلسفة الهندية . لقد مزج ثمار قراءاته بحبكة المشهد ، لكن هذه الثمار لم تتجمع في أسفل الصحن ولم تغطه أي طعم ، وبقيت قطعة من القصص الهندية لا مكان لها في بقية النص .

يطرح مشهد البداية السريع ومشهد النهاية مشكلة مستعصية بشكل خفي . . في البداية يتحدث طفل الى والده قائلاً : « إن القلعة تزداد ضخامة . هل لاحظت كم كبرت منذ السنة الماضية ؟ » وفي النهاية يعترف الكاتب العجوز : « أوه ، الآن فقط أشعر بالام الوجود . وهذا ما يعنيه كوني إنساناً . » . طفل في البداية ورجل عجوز في النهاية ، وثمة حياة إنسانية كاملة بينهما . لقد وزعت دور ابنة اندرا على ثلاث ممثلات . البداية متوهجة والنهاية ملأمة ، وحتى سر الحياة يصبح قصة بطولية حية من خلال الخبرة الحياتية والتفاني المدهش لممثلات عظيمات . إن التي تؤدي دور الابنة في مرحلة النضج قوية ، فضولية ، مرحة ، نزيهة ، ومساوية عندما تمضي في الحياة .

لم يتطلب اتخاذ قرار مناسب من أجل المحافظة على الحلول الجيدة والملائمة للمفاهيم الجديدة مثل هذا الجهد والزمن في حياتي كلها . لكن عملية الإلغاء كانت ضرورية ، وفقاً لنصيحة فولكنر القاسية : « اقتل أحياءك » . وفي حين كان اخراج مسرحية (الأنسة جولي) مجرد لعبة مسلية ، فإن إخضاع (لعبة حلم) تحول الى حملة عسكرية متعبة .

أول مرة في حياتي أشعر أن العمر المتزايد قد بدأ يقوضني . فالصور لا تظهر إلا بصعوبة بالغة ، واتخاذ القرار يصبح صراعاً ، وينتابني خجل

غير مألوف . ما كان مستحيلاً بقي مستحيلاً واخذ يخنقني . كنت على وشك الاستسلام ، وهذا أمر نادر جداً بالنسبة لي .

بدأت البروفات يوم الخميس الرابع من شباط ، مع لقاء ناقشنا خلاله بعض التفاصيل العملية والتقنية . كنا قد اتفقنا على ضرورة حفظ النص في أسرع وقت ممكن . إن الدوران في المكان ووضع الأنف في الكتاب مع تجميد إحدى الذراعين بات شيئاً من الماضي . يعتقد الممثلون الكسالى أنهم سوف يتشعرون بالنص بشكل حيوي أكثر خلال البروفات دون أن يكونوا قد قرؤوه جيداً قبل ذلك ، لكن ذلك سيسبب الفوضى ، إذ سيحضر ممثلون يعرفون ماذا سيقولون وآخرون لا يعرفون ، وتصبح البروفة أشبه بقطعة قماش مرقعة .

إن الإمتحان الأكثر أهمية بالنسبة للممثل هو التركيز والتجاوب المطلق مع زميله الممثل .

عندما أعود الى قراءة يوميات العمل على (لعبة حلم) لا تبدو القراءة مشجعة . . كنت في حالة سيئة آنذاك ، وكنت أشعر بالإرهاق وخيبة الأمل ، وكان وركي الأيمن يؤلمني باستمرار ، وكانت الصباحات مليئة بالمتاعب والهموم . كانت معدتي تمارس عمليات تخريب ضدي من خلال التشنجات ونوبات الإسهال المباغته ، وكان الملل مطبقاً على روحي ويخنقني .

لكنني لم أبدأ شيئاً . كان إهمالاً في الواجب أن أدع التأثيرات الشخصية تتطفل على عملي . يجب أن يكون المزاج هادئاً وقوياً وأن أقمع هذه النزوات التي لا تحصى . يجب الإعتماد على التحضيرات الدقيقة والتطلع الى أشياء أفضل .

قبل شهر من بدء البروفات ، طلبت لينا أولين أن تتحدث إلي ، وكان مفترضاً أن تؤدي دور ابنة اندرا ، لكنها كانت مصابة بداء

الخصوبة السائد في المسرح . بحيث أنها ستكون في شهرها الخامس ليلة الإفتتاح وسوف تلد في آب ، وهكذا لم يعد ممكناً الحديث عن عروض في الخريف ، كذلك لم يكن ممكناً تأجيل العروض الى الربيع المقبل .

كان الوضع محيراً . أذكر أن مسرحيتي التلفزيونية (بعد البروفة) كانت تدور حول لقاء بين ممثلة شابة (أدت الدور لنا أولين) ومخرج عجوز يعمل على (لعبة حلم) للمرة الرابعة . تعترف الممثلة بأنها حامل ، فتتهار أعصاب المخرج الذي كان يعتمد عليها منذ البداية ، لكن الممثلة لا تلبث أن تجهض حملها .

أما لنا أولين فلم تكن عازمة على ذلك . كانت إنسانة قوية وجميلة، مفعمة بالحياة وعاطفية الى حد بعيد ، ومشوشة أحيانا ، ولكن مستقرة دائماً وذات تفكير صائب . كانت سعيدة لأنها حامل ، وكانت ترى كل الصعوبات وتقول إنها إذا كان لا بد أن تنجب ولداً فيجب أن يحدث هذا الآن وليس فيما بعد ، رغم أن نجمها بدأ يلعب لتوه .

قد يبدو الأمر مضحكاً بالنسبة للمخرج ، لكنه ليس كذلك بالنسبة لمن ستصبح أما في المستقبل . إن لنا اللطيفة والمحبوبة قد تطلت عن مهنتها وقررت أن تنجب ولداً .

لم يكن ممكناً تحديد مشاعري . أعتقد أن لنا أضحقت بي هزيمة نكراء . إن ما يدعى بالواقع قد يبدل كل الأحلام والتخطيطات ، ولكن سرعان ما تبدد إحساسي بالخيبة .

إن جهودنا المسرحية لا تشكل أهمية على المدى البعيد ، أما ولادة طفل فإنه حدث ذو معنى . كانت لنا سعيدة ، وكنت أنا سعيداً بها .

أجواء البروفات الباهتة لم تكن مرتبطة بما حدث . مضت الاسابيع وبقيت نتائج جهودنا تدعو للإحترام .

وفي يوم الجمعة ، ١٤ شباط ، قمنا بمراقبة العرض كاملاً دون انقطاع أو إعادة . وقد كتبت في يومياتي : « العرض يشعرنني بالإحباط . جلست أتابعه محملاً ، ساكناً . ولكن هناك متسع من الوقت » . كان الافتتاح مقررأ في ١٧ نيسان ، (وكان يصادف مرور تسع وسبعين سنة على يوم العرض العالمي الأول للمسرحية) .

في يوم الأحد كنت جالساً في غرفتي مع أرنلد يوزفسن ، نتحدث عن باخ الذي عاد من أحد أسفاره ليجد ان زوجته وأولاده قد ماتوا جميعاً أثناء غيابه ، فكتب في مذكراته : « يا إلهي ، لا تدع فرحي يهجرنني » .

لقد أمضيت حياتي كلها مع ما كان يدعو به باخ بالفرح . كانت حياة مليئة بالأزمات والأحزان وبحالات يتعب القلب معها ولا يعود قادراً على التحمل . لكن هذه الحالات لم تكن معادية أو مدمرة ، وهي نفسها التي دعاها باخ « فرحي » يا ربي ، لا تدع فرحي يهجرنني .

وفجأة وجدت نفسي أقول لارلند : « إنني على وشك أن أضيع فرحي ، أشعر بهذا ، إن الفرح يهرب من داخلي ، إنه يتلاشى » .

بدأت أبكي ، ثم شعرت بالخوف لأنني لم أبك أبداً . في طفولتي كنت أبكي متعمداً ، وكانت أمي ترى الكذب من خلال دموعي فتعاقبني . توقفت بعدها عن البكاء . لكنني كنت أشعر أحياناً بصوت البكاء في أعماقي وكان صدها يصلني ويضربني دون تحذير إن طفلاً يبكي بشكل مكبوح يبقى سجيناً الى الأبد .

في تلك اللمسية القادمة في غرفتي بالمسرح ، هاجمتني نوبة البكاء على نحو غير متوقع . لقد كان حزني عميقاً وقاسياً .

منذ سنوات رزت صديقاً يموت بالسرطان . كان يتآكل ويتحول الى قرم ذابل بعينين كبيرتين وأسنان صفراء . كان يرقد على

جانبه وقد ارتبط جسده بمدد من الأجهزة الطبية ، وكان يضع يده قريبة الى وجهه ويحرك أصابعه . ابتسم ابتسامة مخيفة وقال : « انظر ، لا ازال قادراً على تحريك أصابعي .. إنها تسلية دائمة » .

قلت انفسى : يجب أن يتكيف الإنسان مع نفسه ، وينسحب من الخطوط الامامية ، فالمعركة انتهت بالخسارة ولا يمكن توقع أي شيء ، رغم أنني عشت متأثراً بضلال مثير للفرح : بأن برغمان سوف يبقى معافى للأبد . يتساءل الممثل سكات في فيلم (الختم السابع) وهو متشبه بقمة شجرة الحياة : « الا توجد أية استثناءات بالنسبة للمنافقين ؟ » . فيجيبه شبح الموت وهو يضع منشاره على جذع الشجرة : « لا توجد استثناءات بالنسبة للممثلين » .

وفي ليلة الإثنين ارتفعت حرارتي وبدأت اعرق وأرتجف . كانت تجربة غير مألوفاً بالنسبة لي ، ولم أكن أبدأ مريضاً على هذا النحو .. كنت أمرض أحياناً ولكنني لم أكن أتوقف خلال المرض عن البروفات أو التصوير .

بقيت حرارتي مرتفعة لعشرة أيام أمضيتهائاً في السرير غير قادر حتى على القراءة . كنت أفقد توازني عندما أنهض من السرير . وكان الأمر مثيراً أن أكون مريضاً لهذه الدرجة ، أنعس فأنام ، ثم أستيقظ ، فأسعل وأتسشق . ازدهرت الانفلونزا وازدادت درجة حرارتي . لقد كانت فرصتي ، إنها اللحظة المناسبة لو أنني قررت التخلي عن (لعبة حلم) .

كنا قد صورنا العرض التجريبي على الفيديو ، فشاهدته مرات عديدة ولاحظت نقاط الضعف والإخفاقات . وقد شجعتني امكانية تجاوزها على النهوض والاستمرار ... لم أكن قد مت بعد .

قررت أن أعود للبروفات في 1 نيسان مهما كانت حالتي الصحية . وفي الليلة السابقة لهذا اليوم عادت حرارتي للارتفاع وهاجمتني

تشنجات المعدة ومع ذلك فقد شرعت بالعمل . مزقت أوراقاً قديمة
وبدأت كل شيء من البداية . وقد تجاوب الممثلون معي بحماس شديد .
وفي الليالي كنت أعاني من الأرق والإجهاد الجسدي .

في يوم الأربعاء ٩ نيسان أنهينا عملنا في غرفة البروقات ، وقد كتبت
في يومياتي : « تحقق التفاهم وقويت دعائمه . يجب أن أتابع بقوة . أنا
حزين ولكنني لست محطماً » .

بعد ذلك انتقلنا الى فوضى المنصة ، وبدأنا بتغيير الأشياء وتعديل
الإضاءة وتحضير الملابس والاقنعة . كان العالم كله يهتز ويتداعى . هل
سأنجح حقاً . ملاحظات كثيرة : تحتاج هنا الى قطعة قماش كبيرة . إن
مكيحك شديد البياض . قاتل باله لا يزال طليقاً . آلة الثلج لا تعمل
جيداً . إن الثلج يخرج أكواماً . إن جهاز الإضاءة الأيمن يعطي ضوءاً
مختلفاً عن غيره . لماذا ؟ يوجد خطأ في هذه المرآة ، الخطأ أساسه من
المصنع . لا توجد مرايا في السويد ، يجب أن نحضر مرآة جديدة من
النمسا . اضطرابات في جنوب أفريقيا ، مزيد من القتلى والجرحى .
لماذا تصدر المراوح هذا الضجيج ؟ إن أجهزة التكيف مئوس منها . لماذا
لم ترتدي حذاءك ؟ صانع الأحذية مريض ولا بد من الانتظار الى يوم
الجمعة . إلا أستطيع أن أتعامل مع الأمور ببساطة ؟ إن حنجرتي
متقرحة . ابق مكانك ، خطوتين الى اليمين ، هذا جيد . هل تشعر
ببقعة الضوء الآن ؟

الصبر والمرح ، الضحك عوضاً عن الشجار ، هكذا تمضي الأمور
على نحو أسرع ، لكنها تبقى مؤلمة .

إن العالم يهتز ويتداعى . ونحن نغمغم بفضول داخل الحيطان
السميكة لهذا البناء . إنه عالم صغير من الفوضى الزعجة ، من الصناعة ،
من المهارة والحب . وهذا كل ما نعرفه .

في الصباح التالي لاغتيال أولف باله تجمعنا في قاعة الانتظار بالمرح . كان من المستحيل أن نبدأ العمل . تحدثنا بتلكو محاولين الوصول الى بعضنا البعض . أحدهم كان يبكي . إن مهنتنا تبدو غريبة عندما يشق الواقع طريقة إليها ويمزق ألعابها الوهمية . فعندما احتلت ألمانيا النرويج والدانمارك ، كنت أحضر (ماكبث) مع مسرح للهواة في صالة مدرسة سغيبلان . قمنا بإنشاء خشبة مسرح واستغرق إعداد المسرحية عاماً كاملاً . تحولت المدرسة الى موقع لحماية عسكرية وتم استدعاء عدد منا للخدمة ، ولسبب يصعب تفسيره سمح لنا بأن نتابع عروضنا . كانت المدافع المضادة للطائرات قد نصبت في ساحة المدرسة وغطيت أرضية الصفوف والممرات بالرمال وانتشر الجنود في المكان . ثم جاءت الفارة .

كنت أعب دور دنكان ، وقد أعطيتُ باروكة صغيرة للدور . صبغت شعري باللون الأبيض وألصقت لحية . لم يكن أحد ممن لعبوا دور دنكان يشبهني وأنا أبدو كالكبش . أما السيدة ماكبث فلم تكن تتمرن دون نظارات ودون أن تظاً بقدمها طرف ثوبها . وكان ماكبث يبارز بوحشية لا مثيل لها (كنا قد استلمنا السيوف في اللحظة الأخيرة) بحيث أصاب ماكدوف بجرح بليغ في رأسه فتاير الدم منه ونقلناه الى المستشفى .

أما الآن فقد اغتيل أولف باله . كيف سنتصرف وسط هذه الفوضى ؟ هل نلغي البروقات ؟ هل نلغي العرض المسائي ؟ أنتخلى عن (لعبة حلم) الى الأبد ؟ لا يستطيع أحد أن يقدم مسرحية حول شخص ما يدور ويعظ قائلاً : انه ليس من السهولة أن يكون المرء إنساناً .

وفجأة قالت إحدى الممثلات الشابات : « ربما أكون مخطئة ، لكنني أعتقد بأننا يجب أن نتمرن . يجب أن نستمر . إن الذي قتل باله كان يريد إحداث فوضى ، وإذا تركنا المسرحية فإننا نشارك في

هذه الفوضى وندع انفعالنا تسيطر علينا . إن الأمر يتجاوز مشاعر خاصة طارئة . يجب الا تسود الفوضى . . » .

وشيئا فشيئا ، ببطء وتردد ، أصبحت (لعبة حلم) عرضاً جاهزاً . كنا نقوم ببعض البروفات أمام الجمهور . كان يقظاً ومتحمساً أحيانا ، صامتا ومتأملاً أحيانا أخرى . بدأ تهاوّل حذر يلون وجناتنا . كان الزملاء متعاطفين معنا ، وبدأنا نتلقى رسائل تشجيع وتأييد .

إن اسبوع البروفات الأخير هو الفترة التي يصعب تحملها بالنسبة للمخرج ، حيث تكون المفامرة قد فقدت خطورتها وبات القلق خانقاً ، وإحساس بارد باللامبالاة يجثم كغشاوة ساكنة فوق الدماغ والراس .

لا أعرف طعماً للنوم . . الكوارث ، ونبرات الأصوات والتلميحات تمر في مخيلتي . الاضاءة المركزة بطريقة خاطئة تنتصب كشرائح حادة أمام عيني . لقد أصبحت ليالي طويلة وبائسة . لم تكن قلة النوم تقلقني ، كان يقلقني الانفعال . أين يكمن الاخفاق الأعماق ؟ هل هو في النص نفسه ، في الصدع بين الالهام اللامع والمواقف الواعظة ، بين الجمال القاسي والثرثرة العذبة ؟ هل المحاكاة الساخرة في مشهد كهف فينفل مجرد تجديف لا أكثر ؟ يجب الا أنسى توسيع بقعة الضوء في غرفة المحامي ، إن مزيداً في الاضاءة سيخلق أجواء جديدة . سوف يكون سقن نيكفست مسرورا مني .

ها أنا على وشك أن أنام ، وتترامى لي الأبقار واقفة عند الحيز الضيق بجانب دكان الحداد ، تحديق بي ، وقد انتشرت عند خطومها وأعينها سحبيات من الذباب . ثمة عجل صغير ملون له قرون قصيرة ، ويقال إنه مفترس .

وهذه هيلفا بقميصها الرطب اللصق بصدرها المنتفخ ، تضحك فظهر أسنانها البيضاء الكبيرة والثفرة في منتصفها حيث كان برينلوف

قد ضربها ؛ ثم تمضي الى ضفة النهر وتغرق قارب برينلوف ، وتفتح علبة من سمك الأنشوف وتختبئ خلف الباب . وعندما يأتي برينلوف لتناول العشاء ، تدفع بالعلبة المفتوحة الى وجهه وتجرحه بها . يغيب برينلوف عن الوعي وعندما يستيقظ يتناول قبعته الصغيرة المستديرة ويمضي الى بورلانغ والدم يتدفق من جبهته ووجنتيه وسمك الأنشوف معلق برأسه . يذهب الى المصور هلتغرنى ويطلب منه أن يصوره بقبعته المستديرة وسرواله الملطخ وأنفه المدمى وأسماك الأنشوف على رأسه ووجنته ، وهذا ما حدث . بعدها قدم الصورة اليها كهدية بمناسبة عيد ميلادها . سوف اذهب للنوم الآن . . الآن يدق جرس المنبه .

أرقد بلا حراك ، مستيقظاً وقلقاً . أستطيع أن أقتل أي شخص قد يتفوه بكلمات غير مناسبة عن ممثلي . الآن بروثة الملابس وبعدها نغترق . سوف يقرؤون الجرائد بعد غد حتى رلو ادعوا بأنهم لن يفعلوا ، سوف يشنى عليهم ويهنتونهم ويشجعونهم أو يزجرونهم ويقابلونهم بالقطيعة . وفي الامسية نفسها يجب عليهم الصعود مجدداً الى خشبة المسرح .

منذ سنوات رأيت صديقاً يقف بكامل ثيابه ومكياجه في إحدى زوايا الكواليس . وكان من شدة قلقه قد التهم شفته السفلى فتدفق الدم منها على ذقنه وسال الزبد من طرفي فمه ، وكان يهز رأسه بالنفي قائلاً : إنه لن يخرج الى خشبة المسرح ابداً . . . لكنه خرج إليها .

جرت بروثة الملابس مساءً في ١٤ نيسان ، وأثناء النهار عقدنا اجتماعاً تمهيدياً لمشروع مسرحية (هاملت) التي كان مقرراً افتتاحها في ١٩ كانون الاول . اطلعتهم على تصوراتي الاولية ، حيث تكون الخشبة فارغة إلا من مقعدين ومضاءة بثبات ودون فلاتر ملونة أو اجواء خاصة ، وهناك دائرة قطرها خمسة أمتار موصولة بأرضية المسرح قريباً من الجمهور، سيدور فيها الحدث بشكل أساسي . سوف يقتحم فورتنبراس ورجاله الباب في الحائط الخلفي وتدوي العاصفة الثلجية ويندفع الجميع إلى قبر أوليفيا . يهان هاملت ويقتل هوراشيو .

في لحظة ما كنت غاضباً للغاية وأردت الانسحاب من هذا المشروع .
فقبل عدة أشهر طلبت انغفار كيلسون لدور حفار القبور فوافق ، ثم
مألبت ، ومن وراء ظهري ، ان ارتبط بمشروع آخر ينتظره فيه دور أكبر .
ولم أنجح بالعثور على ممثل شاب للدور لأسباب مختلفة . إن معظم
الممثلين الشباب لا يجذبون الوقوف امام من يؤدي دور هاملت ويكون
في سنهم وأحياناً أصغر منهم . لم يعد مهماً بالنسبة لهم ان يبقوا للعمل
مع برغمان ، فهو سيتوقف عن صنع الأفلام .

وفي الوقت نفسه فهمت . . . بالطبع فهمت ، ووجدت الأمر سهلاً لأن
أفهم . . . إن الممثل قريب جداً من ذاته ، فهو يتلوى ويستغل ويزن الأمور .
لقد فهمت ، ومع ذلك فإنه شيء يدعو للفرابة . اذكر عندما أراد آلف
سيوبرغ ان يضربني لأنني أخذت منه مارغريتا بايستروم ولم تكمل
معه دورها في (السيتيس) . وجدت نفسي في موقف مماثل . وأثناء
جنازة سيوبرغ التفت احد أعضاء هيئة المسرح الى ممثل يقف بجانبه
وقال له : « تهاني . . لقد أصبح عدد مشاكل المخرجين في الدراماتن
أقل الآن » .

وفي يوم الخميس ٢٤ نيسان ، في الساعة مساءً (وكنا قد اعلنا في
جميع الصحف ، بأنه لن يسمح لأحد بالدخول بعد بدء العرض) ، كانت
قد انتهت بروفة الملابس الأخيرة . وكان المثلون يشعرون بنفحة إهنية
من النجاح المقبل وكانوا مبتهجين . وقد وجدت معاناة في مشاركتهم
توقعاتهم السعيدة . كنت قد سجلت في مكان ما من أعماقي إحساساً
بالفشل ، ليس بسبب عدم رضائي عن العرض ، بالعكس ، فبعد كل
الأمنا سوف يقدم على المسرح عرض من الدرجة الأولى ، مؤدى بشكل
جيد رغم كل الظروف .

ومع ذلك ، كنت أعرف ان مفامرتنا لن تنجح .

بدأ العرض ، وغادرت القاعة برفقة مدير المسرح . وما أن خرجنا الى الشارع من باب جانبي ، حتى هاجمنا المصورون بعنف وهم يرموننا بأضواء فلاشاتهم القوية . أمسكني شخص من كتفي وقال إنني يجب أن أدعه يدخل فقد تأخر عن العرض لعشر دقائق واليوم هو فرصته الوحيدة لمشاهدته . وكان قد حاول اقناع البواب الذي رفض ادخاله إطاعة للأوامر . فقلت له بنزق : انني لا أستطيع ولا أرغب أساساً في مساعدته وعليه أن يلوم نفسه لتأخره . بعد ذلك اكتشفت أنه محرر الصفحة الفنية في جريدة سفنسكا داغبلادت ، وكان ناقداً مسرحياً . فحاولت أن أبدو ودوداً وأخبرته بأنه يجب أن يتفهم القوانين ويحترمها، وشعرت في الوقت نفسه برغبة لا تقاوم لضربه . كان يفترض انطلاقاً من موقعه المهني أن يحضر قبل بدء العرض بوقت كافٍ، لكنه وصل متأخراً. حاول ثانية مع مدير المسرح ثم استدار وابتعد غاضباً . عندئذ أحسست بالمضايقات التي ستظهر وتستمر على الصفحة الفنية في سفنسكا داغبلادت ، فركضت وراء الرجل الحائق ووجدت له مقعداً في الصالة .

مشهد ثانوي أكد لي إحساسي بخيبة الأمل الكاملة : مرض مصمم المناظر الأولى وقرحة معدته ، حمل لنا أولين ، الحلول المكروهة ، التعقيدات اثناء البروفات ، الانفلونزا التي أصابتنني وماتلاها من احباط، كوارثنا التقنية ، الممثلين لمسرحية (هاملت) ، المحرر الفني المهان، وفوق كل هذا اغتيال اولف بالله . إن الاضواء تتغير حولنا وكل هذه الامور قد خلقت لدي البصرة .

في الامسية التي سبقت الافتتاح ، وبعد بروفة الملابس ، تجمعنا في احدى غرف البروفات وتناولنا سندويتشات وشمبانيا . كان الجو مفرحاً وكثيباً في آن واحد . من الصعب دائماً الإفتراق عن مجموعة أشخاص ارتبط الانسان معهم لفترة طويلة وبشكل قريب. انتابني احساس بالحب العاجز تجاه هؤلاء الناس . لقد انقطع الجبل السري لكن جسدي يتألم . تحدثنا عن فيلم أندريه فايدا (المايسترو) حيث يقول إنه لا يمكن تأليف موسيقا من دون حب. وأثناء التوتر الانفعالي لتلك اللحظة،

اتفقنا أنه يمكن صنع مسرح دون حب ، وبدونك « أنت » لا وجود لي « أنا » لقد عشنا تجربة مسرح رائع ، نما وخرج من الكراهية والعريضة ، لكن الكراهية هي طريقة للتواصل ، والحب قد يكون خطيراً مثل الكراهية . تأملنا في هذه الأفكار ووجدنا أمثلة لها .

ذابت الشموع المثبتة على الطاولة وانطفأت . حان وقت الرحيل . عانق الجميع بعضهم البعض وتبادلوا القبيل وكأنهم لن يلتقوا بعد هذه اللحظة أبداً ، « لكننا بحق المسيح سوف نلتقي غداً صباحاً .. » ، قلنا ذلك وضحكنا . لقد كان الافتتاح في اليوم التالي .

ولأول مرة في حياتي المهنية أشعر بالحزن نتيجة الفشل لمدة تزيد عن الثماني والأربعين ساعة . يستطيع الإنسان أن يواسي نفسه أحياناً بالقاعة المكتظة بالجمهور. لم يكن عدد الحضور سيئاً أثناء الأربعين عرضاً ، ولكنه لم يكن كافياً أيضاً . كل الجهود والتعب والقلق والملل والأمل .. كل هذا ضاع هباءً .

* * *

كان البيت الصيفي في دالارنا يدعى « فارموس » وهذه الكلمة تعني باللهجة المحلية « الشيء الخاص بنا » . وكنت قد زرت المكان في طفولتي ، ولا يزال يعيش في ذاكرتي . كان صيفا دائما ، أشجار البتولا الضخمة تتراقص ، وضياء الشمس ينتشر فوق التلال ، الناس في ملابسهم الخفيفة يجلسون على الشرفات . النوافذ مفتوحة ، وأحدهم يعزف على البيانو ، تندرج كرات الكروكيت ، وتصفّر قطارات الشحن بعيدا في محطة دوفناس ، ومياه النهر تتدفق قاتمة وغامضة حتى في أكثر الأيام اشراقا ، وتطفو عليها أخشاب الأشجار المقطوعة بكسل . كل الأطفال تلون مرافقهم وركباتهم تلون العشب . كنا نستحم في النهر أو البحيرة وقد تعلمنا السباحة مبكرا ، فكلنا المكانين كان مليئا بالصخور المائية الفاورة .

استعانت أمي بفتاة من المقاطعة تدعى لينيا لتساعدنا في أعمال المنزل . كانت هادئة ولطيفة ومعتادة على الصغار . وكنت أنا في السادسة من عمري ، عندما سحرتني هذه الفتاة بابتسامتها المشرقة وجلدها الأبيض وشعرها المائل للحمرة . كنت أطيع نزواتها وأقطف لها كميات من الفريز البري لأرضيها . كانت سباحة ماهرة علمتني كيف أسبح ، وعندما كنا نذهب ونسبح سوية وحدنا ، كانت تهمل ارتداء زي السباحة الأسود ، وهي عادة كنت أحبها كثيرا . كانت طويلة ونحيلة ذات كتفين عريضين ونهدين صغيرين وقاسيين . لم أسبح في حياتي مثلما سبحت في ذلك الصيف ، وعندما كنت أشعر بالبرد وتصطك أسناني وتزرق شفثاي ، كانت لينيا تصنع خيمة من منشفة حمام كبيرة ، تضمني إليها وتدفأ سوية .

في إحدى أمسيات أيلول ، وقبل أن نعود الى استوكهولم ، دخلت الى المطبخ فوجدتها جالسة قرب الطاولة وامامها فنجان قهوة . لم تكن قد أضاءت مصباح الكيروسين ، وكانت تسند رأسها بيدها وتبكي بفزارة ولكن بصمت . أحسست بالخوف ، فاقتربت منها واحطتها بذراعي ، لكنها دفعتنني بعيدا ، شيء لم تفعله من قبل . بدأت أبكي بدوري اذ بدا لي البؤس في كل مكان . أردتها أن تتوقف عن البكاء وتصلحني ، لكنها تجاهلتنني تماما .

وعندما تركنا فارموس بعد أيام قليلة ، عائدين الى استوكهولم ، لم تكن لينيا معنا . سألت أمي عن السبب ، فراوغت في الاجابة .

بعد مرور أربعين عاما سألت أمي عما حدث للينيا ، فأخبرتنني بأن الفتاة كانت حاملا آنذاك وأن الرجل قد أنكر الحمل . وكان من المستحيل إبقاء فتاة حامل بطريقة غير شرعية في بيت كاهن ، لذلك قرر أبي أن يطردها على الرغم من احتجاجات أمي المنيقة . وعندما تدخلت جدتي لمساعدة الفتاة كانت قد اختفت . وبعد أشهر قليلة عثروا على جثتها قريبا من خط السكة الحديدية ، وافترض رجال الشرطة أنها ألقت بنفسها من فوق الجسر .

كانت محطة دوفناس تتألف من بناء أحمر طليت زواياه بالابيض ، مع حجرتين صغيرتين كتب عليهما « للرجال » و « للنساء » ، وكانت المحطة تضم أحيانا مخزنا للبضائع وعربتي تحويل ورسيفا حجريا وقبوا تحت الأرض نما في سقفه المكسو بأعشاب القرز البري . كانت العربة الرئيسية متجهة صوب دجورما الواقعة قبل فارموس والتي يمكن رؤيتها من المحطة . وعلى مسافة مئات الأمتار الى الجنوب كان النهر يغير اتجاهه بشكل حاد عند منطقة تدعى غرادن ، ويصبح خطيرا مليئا بالدوامات الكبيرة والصخور البارزة . وفوق هذا التحول في اتجاه النهر كان ينهض جسر السكة الحديدية مع معبر المشاة الضيق الى يمينه .

كان اجتياز الجسر ممنوعا ، لكن احدا لم يهتم بذلك ، لانه كان الطريق الاقرب والاسرع الى ثروة الاسماك الموجودة في سفارتسيون .

كان مدير المحطة يدعى أريكسون ، وكان يعيش منذ عشرين عاما مع زوجته المصابة بالفدة الدرقية في البيت الملحق بالمحطة ، ويعتبره سكان القرية رجلا غريبا يجب أن يعامل بحذر . كان هناك قدر كبير من الصمت يحيط بشخصية العم أريكسون .

حصلت على موافقة جدي للتردد على المحطة دون استشارة العم أريكسون الذي كان يعاملني بصداقة وذهن شارد . كان مكتبه يفوح برائحة الغليون ، والذباب الكسول يئز عند زجاج النافذة ، وجهاز التلفراف يقرع ويخرج شريطا ورقيا ضيقا مليئا بالنقاط والقواطع . وكان العم أريكسون يجلس وراء طاولته ويدون معلومات في مجلدات سوداء كبيرة ويصنف بواليص الشحن . أحيانا كان أحدهم يدق الباب ويشترى بطاقة الى ريباكن أو إينسيون أو بورالغ . وكان الصمت الذي يسود المكان مهيبا ، مثل صمت الأزل ، ولم أكن أقطعه بحدِيث غير ضروري .

لكن الهاتف يرن فجأة حاملا رسالة قصيرة بأن القطار القادم من كريلبو قد غادر لتوه محطة لانهيدين ، فيجيب العم أريكسون بشيء ما ، ثم يضع قبعته الرسمية ، ويحمل الراية الحمراء ويمضي الى الخارج ويضيء الاشارة الجنوبية . لم يكن هناك وجود لأي قطار بعد ، وكانت أشعة الشمس الحارة تنعكس على جدار مخزن البضائع وعلى الخط الحديدي ، وعند الجسر كان النهر يهدر بعنف . صمت وانتظار . وقطة العم أريكسون نائمة على ترولي المحطة .

وفجأة يصفر القطار فوق المنعطف ، قبل لانفسيون ويظهر في البعد كلطبخة سوداء على المساحات الخضراء ، صامتا في البداية ولا يلبث أن يعلو ضجيجه ، ثم ينقطع أثناء عبور الجسر ، وكان الضجيج يفرق في

النهر . تهتز الأرض ويقترب القطار من الرصيف وسحب الدخان تخرج على نحو ايقاعي من المدخنة ومكابس البخار ، تندفع العربات بسرعة مخلفة زوايا هوائية عند مرورها ، وتضرب العجلات الحديدية السكة بعنف فتهتز الأرض أكثر . يحيي العم أريكسون سائق القطار الذي يرد التحية بمثلها . وخلال بضعة دقائق يتلاشى الضجيج وينعطف القطار عند فارموس ويختفي تحت الجبل وهو يصفر ، ويعود الصمت ليسود المكان من جديد .

يرفع العم اريكسون سماعة الهاتف ويقول : « غادر دوفانس اثنين وثلاثين » ويفيد السماعة ويكف الذباب عن الطنين . يصعد العم اريكسون الى الطابق الأول ليتناول وجبة طعام ويستمتع بقبولة قبل وصول قطار البضائع الجنوبي بين الرابعة والخامسة . هذا القطار لم يكن دقيقا في مواعيده أبدا إذ كانت تلحق به عربات جديدة في كل محطة تقريبا .

في الطريق الصاعد الى المحطة كان يوجد دكان حداد ، وكان الحداد يشبه شيخ قبيلة منغولية ، متزوج من امرأة جميلة ولكن مرهقة تدعى هيلفا ، وكانا يعيشان مع أطفالهما في غرفتين فوق الدكان حيث يسود جو حميم وفوضى . كنت وأخي نحب أن نلهو مع اولاده ، وهيلفا لاتزال ترضع أصغر أبنائها ، وعندما يشبع الصغير كانت هيلفاتنادي على صديقي في اللعب والذي كان في سني ، وتقول له : « تعال يا جونت . . تعال وخذ حصتك » . وكنت أنظر اليه بعهد وهو يقف بين ساقى أمه ، فتدفع له بصدرها الضخم فينحني قليلا الى الامام ويبدأ برضع الحليب بنهم . سألت فيما إذا كان بإمكانني أن أتذوق قليلا ، فضحكت هيلفا قائلة إنه يجب أولا طلب الإذن من السيدة اكريلوم . كانت السيدة اكريلوم هي جدتي ، ولاحظت بخجل أنني قد تعثرت من جديد بهذه القوانين غير المفهومة والتي تعترض طريقي .

صورة خاطفة ! أرقد على سريري ذي الحواف العالية . الوقت مساءً وقد أضيئت الأنوار . بين يدي قطعة نقائق أتلذذ بعصرها . انها طرية وذات رائحة محببة . وفجأة أرمي بها بعيدا وأدعو لينيا بشوق . يفتح الباب ويدخل والدي ويقف ضخما . لا تبدو ملامحه . وقد حجب ضوء الصالة من خلفه ، ثم يشير الى قطعة النقائق ويسأل عن ماهيتها ، فانظر اليها وأجيبه بقلب مرتجف إنها لا شيء على الاطلاق . المشهد التالي : مؤخرتي محمرة من الضرب وأنا جالس على ركبتى أنتحب في وسط الغرفة . يضاء مصباح السقف وتدخل لينيا غاضبة لتبديل ملاءات سريري المبللة .

أسرار ، صمت مفاجيء ، اضطراب جسدي غامض ... هل تشبه حالة الارتياب هذه حالة ابنة اندرا في (لعبة حلم) عندما تسأل نفسها: « ماذا فعلت ؟ » . إنني أطرح السؤال نفسه ، وأعرف الاجابة جيدا . طبعاً أنا مذنب . ثمة أعمال شريرة غير مكتشفة لانزال تضايقي في داخلي . كنا نجلس على نحو قريب جدا في أحواض الاستحمام ونتجسس على مؤخرتنا ، كنا نسرق الزبيب من المطبخ ، ونسبح في الدوامات العميقة عند المحطة ، وكنا نسرق النقود من معطف والدي ، ونجدف بالرب . كنت أنا وشقيقي في معظم الاحيان ، نتشارك الافعال ، لكن كراهية متآكلة كانت تفصل بيننا ، فقد كان داغ يعتبرني كاذبا بالاضافة الى كوني مدلالاً لدى والدي . وكنت أنا أعتقد بأن شقيقي الذي يكبرني بأربع سنوات ، يتمتع بمزايا محروم أنا منها ، كالسماح بالخروج في المساء ومشاهدة أفلام سينما محظورة بالنسبة للاطفال . كان يضربني حين يشاء ، ولم أدرك إلا في وقت لاحق أنه كان معرضا باستمرار لمشاعر كراهية وحسد من قبل والدي .

وكادت الكراهية بيننا أن تصل الى حد القتل ... لقد أساء داغ معاملتي وكنت مصمما على الانتقام مهما كان الثمن .

حملت ابريقا زجاجيا ثقيلًا وصعدت على كرسي واختبأت وراء الباب في الغرفة التي كنا نقاسمها في فارموس . وعندما فتح شقيقي الباب القيت بالابريق على راسه ، فتحطم الابريق وسقط شقيقي على الأرض والدم يتفجر من جرح شق راسه . بعد حوالي شهر هاجمني مباغثة من دون تحذير وحطم لي سنين في مقدمة فمي ، ففقت بوضع شمعة مشتعلة في سريره أثناء نومه ، لكن النار انطفأت وحدها ، وتوقفت الأعمال العدوانية مؤقتًا .



في صيف عام ١٩٨٤ جاء شقيقي وزوجته اليونانية لزيارتي في بيتي بجزيرة فارو . كان قنصلًا عامًا متقاعدًا في التاسعة والستين من عمره ، وقد بقي في وظيفته لمدة طويلة رغم أمراضه الكثيرة . أما الآن فكان شبه مشلول ، لا يستطيع أن يحرك سوى رأسه ، وكان يتنفس بارتعاش ويصعب فهم كلامه ، ومع ذلك فقد أمضينا الأيام نتحدث عن طفولتنا .

كانت ذاكرته أقوى من ذاكرتي . تحدث عن كرهه لأبينا وعن تعلقه القوي بأبنا . كانا لا يزالان بالنسبة له مجرد والدين ، مخلوقين غريبين ، نزيين ، لا يمكن فهمهما ، كانا أكبر من الحياة نفسها . كنا نذهب ومنتزه سوية ، يحدق كل منا بالآخر بدهشة . . . رجلان مسنان تفصل بينهما مسافة لا يمكن تخطيها . اختفى النفور المتبادل بيننا وحل الفراغ مكانه ، لا وجود لأي نوع من التواصل أو الحميمية . كان شقيقي يود لو يموت ، لكنه كان خائفًا من الموت ، لذلك حافظت ارادته الغاضبة على عمل رئتيه وقلبه ، وكان قد أشار الى أنه لا يستطيع الإنحار بسبب عجزه عن تحريك يديه .

كان هذا الرجل القوي والمتكبر والذكي يجازف باستمرار . كان يبحث عن الخطر ويستمتع بالصيد ويطوف الغابات . كان قاسيا وأنانيا ومرحًا ، ودائمًا يفوز بالحظوة عند والدي رغم كراهيته له ، ويتعلق بأمي رغم محاولاته المرهقة للتحرر منها .

بالنسبة لي كان مرض شقيقي مفهوما ، لقد ثله الغضب وشخصيتان ساحقتان ، معقدتان وغامضتان ، هما أبي وأمي . وربما يجب الإشارة الى انه كان يحتقر التحليل النفساني والدين والواقع الروحي . كان كائنا عقلانيا جدا ، يتحدث سبع لغات ويفضل قراءة التاريخ والسير الذاتية للسياسيين، وقد أملى سيرته الذاتية، وحصلت عليها كاملة في ثمانمائة صفحة مكتوبة بأسلوب أكاديمي جاف ومازح في آن معا . كان يتحدث عن حياته بعبارات مباشرة ، وكانت سيرته تتضمن بضع صفحات عن أمي ، وكل ماعداها هو سخرية ولامبالاة تجاه الحياة التي اعتبرها مغامرة تفتقر الى الإثارة . وفي الثمانمائة صفحة المذكورة لم يشر ولو بكلمة واحدة الى مرضه . لم يتذمر أبدا، لكنه كان يكره قدره . فواجه آلامه المذلة بصبر وغضب ، ولم يدع أحدا يشعر بأحزانه لأنه لم يكن يريد شفقة من أحد .

احتفل بعيد ميلاده السابعين في حفلة أقيمت له بالسفارة في أثينا. كان مريضا جدا واعتقدت زوجته بضرورة إلغاء الحفلة ، لكنه رفض وألقى خطابا ترحيبيا رائعا بضيوفه . بعد أيام قليلة نقلوه الى المستشفى حيث أعطوه علاجا خاطئا فمات إثر نوبة اختناق طويلة . كان واعيا طيلة فترة اختناقه ، لكنه عاجز عن الكلام بسبب الثقب الذي أحدثوه في قصبته الهوائية . وبسبب عجزه المطلق عن التواصل فقد مات غاضبا .



كانت علاقتي مع شقيقتي الصغرى مارغريتا طيبة للغاية . كانت تصغرني بأربع سنوات ، لكننا كنا نلعب سوية بألعابنا ونخترق سلسلة من الأحداث المعقدة التي تدور في بيت ألعابها . عندما أتأمل اليوم صور العائلة أراها وهي طفلة صغيرة مدورة ذات شعر أشقر وعينين مفتوحتين باتساع من الخوف . كانت كتلة من الحساسية ، من

فمها الرقيق الى يديها المضطربتين . كانت محبوبة جدا من قبل ابي
وأمي ، تحاول ان تكون الطفل اللطيف الذي يعوض عن الصبيين
الشقيين .

ذكريات طفولتي عن مارغريتا غامضة تكاد تفلت مني . انشأنا سوية
مسرحا للعرائس ، فكانت تخطط الملابس وانا أصمم المسرح . وكانت أمنا
مشاهدا صبوراً ، وقدمت لنا قطعة قماش من المخمل الأزرق المطرز ،
لنستعمله كستار للمسرح . كنا نلعب بمزاج رائع ، ولا أذكر أننا
تشاجرنا قط .

عندما كنت في الحادية عشرة وشقيقتي في السابعة ، أمضينا الصيف
في لانغافن قرب استوكهولم . وكانت قد أجريت لأمي عملية جراحية
فوجب بقاؤها في صوفياها مات لمدة أشهر ، وكان أبي يريدنا الى جانبه
تحت اشراف مربية لطيفة تعمل في مدرسة ابتدائية . لكننا كنا نجد
نفسينا وحيدين في اوقات كثيرة ، فكنا نذهب الى حوض الاستحمام في
الحمام ونلعب ألعابا محرمة ، ولكن فجأة ، ومن دون أي توضيح أو
استفسار ، منعنا من البقاء وحدنا في الحمام .

وبدأت مارغريتا تستغرق أكثر فأكثر في علاقتها مع والدينا ، وفقدت
العلاقة معها تواصلها الحميم . وعندما بلغت التاسعة عشرة من عمري
هربت من المنزل ولم أعد التقي بها إلا نادرا . وقد ذكرت لي مرة انها
عرضت علي محاولتها في الكتابة فمرقتها من شدة جهلي آنذاك . أما
أنا فلا أذكر هذه الحادثة . وبقيت شقيقتي تكتب ، وتشر كتابا بين
الحين والآخر . ولو أنني فهمت كل ما كتبه بشكل صحيح لأدرت
أن حياتها جحيم لا يطاق .

في بعض الأحيان كنا نتحدث بالهاتف ، وذات مرة التقينا في حفل
موسيقي . . . وقد أصبت بالخوف والارتباك عندما شاهدت وجهها المعب
الغريب وسمعت صوتها البارد واللامبالي .

عندما افكر أحيانا بشقيقتي أشعر بتأنيب الضمير . لقد بدأت تكتب سرا دون أن تطلع أحدا على كتاباتها ، وأخيرا تشجعت وطلبت مني أن أقرأ لها . فأحسست أنني في ورطة ، إذ كانوا يعتبرونني مخرجا واعدة وبيديونني ككاتب . كنت اكتب بطريقة سيئة متأثرا بهالمر برغمان وسترندبرغ ، ثم وجدت الأسلوب المتوتر والمتعب نفسه في كتابات شقيقتي ، فحكمت عليها بالموت دون أن أدرك أن هذه كانت طريقتها الوحيدة للتعبير . وقد اعترفت فيما بعد بأنها تخلت عن الكتابة نهائيا : إما لتعاقب نفسها ، أو ربما بسبب عدم التشجيعأست ادري تماما .

* * *

لم يكن قرارى بالتخلي عن الكاميرا السينمائية مأساوياً ، وقد خلصت اليه بعد العمل على فيلم (فاني والكسندر) . ولا أدري ان كان جسدي يتحكم بروحي أم أن روعي تؤثر على جسدي ، لكنني وجدت شيئاً فشيئاً انه بات من الصعب جدا التقلب على حالة الارهاق الجسدي التي أصابتنى .

في صيف عام ١٩٨٥ اعتقدت أنني وجدت فكرة آسرة لفيلم حديد اقترب من خلاله الى عالم السينما الصامتة ، وذلك بالعمل على مقاطع طويلة تخلو من الحوار والمؤثرات الصوتية . كانت تبدو فرصة للخلاص من الشرثرة .

وعلى الفور بدأت بكتابة السيناريو ، وكانت النعمة الالهية الى جانبي ، وكانت لدي الرغبة للعمل ، فامتلت أيامي بنوع من الطمأنينة الهادئة والاثبات القوي لصواب رؤيتي .

بعد ثلاثة أسابيع من العمل المثمر ، شعرت فجأة بأنني مريض جداً ، كانت ردة فعل جسدي مزيداً من التشنجات وفقدان التوازن . ويبدو أنني قد تسمت وسكنني الم مبرح . أدركت بأنني لن أصنع فيلماً مرة أخرى فقد كان جسدي يرفض التعاون معي ، وكان احساس التوتر المستمر - الذي يشكل جزءاً أساسياً في صنع الفيلم - أمراً قد تعودت عليه . فوضعت النص جانبا ، وكنت قد حولت فيه احدى شخصيات الحكايات الشعرية للأطفال الى صانع أفلام مجهول يعود عهده

الى زمن السينما الصامتة ، عثر على أفلامه الذاتية في علب معدنية لا تحصى مدفونة تحت أرضية بيت ريفي متداع على وشك أن يعاد بناؤه .

كنت أعاني دائماً من معدة متوترة ، وهذه كارثة سخيقة ومذلة في آن واحد . فأمعائي تخرب عليّ قواي ، لذلك كانت المدرسة بؤساً متواصلًا لا أستطيع فيها أن أقدر أوقات النوبات التي تهاجمني ، فاتفوط فجأة في سروالي ويالها من تجربة محرجة . كانت النوبات تأتي كالصاعقة دون انذار ، يرافقها ألم شديد يصعب تحمله .

وعلى مدى السنوات ، علمت نفسي أن أتحكم بهذه المتاعب بحيث أستطيع الاستمرار بالعمل دون أن يبدو عليّ أي اضطراب . كان الأمر يشبه ايواء شيطان شرير في أكثر مناطق الجسد حساسية . وبواسطة أنظمة صارمة كان يمكن السيطرة على هذا الشيطان وكانت قواه تنقلص بدرجة ملحوظة عندما كنت أقرر أنا بنفسني ، وليس هو ، ماذا يجب علي أن أفعل .

كل الادوية كانت بلا فائدة وقد أخبرني طبيب حكيم بأنني يجب أن أتقبل عاهتي وأتكيف معها . وهذا ما فعلته بالضبط . ففي كل المسارح التي عملت لديها خلال فترات زمنية مختلفة ، كان يوجد مرحاض خاص بي وحدي . وربما كانت هذه مساهمتي الأكثر استمراراً في تاريخ المسرح .

بالإضافة الى كل هذا فقد عانيت ولمدة تزيد عن العشرين عاماً من الارق المزمن ، الذي لم يكن مضرًا مثل معدتي ، إذ يوسع المرء أن يتدبر أمره إذا نام عددًا من الساعات أقل مما يتوقعه ، وبالنسبة لي فإن خمس ساعات من النوم كانت كافية تمامًا . كان احساس البلى والتمزق يأتي ليلاً ، مصحوباً بأسراب من الطيور السوداء التي تلازمني طوال الليل ، مثل القلق والغضب والخجل والندم والملل . فالارق في النهاية يمكن

معالجته بطقوس محددة ، كتغيير السرير أو اضاءة المصباح وقراءة كتاب أو الاستماع الى الموسيقى ، وتناول البسكويت أو الشكولولا، وشرب المياه المعدنية . كما ان تناول أقراص من الفاليوم في الوقت المناسب قد يكون فعالا ، ولكن في احيان أخرى قد يكون مدمراً ومسبباً لمزيد من النكد والقلق .

وكانت الشيخوخة سبباً آخر لان اتخذ ذلك القرار . الشيخوخة مرحلة لا أندم عليها ولا أفرح بها . لقد أصبح حل المشاكل بطيئاً واتخاذ القرارات تطلب وقتاً أطول ، ويات الأخراج عملية مثقلة بهموم هائلة ، وفجأة وجدت نفسي عاجزاً بسبب عدم قدرتي ، على التنبؤ بالصعوبات العملية المقبلة .

ومع الإرهاق أصبحت أكثر تحذلقاً وتدمراً ومللا ، واحتدت مشاعري فصرت أرى الأخطاء في كل مكان .

وعندما أدقق النظر في افلامي السابقة اجد كيف كان الحصر والتقييد يحيطان بي من كل جانب ويسلباني حياتي وروحي . لم يكن الحظر كبيراً في المسرح حيث كان بإمكانني ملاحظة نقاط الضعف بالاضافة الى مساعدة الممثلين في ذلك . أما في الفيلم فانه يتعذر اصلاح أي شيء ، وكان يجب انجاز ثلاث دقائق كاملة من مدة الفيلم الاصلية يومياً ، وبحيث يكون هذا الانجاز حياً ومليئاً بالإبداع .

في بعض الاحيان ، الاحظه بوضوح ، وأره متجسداً ، هذا المخلوق الذي نصفه وحش ونصفه الآخر انسان ، والذي يتحرك في أعماقي وأوشك أنا على ولادته . لقد قررت أن اتقاعد قبل أن يرى الممثلون ومن يعملون معي هذا المخلوق المرعب ، فينظرون الي بنفور أو بشفقة . لقد رايت عدداً كبيراً من زملائي يسقطون في الحلبة مثل مهرجين مرهقين ، باتوا يشعرون بالسأم من بلادتهم ، وقد قتلهم صمت الآخرين اللبق أو استهجانهم ، فدفع بهم بعيداً عن الاضواء بأيدٍ لطيفة أو قاسية .

سوف أتناول قبعتي ما دام بوسعي أن أصل بيدي الى مشجب القبعات ، وأمضي خارجاً بنفسني رغم آلام جسدي . ان الابداع في الشيخوخة أمر غير مضمون ، ولكنه مشروط ومرحلي ، ويكاد يشبه الى حد كبير عملية جنسية منحطة .

* * *

اخترت أحد أيام التصوير القديمة من عام ١٩٨٢ . ووفقا للمذكراتي فقد كان يوما باردا بلغت فيه درجة الحرارة عشرين تحت الصفر . استيقظت كالعادة في الخامسة صباحا ، وحتى أقاوم هيستريا أمعائي وعملياتها التخريبية قفزت من السرير بسرعة ووقفت على الأرض وأغمضت عيني لبضع دقائق اختبرت خلالها حالتي الفعلية ، كيف حال جسدي ؟ وكيف حال روحي ؟ والأهم من هذا كله ما الذي يجب انجازه اليوم ؟ لاحظت أن أنفي كان مسدودا (بسبب الهواء الجاف) وأن خصيتي اليسرى تؤلمني (ربما كان سرطانا) ، وأن وركي يحرقني (الألم القديم ذاته) وأن هناك طنيننا في أذني (وهو أمر مزعج ولكن لا داعي للقلق بشأنه) . ولاحظت أيضا أن هيستريا أمعائي تحت السيطرة وأن خوفي من تشنجات المعدة لا ضرر منه . وكان يوم العمل يتضمن بشكل رئيسي المشهد بين اسماعيل والكسندر في فيلم (فاني والكسندر) ، وكنت قلقا من عدم قدرة الممثل الشاب الجريء ، برتيل غوف ، والذي يلعب دور الكسندر ، على تأدية الدور جيدا في هذا المشهد الصعب . لكن التعاون المقبل مع ستينا ايكبلاد التي تؤدي دور اسماعيل ، منحني جرعة من التوقعات المفرحة . وهكذا اكتمل الالهام الأول في هذا اليوم وتوصلت الى استنتاج صغير ولكن ايجابي : فاذا كانت ستينا جيدة كما أتوقع فان بوسعي تدبر أمر الكسندر . لقد كنت قد توصلت الى خطتين اثنتين ، الأولى أتبعها مع الممثلين الجيدين ذوي السوية المتكافئة ، والأخرى مع ممثل رئيسي وممثل ثانوي .

الامر المهم الآن هو التعامل بهدوء . . . وان اكون هادئا .

وفي الساعة صباحا تناولت الافطار مع زوجتي انغريد في جو من الصمت الودود . كانت معدتي لا تزال مطيعة وبقي لها أن تشعل الجحيم أولا خلال الخمس والأربعين دقيقة القادمة . وبانتظار قرارها طالعت صحف الصباح ، وفي الثامنة إلبا وصلت السيارة وحملتني الى الاستوديو في ساندبايرغ والذي كانت تملكه آنذاك شركة أوروبا فيلم .

هذه الاستوديوهات التي كانت تحظى في الماضي بسمعة حسنة بدأت تنهار الآن ، وتعمل حصرا في إنتاج الفيديو ، وقد تفرق واكتأب كل من كان يعمل فيها سابقا . كان استوديو التصوير قدرا لا يعزل الصوت وغير مجهز بشكل جيد . غرفة المونتاج غير صالحة وأجهزة الاضاءة سيئة والصوت سيء . وأجهزة التكييف لا تعمل كما يجب ، والأرض مليئة بالأوساخ .

وفي تمام الساعة صباحا بدأ يوم التصوير . كان مهما أن تبدأ المجموعة عملها في الوقت المحدد تماما . كل النقاشات والخلافات كان يجب أن تدور خارج دائرة التركيز . اعتبارا من لحظة البدء كنا نتحول الى جهاز معقد ولكن متناسق ، هدفه إنتاج صور حية .

وسرعان ما كان العمل يستقر في ايقاع هادئ وجو من الالفة والمودة . وكان الشيء الوحيد المزعج في هذا اليوم عدم وجود عازل للصوت وافتقاد الاحترام للضوء الاحمر المضاء في المرر خارج الاستوديو ، مشيرا الى بدء عملية التصوير التي تتطلب الهدوء والصمت . وما عدا ذلك فقد كان يوما من المزاج الرائق ، ومنذ اللحظات الأولى شعرنا بتفهم ستينا لشخصية اسماعيل وقد استوعب الكسندر الوضع تماما ، فاستطاع بواسطة امكانيات الأطفال الغريبة أن يعطي تعبيرا لخليط معقد من الفضول والخوف مع لمسة من العبقرية .

ومضت البروفات بسلاسة ومرح ، عملية ابداعية راقصة . لقد وفرت المنتجة آنا آسب جوا مناسباً وجهاز سقن نيكفست الاضاءة بحدسه الذي يصعب وصفه والذي جعله واحداً من أفضل مديري التصوير في العالم كله ، إذا لم أقل أفضلهم على الاطلاق . عندما كنت أسأله كيف كان يجد حلاً لبعض المشاهد ، كان يجيبني مفسراً الأمر بقواعد فنية بسيطة (والتي كانت ذات فائدة عظيمة بالنسبة لي في المسرح) . لم يكن يريد - أو ربما لم يرغب - أن يطلعني على سره الحقيقي . وعندما كان يشعر بالقلق أو بالضعف والتعب أحيانا ، كانت الأمور تسير بشكل سيء فيعيد كل شيء من جديد . لقد كانت الثقة والاحساس بالأمان يسودان عملنا المشترك . في أوقات كثيرة أشعر بالحزن لأننا لن نعمل سوية بعد ذلك ، وأشعر بالحزن عندما أتصور هذا اليوم الذي سنفترق فيه . ثمة قناعة حسية تنشأ أثناء العمل مع مجموعة واحدة و متماسكة مؤلفة من أشخاص أقوياء ومبدعين ومستقلين ، الممثلين والمساعدين وعمال الكهرباء والاضاءة ، وفريق الانتاج ومسؤولي الاكسسوار والمكياج والملابس... كل هذه الشخصيات تساهم في خلق يوم التصوير ، وتجعل اجتيازه أمراً ممكناً بالفعل .

أحيانا أشعر بالخسارة الحقيقية لفقدان هؤلاء الناس وكل الأشياء المرتبطة بهم . وأستطيع الآن أن أفهم ماذا كان يقصد فيليني عندما قال : إن تصوير الفيلم بالنسبة له هو طريقة في الحياة ، وأستطيع أن أفهم أيضاً قصته الصغيرة حول آنيثا إيكبرغ ، فبعد أن صورت المشهد الأخير في فيلم (الحياة حلوة) داخل سيارة موجودة بالاستوديو ، انفجرت بالبكاء وتشبثت بالمقود ورفضت أن تغادر السيارة ، فاضطروا الى حملها بلطف وحزم الى خارج الاستوديو .

توجد سمادة أحيانا في أن يكون المرء مخرجاً سينمائياً . فعندما يولد تعبيري لدى الممثل لم يتمرن عليه من قبل ، وتقوم الكاميرا بتصوير هذا التعبير ... وهذا تماماً ما حدث في ذلك اليوم ، عندما شحج وجه

الكسندر فجأة ، وارتسم عليه تعبير حزن عظيم . لقد التقطت الكاميرا هذه اللحظة ، إن ذلك الحزن ، غير المموس ، والمعبر عنه في تلك اللحظة قد ظهر لشوان قليلة واختفى ولم يعد أبدا ، كما أنه لم يكن قد ظهر في أي وقت سابق ، وقد سجل شريط الفيلم هذه اللحظة ، وهنا باعتقادي تكمن قيمة كل أيام وأشهر الروتين الماضي . إنني قد أعيش فقط من أجل لحظات مماثلة ...

مثل صياد اللآلئ .



في عام ١٩٤٤ ، كنت في السادسة والعشرين من عمري ، وكنت مخرجا في مسرح هيلسنغبورغ . قبلها عملت لوقت طويل ككاتب سيناريو في شركة سفنسك فيلم ، وكنت قد كتبت سيناريو فيلم (النوبة) الذي أخرجه ألف سيورغ . كانوا يعتبرونني موهوبا ولكن صعب المراس . وكان يربطني بالشركة عقد يمنحني حقوقا معينة ويمعني من العمل مع شركات سينمائية أخرى ، ولم يكن على درجة من الخطورة . فعلى الرغم من النجاح الذي حققه فيلم (النوبة) لم يتصل أحد بي باستثناء لورنس مارمستدت ، الذي ظل يسألني بلهجة ساخرة ولطيفة الى متى سوف أبقى مرتبطا بشركة سفنسك التي قد أشهد نهايتي فيها عما قريب ، وقال إن بوسعه ان يجعل مني مخرجا سينمائيا جيدا ، لكنني قررت أن أبقى لدى كارل اندرس دايملنغ في سفنسك فيلم والذي كان يعاملني بأبوية وبشيء من العطف .

ذات يوم وجدت نص مسرحية على مكتبي ، وكانت بعنوان (الام) ومن تأليف كاتب دانمركي مغمور . اقترح دايملنغ أن أكتب سيناريو عن المسرحية واذا كان السيناريو جيدا فسوف يكون فرصتي الأولى للاخراج . قرأت المسرحية فوجدتها مرعبة لكنني كنت متشوقا للاخراج ، فكتبت السيناريو خلال اسبوعين وتمت الموافقة عليه وكان مخططا ان

ببدا التصوير في صيف ١٩٤٥ . كانت الامور جيدة للغاية ، وكنت
مجنونا بفرحي ، وبالطبع لم اكن لأرى الحقائق جيدا ، وبالنتيجة كنت
أسقط متهورا في كل حفرة ساعدت الآخرين على حفرها .

كانت مدينة السينما في راسوندا عبارة عن مصنع ينتج ما بين
العشرين والثلاثين فيلما خلال فترة الأربعينيات ، وكانت تحتوي على
ثروة من التقاليد الحرفية . واثناء السنوات التي أمضيتها عبدا لكتابة
السيناريوهات كنت اتردد كثيرا على الاستوديوهات وأرشيف الأفلام
ومعامل التحميض وغرف المونتاج وأقسام الصوت والمخازن ، لذلك
كنت أعرف جيدا مباني المدينة السينمائية وكل العاملين فيها ، وكنت
مقتنعا بأنني يجب أن أقدم نفسي على أنني واحد من أهم المخرجين
السينمائيين في العالم .

الامر الذي كنت أجهله آنذاك ، هو أن الادارة كانت تخطط لانتاج
فيلم زهيد التكلفة يستفيدون بواسطته من العقود التي وقعتها الشركة
مع الممثلين . وبعد نقاشات عديدة سمح لي أن أجري اختبارا للفيلم
مع انفا لاندرغ وستيف أولين ، وكان معنا المصور غونر فيشر . كنا من
جيل واحد ، مليونين بالحماسة وأمورنا المشتركة جيدة . وأصبح فيلم
الاختبار طويلا ، وبعد أن رأيت له لم تكن هناك حدود لحماستي واندفاعي،
فاتصلت بزوجتي التي كانت تقيم في هيلسنفبورغ وأخبرتها بصوت
عال بأنه يجب على المخرجين أمثال سيوبورغ ومولاندر ودربر أن
يتقاعدوا فورا ، فانغمار برغمان قادم في طريقه .

وبينما كنت أتباهى بثقتي بنفسي انتهزت الادارة الفرصة لتستبدل
بالمصور غونر فيشر غوستارو سلينغ ، وهو مصور مقاتل وشجاع نال
جائزة عن مجموعة أفلامه القصيرة عرض خلالها السماء الرحبة والغيوم
المضيئة الجميلة . كان وثائقي النزعة ولم يكن قد عمل كثيراً داخل
الاستوديو ، لذلك كان عديم الخبرة عند التعامل مع الاضاء بالإضافة

انى أنه كان يكره الأفلام الروائية وكل أنواع التصوير الداخلي . ومنذ اللحظة الأولى بدأ كل منا يختبر الآخر دون أن نكون واثقين من أنفسنا، وأخفى كل منا يقينه وراء ستار من السخرية والفظاظة .

كانت الأيام الأولى من تصوير فيلم (أزمة) عبارة عن كوابيس حقيقية ، وأدركت على الفور أنني وضعت نفسي داخل جهاز لا أستطيع السيطرة عليه أبدا ، وأن الممثلة داغني لاند التي اختلفت بشأن حصولها على الدور الرئيسي ، لم تكن ممثلة سينمائية وكانت تفتقد الخبرة . لقد رأيت بوضوح تام أنهم كانوا يدركون عدم كفاءتي ، فواجهت عدم ثقتهم بانفجارات غاضبة ومهينة .

وجاءت النتائج مزرية ، كانت هناك أعطال في الكاميرا وبعض المشاهد مغطاة بغشاوة والصوت سيء بحيث كان يصعب فهم حوار الممثلين .

كانت تجري نشاطات مكثفة وراء ظهري ... فقد اعتبرت ادارة الاستوديو أنه من الضروري الغاء الفيلم أو استبدال المخرج والممثلين الأساسيين . وبعد عمل مضمّن استمر ثلاثة أسابيع تلقيت رسالة من كارل أندرس ديملنغ ، والذي كان في إجازة ، كتب يقول : إنه شاهد المادة المصورة ولا يعتقد أنها جيدة لكنها واعدة ، واقترح أن نبدأ من جديد ، فوافقت بامتنان دون أن أرى هذا الباب المسحور امام جسدي النحيل .

وكان الأمر محض صدفة عندما التقيت بفيكتور سيوستروم ، مخرج الأفلام الصامتة العظيم . أمسكني بثبات من مؤخرة عنفي وأخذ يسير بي ذهابا وإيابا على الطريق الاسفلتي خارج الاستوديو ، وفجأة بدأ يقول أشياء بسيطة ومفهومة : « إنك تصور مشاهدك بطريقة معقدة ولن تكونا أنت وروسلينغ بمستوى هذا التعقيد . اعمل ببساطة أكثر . صور الممثلين من الامام بحيث تبدو وجوههم . إنهم يحبون ذلك وهذه هي الطريقة المثلى . لا تستمر في الشجار مع الجميع ، فانهم سيفضون

ولن يعملوا جيدا . لا تعالج الأمور بشكل بدائي وإلا فسوف يتأفف الجمهور . يجب أن تتعامل مع التفاصيل الصغيرة على أنها صغيرة . . «
وبقينا نسير على الطريق الاسفلتي وهو يمسك بي من مؤخرة عنقي ،
لم يكن غاضبا مني ولم أكن بدوري مسرورا .

كان صيفا حارا ، وكانت الأيام في الاستوديو تحت السقف الزجاجي
غير محتملة . كنت اسكن في غرفة مستأجرة بالمدينة القديمة ، أعود
إليها بعد الظهر وأرتمي على السرير كالمثلول وأنا أشعر بالقلق
والخجل . وفي المساء أتوجه الى مطعم صغير وأتناول وجبة ثم أذهب
الى السينما . . السينما دائما . كنت أشاهد أفلاما أمريكية وأفكر بأنني
يجب أن أتعلم منها ، إن حركة الكاميرا هذه سهلة للغاية وبإمكان
روسلينغ أن يقوم بها . وهذه قطعة مونتاجية جميلة ، سوف أتذكرها.

في أيام السبت كنت أتمل وأرافق مجموعة سيئة وأتورط في
شجارات . وكانت زوجتي الحامل تأتي لزيارتي بين الحين والآخر ،
فنتشاجر وتتركني . وكنت أقرأ نصوصا مسرحية وأستعد للموسم
المقبل في مسرح هيلسينغبورغ .

اخترت مدينة هيدمورا بدلا من أي مكان آخر لأصور فيه .
لا أدري سبب اختياري هذا ، ربما كنت أريد أن استعرض نفسي أمام
والدي اللذين كانا على مسافة بضعة أميال يقضيان الصيف في
فارموس . وهكذا تحركت قافلة سيارات فريق التصوير والمعدات
ونزلنا في فندق هيدمورا البلدي .

وهناك حدث امران . . .

أولا : انقلب الطقس وأمرت السطماء بلا توقف . وكان روسلينغ
الذي استطاع أخيرا الخروج من الاستوديو ، يتطلع فلا يرى أية غيوم
جميلة في هذه السماء الرمادية فيعود الى غرفته في الفندق ويثمل
ويرفض أن يصور .

ثانيا : ادركت سريعا بأنني كنت مديراً بأئسأ لفريق التصوير داخل الاستوديو ، وأنني الآن في هيدمورا المطرة أصبحت أكثر بؤساً .

وهكذا لازم معظم أعضاء الفريق الفندق يلعبون الورق ويشملون . أما البقية فكانوا يشعرون بالإحباط ، لكن الجميع اتفقوا على أن المخرج هو السبب في رداءة الطقس . بعض المخرجين محظوظون بالطقس والبعض الآخر غير محظوظ ، وأنا كنت منهم .

كنا نندفع الى الخارج مرات عديدة ، نصب الكاميرا الثقيلة من نوع دبري ونركب أجهزة الإضاءة الخرقاء ومولدات الكهرباء ومعدات الصوت ، ونجري بروفة مع الممثلين ونضرب الكلاييت ، وفجأة ينهمر المطر من جديد ، فنهرع ونختبئ في مداخل الأبنية أو في السيارات أو في مقهى قريب ، في حين يستمر سقوط المطر وتلاشى الإضاءة المطلوبة . بعدها نعود الى الفندق لتناول العشاء . وعندما كنا ننجح أحيانا في تصوير لقطة خلال توقف المطر وظهور الشمس ، كنت أشعر باضطراب وإثارة ، وأتصرف - كما شهد بذلك شخص وقور ومحترم - مثل المجنون .. فأصرخ وأتود وأهين الناس الفضوليين الذين وقفوا للفرج ، وألعن مدينة هيدمورا .

وفي الأمسيات كانت تحدث تجمعات فوضوية حول الفندق ، فتدخل الشرطة لحسم الموقف ، وكان مدير الفندق قد هدد بطردها بعد أن وقفت مريان لوففرن على إحدى طاولات المطعم ورقصت الكانكان بمهارة مدهشة ، ثم سقطت على الأرض وحطمت الخشبية المزخرفة . وبعد ثلاثة أسابيع كان وجهاء المدينة قد ضاقوا ذرعاً بنا فاتصلوا بشركة سفنسك فيلم وتوسلوا الى الإدارة أن تبعد هؤلاء المجانين عن المدينة ، بحق الله .

في اليوم التالي تلقينا الأوامر بالعودة فوراً بعد عشرين يوماً من التصوير ، صورنا خلالها أربعة مشاهد من أصل عشرين .

استدعاني ديملنغ وقام بتوبيخي وهددني علناً بأنه سوف يسحب الفيلم مني . لكن فيكتور سيوستروم تدخل لصالحني فيما يبدو .

كان الوضع شاقاً للغاية ولكن الأسوأ لا يزال أمامي . في الفيلم ، وطبقاً للسيناريو هناك مشهد يوجد فيه صالون تجميل قرب صالة موسيقية حيث نسمع في المساء أصوات موسيقا وضحك . وقد أصرت على بناء الديكور في شارع جديد ، إذ أنني لم أجد مكاناً مناسباً في استوكهولم ، واستطعت أن أدرك رغم حالتي العقلية المرهقة أن الأمر سيكون مكلفاً للغاية . لكنني كنت أرى المشهد واضحاً في ذهني : رأس جاك الفارق في الدماء والمغطى بالجريدة ، أضواء المسرح البراقة ، واجهة صالون التجميل الزجاجية والمضاءة حيث تقف خلفها العارضات ذوات الوجوه الشمعية الصارمة وباروكات الشعر المستعار والاسفلت الملبل بالمطر والحائط الآجري في الخلفية . . كنت على وشك أن أمتلك حيزاً خاصاً بي من شارع عام .

كانت دهشتي كبيرة ، إذ تمت الموافقة على فكرة المشروع دون أية نقاشات . وتم إنشاء ديكور البناء دون تأخير على أرض قريبة من الاستوديو الضخم مساحتها مائة متر مربع ، وكنت أتردد باستمرار على الموقع وأشعر بالفخر لنجاحي في تحقيق هذا المشروع ، متوهماً أن الإدارة لا تزال تؤيد فيلمي رغم كل الخلافات والصعوبات . لكنني لم أدرك أن شارعني كان سيتحول إلى سلاح ممتاز في يد إدارة الاستوديو القوية ، فقد كان يسود توتر دائم بين مديري المكاتب من جهة ، والاستوديو الذي ينفذ الأفلام من جهة أخرى ، وهكذا فإن كلفة الشارع الباهض الثمن والسخيف ، كانت ستسجل على حساب فيلمي وستجعل استعادة ميزانية الفيلم شبه مستحيلة ، وبهذا توجه الإدارة ضربة لي ولديملنغ الذي كان لا يزال يساندني .

أما التصوير نفسه فقد اتخذ منحىً بشعاً : بدانا تصوير المشهد الأول في إحدى أمسيات الخريف بعد حلول الظلام ، وكان المشهد مؤلفاً

من لقطة واحدة وسوف يتم تصويره بواسطة الكاميرا المثبتة على حامل ارتفاعه تسعة أقدام . كانت أضواء المسرح متوهجة ، وجاك قد أطلق الرصاص على رأسه ، ومريان منكبة على جسده تصرخ . تصل سيارة الاسعاف ، اسفلت الشارع يتلألا ودمى صالون التجميل تحرق عبر الواجهة الزجاجية . كنت مستنداً الى حامل الكاميرا ، مريضاً ودائخاً، ولكن ثملاً باحساس القوة : كل هذا كان ابداعى ، حقيقتى التى اوجدتها وخططت لها ونفذتها .

الحقيقة تأتى وتضرب بسرعة وقسوة .. كان هناك أحد المساعدين يقف مع زميل آخر ، مستنداً الى حامل الكاميرا نفسه ، عندما سقطت الكاميرا على رأسه فهوى على الأرض والكاميرا فوقه . لا أستطيع أن اذكر ماذا حدث عندئذ ، لكن سيارة الاسعاف الموجودة قامت على الفور بنقل الرجل المصاب الى مستشفى كارولينسكا ، وأصر أعضاء الفريق على وقف التصوير لأن زميلهم لا بد قد توفي ... أو ربما يحتضر .

أصابتنى نوبة ذعر ورفضت اقتراحهم وصرخت فى وجوههم بأن الرجل كان ثملاً ، وأنا جميعاً ثملون أثناء التصوير هذه الليلة (وكان الأمر كذلك بالفعل) ، وأننى محاط بمجموعة من الفوغاء وأن التصوير سوف يستمر الى أن يأتينا خبر من المستشفى بأن الرجل قد توفي ، واتهمتهم جميعاً باكسل والقذارة واللامبالاة . لم يجاوبني أحد من الواقفين ، وساد المكان صمت سويدي نكد . تابعنا التصوير وأنجزنا البرنامج كاملاً ، ولكن شيئاً مما تصورته ، مثل لقطات الإقتراب من الوجوه والأشياء ، لم يتحقق . لم أستطع أن أحققه ، فمضيت بعيداً واختفيت فى الظلام وشرعت أبكي من الغضب وخيبة الأمل .

انقضى الأمر فيما بعد ، فإصابة الرجل لم تكن خطيرة ، بالإضافة الى أنه لم يكن ثملاً .

ومضت الأيام ، وكان روسلينغ كريماً معي إذ يسخر من اقتراحاتي بوضع الكاميرا عالياً . أما معمل التحميص فكان يعطينا صوراً إضاءتها غير صحيحة ، وكنت أتشاجر باستمرار مع عمال الكهرباء ، وهكذا ، شيئاً فشيئاً تلاشى كل ما تبقى من النظام ، وبدأ العاملون في الفيلم يأتون ويذهبون ساعة يشاؤون ... لقد قاموا بتجميدي تماماً .

صديق وحيد رفض أن يمضي معهم فيما هم عليه ، إنه أوسكار روزاندر ، مونثير الفيلم ، والذي كان يبدو مثل المقص ، حاداً وواضحاً تماماً . كان يتحدث بلهجة جنوبية مبجلة ويبدو متكبراً على الطريقة الانكليزية: يكيل الإهانات بلطف لكل المخرجين وإدارة الاستوديو والرؤوس الكبيرة في الشركة . وكان يعتبر اللحظة العظيمة في حياته ، هي لحظة العمل مع الأمير ويلهلم الذي يصور أفلاماً قصيرة لشركة سفنكس فيلم . كان الجميع يخافون أوسكار ولم يكن أحد يعرف متى يصبح ودوداً أو قاتلاً . كان يعامل النساء بفروسية لطيفة انقضى زمنها ، ويحتفظ بمسافة تفصله عنهن ، وكان يقرأ بنهم ويمتلك مجموعة جديدة بالاحترام من الكتب الإباحية ، ويقال إنه بقي يتردد على العاهرة نفسها ، لمدة ثلاثة وعشرين عاماً ، مرتين في الاسبوع ، وفي كل الفصول .

وعندما ذهبت للقائه بعد انتهاء التصوير وأنا أشعر بالقلق وخيبة الأمل استقبلني بهودة وموضوعية وأشار الى كل ما كان يعتبره سيئاً وغير مقبول في فيلمي . لقد اطلعني على أسرار المونتاج وكان من بينها حقيقة أساسية مفادها أن المونتاج يحدث أثناء التصوير نفسه ، وأن الإيقاع يولد أساساً في السيناريو . أعرف أن عدداً كبيراً من المخرجين يتمسكون بوجهة نظر معاكسة ، لكن تعاليم أوسكار روزاندر فيما يتعلق بالمونتاج كانت أساسية بالنسبة لي .

يتم تحديد الإيقاع في أفلامي من خلال النص الموجود على الطاولة ، والذي يولد فيما بعد أمام الكاميرا . كل أنواع الإرتجال تبقى غريبة بالنسبة لي ، وإذا ما أجبرت على اتخاذ قرارات سريعة فإنني أتعرق

من الخوف وأصبح قاسياً . إن التصوير بالنسبة لي هو وهم مكون من تفاصيل ، وانعكاس للواقع الذي كلما عشته لمدة اطول ، بدأ لي وهمياً أكثر فأكثر .

عندما لا يكون الفيلم وثائقياً فإنه حلم . . . ولهذا فإن تاركوفسكي هو أعظمهم على الإطلاق . إنه يتحرك بحرية مطلقة في عوالم الأحلام دون أن يقدم شروحات . وماذا يجب عليه أن يشرح أساساً ؟ إنه قادر على اخراج رؤياه بطريقة غير شائعة ، لكنها في متناول الجميع . كل حياتي أمضيتها وأنا أدق أبواب الغرف التي كان تاركوفسكي يتحرك داخلها بحرية وطبيعية ، وقد استطعت أن أدخل اليها أحياناً ، لكن معظم جهودي الواعية انتهت الى فشل محرج ، كما حدث في أفلام (بيضة الثعبان) و (اللمسة) و (وجهاً لوجه) وغيرها .

كذلك يتحرك فيليني وكوروساوا وبونويل في العوالم نفسها مثل تاركوفسكي . أما انطونيوني فكان في طريقه الى ذلك لكنه انتهى وتعمد نتيجة مله الذاتي . أما ميليس فكان حاضراً هناك على الدوام ، فهو ساحر بمهنته .

الفيلم كالحلم ، الفيلم كالموسيقا . . . لا يوجد أي نوع من الفنون له قدرة الفيلم على النفاذ الى ما وراء الإدراك العادي ولامسة العواطف في أعماق الروح . ارتعاش في عصب العين ، أثر صدمة : أربعة وعشرين لقطة مضاءة في الثانية يفصل بين كل واحدة منها خط أسود لا تستطيع العين التقاطه .

عندما أمرر شريط الفيلم لقطة لقطة على طاولة المونتاج ينتابني إحساس السحر الذي كان يراودني في طفولتي ، في عتمة خزانة الثياب ، وأنا أدير ببطء لقطة وراء لقطة ، فأرصد كل التفيرات التي تحدث ، وما أن أدير الآلة بسرعة حتى أرى الحركة .

ظلال الأشخاص الصامتين أو المتكلمين تتحرك دون مراوغة تجاه
أكثر غربي سرية ، رائحة المعدن الساخن ، الصور المرتعشة ، خشخشة
الصليب المالطي ، ويدي التي تمسك بمقبض الباب .

* * *

قبل ان تكفهر سماء حياتي بظلمة سنوات سن البلوغ ، كنت قد عشت قصة حب سعيدة خلال ذلك الصيف الذي أمضيته مع جدتي في فارموس .

لا اذكر سبب بقائي هناك ، لكنني اذكر احسناسي بالسعادة والطمأنينة والأمان . كان الضيوف يترددون علينا أحيانا فيقيمون لايام قليلة ثم يفادرون بعد أن يعزوزوا بهجتي . ورغم أنني كنت لا ازال طفلا الا ان جدتي ولالا كانتا تعاملانني كشاب ، فالى جانب المشاركة الاجبارية في الواجبات المنزلية مثل قطع الأخشاب وجمع الصنوبر وتجفيف الصحون وحمل الماء ، كان يسمح لي بأن اتجول بحرية ، فكنت أفعل هذا وأستمع بوحديتي . لقد تركتني جدتي بسلام مع أحلامي . كانت احاديثنا الصريحة وقراءاتنا بالصوت العالي لانزال مستمرقني الأمسيات . لقد مارست حرارتي في اتخاذ القرارات بطريقة لم أعرفها من قبل ، كذلك لم يكن التقيد الصارم بالمواعيد أمرا هاما ، فعندما كنت أتأخر على الوجبات ، كنت أجد دائما شطيرة وكأس حليب في مكان حفظ الطعام .

القاعدة الوحيدة التي لم تكن تقبل التردد كانت الاستيقاظ المبكر، حيث يصدح البوق في السابعة صباحاً ، دون تمييز بين الاحاد وأيام الأسبوع الأخرى ، وكانت جدتي شخصياً تشرف على العملية . أما انتهاك حرارتي الذي كنت انحمله برباطة جأش ودون فهم ، فهو الاظافر والاذان النظيفة ، فقد كانت جدتي تعتقد بأن النظافة الخارجية تحافظ على الامور الروحية وتقويها .

لم اكن أعاني من اية مشاكل بعد ، وكانت تخيلاتى الجنسية مسهبة وربما تتلاشى تحت غطاء من الاحساس بالذنب ، ولم اكن قد اقتربت خطيئة الشباب الرهيبة ، بل كنت بريئاً بكل المعاني ، وكان ستار الاكاذيب الذي ارهقني في بيت والدي الكاهن قد سقط ، ووجدت نفسي اعيش بحرية يوماً بعد يوم دون الاحساس بالخوف والذنب . كان العالم مفهوماً واستطعت أن اسيطر على اجلامي وواقعي . لم يفضب الرب مني ، ولم يعذبني المسيح بدمه ودعواته الضيائية المظلمة .

لا اعرف متى بالضبط دخلت مارتا الى كل هذا . كان ثمة عائلة من فالون ، تستأجر كل صيف ، وعلى مدى سنوات طويلة ، الطابق العلوي ، فوق قاعة تستخدم في الشتاء لدروس تثقيفية وعرض سينمائية . كانت السكة الحديدية تشق طريقها على بعد أمتار قليلة من البناء ، وقريبا منها كان يوجد حوض سباحة ، وفي أسفل المنحدر منشرة عائمة جرفها النهر . وكان المكان مليئاً بالطفيليات التي كانت تلتقط وتباع لعالم كيميائي محلي ، وكانت رائحة الأخشاب المقطوعة حديثاً والتي جففتها اشعة الشمس الدافئة تطفو فوق كل شيء .

كان شقيقي قد وجد أصدقاء له من عمره وسط أشقاء مارتا . كانوا فظين وعدوانيين ومحبين للمشاكل ، ترافقوا مع اطفال آخرين يسكنون في الجانب الجنوبي القرية ، وقاموا بتحدي أشقياء القرية وتعاركوا معهم بالعصي والحجارة . أما أنا فقد بقيت بعيداً عن طقوس معاركهم لانه كان يكفيني الدفاع عن نفسي ضد شقيقي الذي كان يضربني متى يشاء .

ذات يوم صيفي حار أرسلتني لالا الى مخزن حبوب بعيد يقع وراء المرج على الضفة الأخرى للنهر ، حيث كانت تعيش عجوز تدعى ليز - كولا ، المعروفة بالعمة . كانت شخصية غامضة يحترمها الناس لخبرتها الطبية وجبنتها الممتازة . وكانت تعاني من امراض عقلية لعدد من السنوات وبدلاً من ارسالها الى مأوى خاص في ساتر ، وخوفاً من

العار الذي قد يلحق بالعائلة ، تم حبسها في علية بالمرزعة وبقي عويلها يتردد في القرية كلها . وذات يوم ، وجدوها تقف قريباً من فارموس ، تحمل منديلا بين يديها ، كأنه صينية ، ثم طلبت من جدتي أن تضع لها في المنديل أربعة كرونر ، وإذا لم تعطها فانها سوف تضع ركاماً من الأغصان المقطوعة والمليء بالأفاعي التي سوف تهاجم أقدام الأطفال العارية . فقامت جدتي بدعوته للدخول ، وأعطتها بعض الطعام والمال ، فدعت أن يباركنا الله . ومدت لسانها لشقيقي ثم اختفت .

وفي يوم شتوي بارد حاولت أن تفرق نفسها في منطقة غرادا لكن رجال المدينة قاموا بانقاذها ، ومنذ ذلك اليوم أصبحت هادئة وواعية لا تتحدث إلا قليلا ، واعتزلت في مخزن الحبوب ، تحيك الثياب وتحضر ادوية من الاعشاب تعتبر أكثر فعالية مما يعدّه الطبيب المحلي .

وكما ذكرت ، كان يوماً حاراً عندما ذهبت إليها . . سبحت في المياه السوداء والباردة دائماً في بحيرة تعتبر بلا قاع ولها قنال تحت الأرض غير مكتشف بعد ، يقود الى النهر ، وقد حاول أحد الصبية عبور هذا القنال ، ثم وجدت جثته بعد أشهر مع مجموعة أخشاب في استوكهولم ، وكانت معدته مليئة بأسمك الانقليس التي كانت تخرج من فمه ومؤخرته .

سرت في الطريق المحظور عبر المستنقع . كانت الرائحة نتنه والمياه البنية تبقبق بين قدمي وقد تبعثني سحابة صغيرة من الذباب .

كان مخزن الحبوب يقع عند طرف الغابة ، أسفل التل حيث تنحدر الأرض العشبية الى الجنوب . وكانت الحظيرة وبيت السكن والمخزن بحالة جيدة وقد طليت جميعها بالأحمر وسقفت حديثاً بالأجر القرميدي . وكانت عائلة ليز - كولا من المزارعين الجيدين ، وبعد أن عادت إلى رشدها لم يعد شيء يرضيها .

كانت ليز - كولا امرأة طويلة شعرها رمادي وعيناها زرقاوان غامقتان وكان وجهها يوحى بالقوة من خلال فمها العريض وأنفها الكبير وجبهتها

الواسعة وأذنيها الناتئتين . وجدتها تقف خارج المخزن تقطع الأخشاب ،
ومارتا تقف الى جانبها ممسكة بالطرف الاخر من المنشار .

كانت مارتا تتردد على مخزن الحبوب فتساعد ليز - كولا في رعاية
الحيوانات وشؤون أخرى ، لقاء اجر بسيط .

قدمتا لي شطيرة وعصير عنب أسود ، فجلست على طاولة قرب
النافذة ، في حين انهمكتا في تنقية القهوة عند موقد النار . كانت نفوح في
الغرفة الضيقة والحارة رائحة حليب فاسد وكان الذباب يملأ المكان .
سألتنى ليز - كولا عن صحة السيدة نيلسون والسيدة اكريلوم ، فأجبتها
بأنها جيدة ، ثم قامت بوضع قالب الجبن في حقيبة أحملها على ظهري
فصافحتها ، وانحنيت احتراماً وشكرتهما على الضيافة وقلت لهما الى
اللقاء . ولسبب مارافقتني مارتا بعض الطريق .

ورغم أننا كنا في سن واحد لكنها كانت أطول مني . عريضة بارزة
العظام وشعرها القصير قد ابيض من الشمس والسباحة . كانت شفتاها
رقيقتان وفمها عريض ، وعندما تضحك يخيل إلي أن طرفي فمها يصلان
الى أذنيها كاشفين عن أسنان بيضاء قوية . وكانت عيناها زرقاوان
شاحبتان وتبدو الدهشة دائماً في نظراتها ، وأنفها طويل ومستقيم مع
انتفاخة صغيرة في نهايته . وكانت تتمتع بكتفين هائلين ، وتفترق الى الورك،
وقد أحرقت الشمس ذراعيها وساقها الطويلين . أما رائحتها فكانت
تشبه رائحة حظيرة الإبقار ، وقد بهت لون ثوبها الاصلي وتلطم ببقع
المرق الداكنة تحت ابطيها وعند كتفيها .

كان الحب فورياً وصاعقاً - تماماً مثل روميو وجوليت - مع فارق
وحيد بأننا لم نفكر في أن يلمس أحدهنا الآخر ، أو حتى يقبله .

وبحجة القيام بالواجبات المطلوبة صرت اختفي في فارموس منذ
الصباح الباكر ولا أعود الا بعد الغروب . واستمر هذا الحال لانام عدبة

الى ان سألتني جدتي ذات يوم فاعترفت لها . كانت حكيمة في ردة فعلها
اذ سمحت لي ان اتغيب في التاسعة صباحاً حتى التاسعة مساءً .
وأخبرتني أيضاً أنها ترحب بمارتا في أي وقت ، لكننا لم نتردد سوية على
فارموس اذا أن شقيق مارتا الاصغر قد انتبه الى ما بيننا . وذات يوم
تجرانا على النزول الى جيما لاصطياد السمك وجلسنا قريبا من بعضنا
البعض دون ان نتلامس عندما ظهرت مجموعة من الأولاد الصفار وهم
ينشدون أغنية مسيئة لنا . فهجمت عليهم وضربت احدهم ، لكنهم
تكاثروا علي وأشبعوني ضرباً . ولم تأت مارتا لنجديتي . ربما أرادت أن
ترى هل بإمكانني أن اخلص نفسي أم لا .

لم تكن تتكلم ، ولم يلمس احدنا الآخر أبداً ، وكنا نجلس أو نرقد
أو نقف بشكل قريب ، نلحق جراح الآمنا ونحك لساعات البعوض . نسبح
بخجل في كل الأحوال الجوية دون أن يلاحظ أحدنا عري الآخر . وصرت
أساعدها قدر الامكان في أعمالها بمخزن الحبوب دون أن أجرؤ على
الاقتراب من الإبقار . أما كلب الصيد فكان يراقبني بغيرة ويعض قدمي
باستمرار . احيانا كانت العجوز توبخ مارتا إذ لم تكن تقبل أي تقصير
في الواجبات ، وقد ضربتها على أذنيها ذات مرة فبكت مارتا وهي
تستشيط غضباً ، أما أنا فكننت عاجزاً عن مواساتها .

كانت هادئة ، وكنت أنا المتحدث دائماً . كذبت عليها وأخبرتها بأن
والدي هذا ليس والدي الحقيقي ، وأنني ابن ممثل مسرحي مشهور
يدعي اندرس دي قال ولهذا فان الكاهن برغمان يكرهني ويضطهدني
دائماً وهذا امر مفهوم . وأخبرتها أيضاً أن أمي لا تزال تحب اندرس
دي قال وتذهب الى كل عروضه الاولى ، وقد سُمح لي
أن التقى به مرة خارج المسرح ، فنظر الى بعينين دامعتين وقبلني في
جيبني وهمس لي بنبرة شجية : « ايباركك الله يا طفلي العزيز » . وأخيراً
قلت لها إن بوسعها أن تسمع صوته في الراديو عندما يقرأ (أجراس العام
الجديد) . وإن اندرس دي قال هو والدي فعلاً وعندما سأترك المدرسة
سوف أعمل ممثلاً في المسرح الدرامي الملكي .

سحبتُ دراجة جدتي القديمة ومضينا بها عبر جسر السكة الحديدية
نتمايل ونفترج على طرقات الغابة في الاسفل . كانت مارتا تقود الدراجة
وأنا أجلس على الحامل الخلفي متشبهاً به بأصابعي ، وكنا ذاهبين
لحضور موعظة في لانهدن، فقد كانت مارتا مؤمنة حقيقية وتشد باستمرار
أغاني الأمل الدائم بصوت خافت ، في حين كنت أنا غير قادر على اخفاء
كرهي لهذا . كنت أكره الله والمسيح ، وخصوصاً المسيح بنبرة صوته
الثائرة وعشائه الرباني المؤجل ، ودمه . هل الله موجود؟ لا أحد يستطيع
إثبات ذلك . يكفي أن يقرأ المرء العهد القديم حتى يكتشف أن الله اذا
كان موجوداً فهو بشع ، غير مسامح ، ومنحرف ، وهو المفترض أن يكون
رب الحب الذي يحب الجميع . إن بوسعهم الاحتفاظ به . أما العالم
فليس سوى حفرة خراء ، كما يقول سترندبرغ .

كان القمر بدرأً أبيض فوق التلال ، وثمة غشاوة ساكنة تغطي الأشياء
كلها ، وكان الصمت سيكون مطبقاً لو أنني لم أكن أتحدث كثيراً . وفجأة
وجدت نفسي أترف لمارتا بأنني أخشى الموت . كان قد توفي كاهن عجوز
في الأبرشية ، وفي يوم دفنه ، كان يرقد في الثابوت المفتوح والضيوف
يشربون النبيذ ويأكلون الكعك في الفرفة المجاورة . كان الطقس حاراً
والذباب يحوم حول الجثمان ، وقد غطي الوجه بقطعة قماش بيضاء ، إذ
أن مرض العجوز كان قد أتى على فكه السفلي وشفته العليا ، وكانت
هناك رائحة نتنة اختلطت بشذى الأزهار . وفجأة تحرك الكاهن الملعون
في نعشه واتخذ وضعية الجلوس وخرق قطعة القماش كاشفاً عن وجهه
المتعفن ، ثم هوى جانباً فمال النعش وسقط على الأرض . وقلت لمارتا :

« إنها حقيقة يامارتا ، كنت هناك بنفسني ، وإذا لم تصدقيني فأسألي
شقيقي لقد كان هناك أيضاً ، لكنه فقد وعيه . ان الموت مخيف . لاتعرفين
ماذا سيأتي بعده . أما تلك القصور الفخمة التي تحدث المسيح عنها
فأنا لا أؤمن بها . شكراً ، انها ليست لي . إن الموت رعب لامفر منه ،
ليس لأنه يؤلم ، بل لأنه مليء بأحلام موحشة لا يستطيع أحد أن
يستيقظ منها » .

كان يوماً مطراً ، ذهبت ليز - كولا لمعالجة امرأة تعاني من آلام في المعدة وبقيت أنا ومارتا في الغرفة الضيقة الحارة . كان المطر ينقر على زجاج النافذة ويخشخش على السطح ، عندما قالت مارتا : « سوف ترى ، إن الخريف قادم بعد هذا المطر . . » . وفجأة أدركت أن ماتبقى لنا أيام معدودة ، وأن هذه الأبدية التي عشناها قد اقتربت نهايتها وبنات الفراق وشيكاً . انحنت مارتا على الطاولة ، وكان لتنفسها رائحة الحليب ، وقالت : « إن قطار البضائع يفادر بورلانغ في السابعة الا الربع . أستطيع سماع صوته عندما يفادر ، وعندئذ سوف أفكر بك ، وعندما تراه يعبر فارموس يجب أن تفكر بي » .

مدت يدها العريضة ذات الأظافر المتسخة ، فوضعت يدي عليها .
اخيراً توقفت أنا عن الكلام إذ دفعني الى الصمت إحساس بالحزن . . .
قاهر .

جاء الخريف واضطربنا لارتداء الجوارب والأحذية ، وساعدنا بجمع نبات اللقت ، ثم جاء الصقيع وتجمد كل شيء في الهواء والأرض ، وغطت طبقة جليد سميقة البركة خارج البناء حيث بدأت والدة مارتا تحزم الأمتعة . احتدت الشمس في منتصف النهار ، ثم بردت عند المساء . كانت الآلات بدأت بحراثة الحقول ، كنا نحب تقديم المساعدة لكننا كنا نتصرف غالباً وحدنا . وذات يوم استعرنا قارب بيرغلوند وذهبنا لصيد سمك الكراكي . اصطدنا واحدة كبيرة عضت أصبعي ، ولكن عندما فتحتها لالا لتنظفها ، وجدت بداخلها خاتم زفاف رائعا ، قرأت جدتي اسم كارين محفورا عليه ، وكان والذي قد أضع قبل سنوات خاتمه في منطقة جيما ، لكنه لم يكن بالضرورة الخاتم نفسه .

وذات صباح بارد وجاف ، أرسلتنا جدتي الى مخزن القرية الواقع بين دوفناس ودجورمو ، فأوصلنا في طريقه ابن بيرغلوند الذي كان متجها الى القرية لبيع حصان عجوز . كانت الرحلة بطيئة وصعبة بسبب الطريق الموحل المليء ببرك الماء ، فانشغلنا بعد السيارات التي

كانت تمر على الطريق نفسه ، ووصل عددها بعد ساعتين الى ثلاث سيارات . وفي المخزن حزمنا حمولتنا وقفلنا عائدتين سيرا على الأقدام ، وعندما وصلنا الى مكان المعدية جلسنا على جذع شجرة سوداء وشربنا عصير تفاح والتهمنا الشطائر التي معنا . حدثتُ مارتا عن طبيعة الحب وقلت لها انني لا أومن بالحب الابدي ، وأن الحب البشري ذو نزعة انانية وقد ذكر سترندبرغ ذلك في مسرحية (البجع) . وقلت ان الحب بين الرجل والمرأة هو في اغلب الأحيان فسق ودعارة ، واخبرتها عن سيدة جميلة كانت تمارس الحب مع والدي في غرفة مقدسات الكنيسة بعد طقوس التبادل كل مساء خميس .

انتهى عصير التفاح وألقت مارتا الزجاجاة بالنهر ، في حين بدأت أنا أروي لها قصة حب مأساوية من الأدب ، واستعرض أمامها معرفتي . وفجأة أحسست بالاحباط والدوار . وسألت مارتا بشيء من الحرج فيما اذا كانت تعتقد أنني أتكلم أكثر من اللازم ، فأجابت بالنفي وهزت رأسها بحزن . التزمت الصمت بعد ذلك ، وتساءلت هل ألقى قصة حول تجاربي الجنسية ، لكنني سرعان ما بدأت أشعر بالمرض وخطر ببالي أن يكون عصير التفاح مسموما . استلقيت على المنحدر العشبي ، وبدأت قطرات مطر بارد تتساقط ، واختفت ضفة النهر المقابلة وراء ستار من الضباب .

وذاذ ليلة هطل الثلج واسود لون ماء النهر أكثر من أي وقت مضى واختفت كل الألوان الخضراء والصفراء وساد الصمت في كل مكان . كان البياض يتألق عندما مشينا عائدين الى حيث كانت مارتا تقيم مع أهلها . لم نستطع أن نتفوه بكلمة ، ولم نجرؤ على تبادل النظرات فقد كان الألم لا يطاق . تصافحنا وقلنا الى اللقاء ، إذ ربما نلتقي في الصيف المقبل .

استدارت وركضت مبتعدة تجاه المنزل ، أما أنا فمضيت عائدا الى فارموس عبر جسر السكة الحديدية ، وكنت أفكر لو أن قطارا سوف يمر الآن من هنا فانه سوف يمر من فوقني تماما .

استؤنفت البروفات على مسرحية سترندبرغ (رقصة الموت) يوم الجمعة ٣٠ كانون الثاني عام ١٩٧٦ ، بعد أن توقفت لفترة بسبب مرض اندرس إيك الذي استرد عافيته بعد أسابيع وأعلن أنه مستعد للعمل من جديد .

خلال هذا التوقف غير المتوقع ، عملت على سيناريو (مكان الجنة) بالاشتراك مع الكاتبة أولا ايزاكسون والمخرج غوتيل ليندبلوم . وكانت شركتي سينما توغراف هي التي ستنتج الفيلم حيث سيبدأ التصوير في شهر أيار . انشغلنا بالتحضيرات وتوقيع العقود واختيار أماكن التصوير . وكنت قد انتهيت من مسلسل التلفزيوني (وجهها لوجه) وسيعرض قريبا على مجموعة من المنتجين الأمريكيين ، وقبل أشهر معدودة أنجزت سيناريو (بيضة الثعبان) الذي سينتجه دينو دي لاورنتيس .

ببطء وتردد بدأت التفت صوب أمريكا ، لما فيها من مصادر غنية لي ولشركتي . وكانت فرص العمل على أفلام ذات نوعية تتزايد بشكل حاد ، يمولها الأمريكيون ويخرجها مخرجون أجانب . بدوري لم انجح تماما في أن أكون منتجا جيدا ، وكانت شركتي سينماتوغراف تقوم على عمودين توءمين ، كانا صديقين حميمين لي لمدة سنوات طويلة ، وهما لارس - أوكارلبرغ [الذي بدأ تعاواني معه في عام ١٩٥٣ بفيلم (الليلة العارية)] ، وكان يتولى أمور الإدارة ، بالإضافة الى كاتينكا فاراغو ، التي عملت معها عام ١٩٥٤ بفيلم (رحلة الى الخريف) والتي كانت تشرف على فعاليات التصوير . استأجرنا الطابق العلوي في بناء جميل يعود الى

القرن الثامن عشر ، وكان يضم مكتبا فسيحا وغرفة عرض وغرف
مونتاج ومطبخاً ، ويسوده جو منزلي .

منذ شهر أو أكثر قام بزيارتنا رجلان، دمثان من مصلحة الضرائب
واخذنا يراجعان كشوف حساباتنا ، ثم عبرا عن رغبتهما في الاطلاع على
دفاتر شركتي السويسرية برسونا فيلم ، وعلى الفور كانت الدفاتر
المطلوبة تحت تصرفهما .

تابع الرجلان عملهما دون أن يزعجهما أحد . ووفقا ليومياتي فان
مذكرة مصلحة الضرائب وصلت الينا يوم الخميس ٢٢ كانون الأول ،
فلم أقرأها وأرسلتها الى محامي .

قبل بضع سنوات ، ربما عام ١٩٦٧ ، وعندما بدأت أموري المادية
تسير على نحو مفرح طلبت من صديقي هاري شين أن يجد لي محاميا
شريفيا يستطيع رعاية مصالحني المادية ، فوقع اختياره على محام شاب
ذي سمعة طيبة هو سثن هارلد باور الذي كان بالاضافة الى عمله ،
يتمتع بمنصب عالي في حركة الكشافة العالمية .

سارت الأحوال معه جيدة ، كذلك كانت مع المحامي السويسري
الذي يشرف على برسونا فيلم ، وازداد نشاطنا ، فأنتجنا (صرخات
وعمسات) (مشاهد من حياة زوجية) (دفاع رجل مجنون) و (الناي
السحري) .

في يوميات ٢٢ كانون الثاني لا أبدو قلقا على مذكرة مصلحة الضرائب
بقدر قلقي من الاكزيما المؤلمة التي تفشت فجأة في أحد أصابع يدي
اليسرى .

كان قد مضى على زواجي من انغريد خمس سنوات ، وكنا نعيش
في بناء حديث بشارع كارلا بلان ، في الموقع نفسه حيث كان يقوم بيت
سترنديبرغ في الماضي .

عشنا حياتنا على النمط البورجوازي ، فكنا نلتقي الأصدقاء باستمرار ونتردد على المسارح والحفلات الموسيقية ونشاهد الافلام ونعمل حسب ذوقنا .

وفيما يلي خلفية صغيرة لما حدث بتاريخ ٣٠ كانون الثاني وما بعده، مع العلم أنني لم أكتب في يومياتي ما حدث في الأشهر التالية ، إلا بشكل متقطع وبعد مرور سنة كاملة . لذلك فان ما سأكتبه الآن هو خلاصة أحداث وصور أذكرها من خلال تركيز شديد تغطيه غشاوة الشيخوخة .

بدأنا بروقات (رقصة الموت) كالمعتاد في التاسعة والنصف صباحا وكان يعمل معي أندرس إيك ومارغريتا كروك وجان أولف ستراندبرغ ، بالإضافة الى الملقن ومساعد الانتاج ومدير المنصة . كنا سعداء وأضواء الدراماتن فوقنا .

كان العمل يتقدم بطريقة سهلة ومريحة ، مثلما يحدث عادة في بداية البروقات ، عندما فتح الباب ودخلت مارغوت ويرستروم ، سكرتيرة مدير المسرح ، وطلبت إلي أن أتوجه فورا الى غرفتها حيث يوجد رجلان من الشرطة بانتظاري . قلت لها ربما يحتسيان بعض القهوة ويعودان للقائي في الساعة الواحدة أثناء فترة الاستراحة ، لكنها أجابني بأنهما يريدان التحدث الي فورا ، وعندما سألتها عن سبب هذا كله أجابت بأنها لا تعرف . ضحكنا مندهشين من الموقف وطلبت من المثلين أن يتابعوا البروقات على أن نلتقي في الواحدة والنصف ، بعد الغداء .

توجهت مع مارغوت الى غرفتها ، خارج مكتب المدير ، حيث كان يجلس رجل في معطف فاتم اللون ، وعندما رأيته نهض وصافحني وعرفني بنفسه . سألته عما يحدث ، ولم هذه العجلة للقائي ، فأجابني أن الأمر متعلق بشؤون الضرائب وأنه يجب علي الذهاب معه لاجراء التحقيق اللازم . حدثت به كالأبله وقلت له : إنني لم أفهم شيئا ، وهذه هي الحقيقة ، ثم تذكرت فجأة أن الناس الذين يتعرضون لمواقف

مشابهة (في الأفلام الأميركية) يطلبون استدعاء محاميهم فوراً . فأخبرته بضرورة وجود محاميّ معي أثناء التحقيق وانني سأتصل به ، فاعترض الشرطي قائلاً بأن محاميّ متورط هو الآخر في القضية نفسها وقد استدعي وتم التحقيق معه . عندئذ طلبت منه يأساً أن أذهب الى غرفتي لأحضر معظفي فوافق قائلاً « حسناً سوف آتي معك » . وفي الطريق الى الغرفة التقيت عدداً من الأشخاص الذين كانوا ينظرون بدهشة الى الرجل الغريب الذي يسير خلفي تماماً ، ثم قابلت أحد زملائي في ممر المنتجين ، فسألني مستغرباً : « ألسنت في البروقات » ؟ فقلت له : « لقد امتقنني رجال الشرطة » . وعندئذ انفجر زميلي ضاحكاً .

عندما ارتديت معظفي هاجمتني فجأة تشنجات حادة في المعدة ، فقلت للشرطي : انني يجب أن أذهب للحمام . فقام الشرطي بتفتيش الحمام ومنعني من اغلاق الباب . وفي الحمام عانيت من دفعات اسهال ذات صوت مرتفع ، في حين كان الشرطي يقف وراء الباب النصف مفتوح .

وأخيراً ، كنت على استعداد لمفادرة المسرح ، لكنني بدأت أشعر بالمرض وأرثي بصمت افتقادي موهبة الغياب عن الوعي . وأثناء مفادرة المسرح قابلت عدداً من الممثلين في طريقهم الى الغداء ، فبادلتهم التحية بكأبة ، ولاحظت التساؤل المرسوم على وجه الفتاة المشرفة على لوحة المفاتيح الكهربائية .

وعندما خرجنا الى شارع نيبروغاتن أقبل شرطي آخر وحياني ، بعد أن كان يرصد المخرج المؤدي الى شارع اللوفاسفاتن ، خشية من هربي .

كان المحقق كنت كارلسون من مصلحة الضرائب قد أوقف سيارته خارج المسرح (أو ربما كان ذلك زميله ، لم أستطع أن أميزها ، فكلاهما كان مترهلاً ، يرتدي قميصاً عليه رسوم أزهار ، بشرته قدرة وأظافر يديه متسخة) . ركبنا السيارة وانطلقنا . كنت أجلس في المقعد الخلفي

بين شرطين ، في حين تولى المحقق كارلسون (أو زميله) القيادة . وكان أحد الشرطين ذا روح طيبة فأخذ يروي القصص ويضحك . طلبت منه ان يصمت فأجاب بقليل من الحرج انه كان يود تلطيف الجو فقط .

كان مكتب مدير الشرطة في شارع قريب من كونغسولستروغ ، ولست واثقاً من هذا تماماً اذ أن الصور في حالتي تلك ، قد بدأت تضمحل وغابت الاصوات شيئاً فشيئاً .

اقبل رجل مسن وهو يتسم وقدم لي نفسه ووضع امامي مجموعة من الاوراق حتى اراجعها . أحسست بجفاف في فمي وحنجرتي ، فطلبت كأساً من الماء وشربته بيد مرتعشة وقد ضاق تنفسي . في الطرف الآخر من الحجرة (التي بدت بلا نهاية) تجمع عدد من الاشخاص الجالسين ، كانوا خمسة او ستة ، ثم اخبرني المفوض بأنني كنت قد قدمت تصريحات كاذبة حول شؤوني المالية وأن شركة برسونا فيلم ، مشروع باطل قانونياً ، فأجبتة بأنني لم اكن اقرأ تصريحاتي ، وليست لدي أية نية لاختفاء النقود عن الدولة . تابع المفوض أسئلته ، وأخبرته بأنني طلبت من اشخاص آخرين متابعة اموري المالية والاشراف عليها لأنني لست كفوئاً ولن اتورط بالمجازفة في مثل هذه الامور وهذا ليس من طبعي أبداً ، واعترفت بكامل ارادتي أنني وقعت على أوراق لم أقرأها ، ولو أنني قرأت شيئاً منها فلم اكن لأفهمه على أية حال .

في كل هذه القصة البائسة - التي استمرت عدة سنوات وكلفتني نفقات باهظة ، بالاضافة الى بقائي خارج البلاد لمدة تسع سنوات ، ووجوب دفع ضريبة بلغت ١٨٠.٠٠٠ كرونر - كنت مذنباً في أمر واحد فقط ، وهو أنني وقعت على اوراق لم اكن أقرؤها او أفهمها . وبهذه الطريقة فقد ساهمت بعمليات مالية لم تكن لدي أية فكرة عنها ، ولا القدرة للاشراف عليها . كان يؤكد لي باستمرار أن كل شيء يسير بشكل قانوني فاذا لم اكن أفهم ما يحدث ، ولم يكن محامي اللطيف ، قائد الكشافة العالمي ، على اطلاع بعمله ، فان عدداً من الصفقات قد تمت بطريقة غير

صحيحة ، وهذا ما اثار شكوك مصلحة الضرائب وزودها بأسباب جيدة ، حتى أعتقد المحقق كارلسون وزميله أنهما وقعا على فريسة كبيرة هذه المرة ، فقام المدعي العام الجاهل والمحتار باطلاق أيديهما في القضية بحرية مطلقة ، خوفاً من أن أهرب من البلاد وأخرج السلطات .

أنقضت الساعات ، وبدأ الرجال الجالسون في الطرف الآخر من الغرفة الواسعة يخفون واحداً بعد واحد . التزمت الصمت ، سوى أنني كنت أهمس بين الحين والآخر بأن هذه كارثة كبيرة ، ولفت انتباه المفوض أنها قد تكون قصة للصحافة والاعلام . فهداني قائلاً : إن حديثنا سري للغاية ، وإن التحقيق يجري في هذا المركز بالذات بعيداً على ادارة الشرطة العامة لتحاشي اثاره أي اهتمام غير ضروري . سأنته اذا كان بإمكانني أن اتصل بزوجتي ، لكنه رفض ، فقد كانوا يفتشون شقتي في هذه اللحظة بالذات تماماً . رن جرس الهاتف ، وكان المتحدث صحفياً من جريدة سفنسكا داغبلات ، فارتبك المحقق وطلب اليه الا يكتب شيئاً عن الموضوع . بعد ذلك اخبرني أنني ممنوع من السفر وانهم سوف يصادرون جواز سفري ، ثم قدم لي ورقة فوقعتها دون ان أعرف محتوياتها لانني لم أعد أفهم أي شيء يقال لي .

نهضنا ، وربت المحقق على كتفي وحثني على متابعة العيش والعمل كالمعتاد ، لكنني قلت له ان هذه كارثة كبيرة . ألم يكن بوسعه أن يفهم أنها كانت كارثة كبيرة فعلاً ؟

وأخيراً وجدت نفسي في الشارع من جديد . كان الثلج يتساقط بهدوء والظلام يخيم تدريجياً ، وكان كل شيء واضحاً ، بالابيض والاسود ، دون ألوان ، قاسياً مثل نسخة مصورة . كانت أسناني تصطك وكل مشاعري وأفكاري مخدرة ، استقلت تاكسي الى المسرح حيث تركت سيارتي .

وعندما عدت الى البيت وجدت انفريد بانتظاري . لقد فاجؤوها بتفتيش الشقة ، وكان رجال الشرطة مهذبين معها ، لكنهم صادروا بعض الملفات . وبعد خروجهم جلست وانتظرت ، وعندما طال الانتظار أعدت كعكاً .

اتصلت بهاري شين وسفي هارلد باور ، فوجدتهما في حالة من الصدمة والحيرة . أما ما حدث لاحقاً في تلك الامسية فلا أذكرها تماماً . هل تناولنا العشاء ؟ ربما . هل شاهدنا التلفزيون ؟ ربما .

في وقت متأخر من هذه الامسية وبعدما ذهبنا الى الفراش ، خطر ببالي أن وسائل الاعلام سوف تحاصر البيت في الصباح التالي ، فحزمت بعض الامتعة الضرورية واتجهت الى الشقة الصغيرة في غريفتورغاتن التي كنت قد انتقلت اليها أنا وغان بعد عودتنا من باريس في خريف عام ١٩٤٩ ومنذ ذلك التاريخ كنت الجأ الى هذه الشقة كلما اعتريني الكوارث أو انهيار زواج ما وصعوبات أخرى .

وصلت اليها في منتصف الليل تقريباً ، ومنحني احساس العزلة فيها احساساً آخر بالامان ، فتناولت قرصاً منوماً وغفوت .

لم اعد اذكر ما حدث يومي السبت والاحد ، سوى أنني كنت أغلق الباب على نفسي في شقة غريفتورغاتن ، واتسلل الى البيت في المساء عن طريق الكراج دون أن يراني أحد ، فأمضي بعض الوقت وأعود للشقة .

انتشر الخبر في التلفزيون وعلى صفحات الجرائد الاولى . ورفض ابني ذو الاتني عشر عاماً أن يذهب للمدرسة بعد أن تملكه الغضب ، فاعتزل في غرفة آلات العرض بسينما رواد كفارون مع صديقه الذي يعمل هناك والذي كان مؤيداً مستمراً له في كل ما واجهه من صعوبات لاحقاً . لا أدري كيف واجه ابنائي الآخرون القضية نفسها لانني لم أكن أراهم ، لكن معظمهم كان ينتمي الى مجموعات يسارية ، واكتشفت في وقت لاحق أنهم كانوا مقتنعين بأنني مذنب .

حدث الانهيار صباح الاثنين... كنت جالساً في الغرفة الكبيرة بالطابق الاول للمنزل ، اقرأ كتاباً وأسمع موسيقا ، في حين كانت انغريد قد ذهبت للقاء بعض المحامين . لم أكن أشعر سوى بآثار التخدير التي خلفتها الاقراص المنومة والتي لم أكن معتاداً على تعاطيها .

توقف شريط الموسيقى مصدراً تكة صغيرة ، وساد الصمت ، ونظرت فشاهدت الثلج يتساقط ويتراكم على أسطحه الابنية المقابلة . توقفت عن القراءة . وكنت أجد صعوبة في استيعاب ما أقرؤه . كان الضوء في الغرفة حاداً دون ظلال . دقت الساعة عدة مرات . ربما كنت نائماً ، وربما اجتزت الخطوة من واقع الاحاسيس المتلقاة ، الى واقع آخر . لم أكن أعرف شيئاً ، ووجدت نفسي في فراغ عميق وساكن خالٍ من الآلام والمشاعر . أغلقت عيني ، او ربما خيل الي ذلك ، وشعرت عندئذ بوجود أحد ما في الغرفة ، ففتحت عيني ورأيت نفسي اقف على بعد امتار قليلة من الضوء الحاد ، انظر الى نفسي. كانت تجربة مركزة لا تقبل الجدل... لقد كنت واقفاً على البساط الاصفر انظر الى نفسي جالساً على الكرسي وكنت جالساً على الكرسي انظر الى نفسي واقفاً على البساط الاصفر . وكنت أنا الجالس على الكرسي مسؤولاً عن ردود الافعال . لقد كانت النهاية ، وليس هناك طريق للعودة ، لقد سمعت نفسي تتحب .

مرة أو مرتين في حياتي كلها ، راودتني فكرة الانتحار ، وفي شبابي أقدمت على محاولة فاشلة ، لكنني لم أنظر اليها بجدية . لقد كان فضولي عظيماً وحي للحياة قوياً وخوفي من الموت لا يتزعزع .

ومع ذلك فان موقفي من الحياة كان يفترض وجود سيطرة مستمرة ولائقة على العلاقة بالواقع والتخيلات والاحلام . وعندما كانت تتعطل هذه السيطرة - وهو أمر لم يحدث لي من قبل حتى في طفولتي المبكرة - كانت أنظمتي تصاب بالخلل وتعرض هويتي للخطر ، فأسمع صوت إنيني ، يشبه ابن كلب جريح ، نهضت من الكرسي وكنت على وشك أن ألقى بنفسي من النافذة .

لم أكن أعلم أن انفريد قد عادت الى المنزل بصحبة الدكتور شتور هيلاندر . . افضل أصدقائي . بعد ساعة وجدت نفسي في العيادة العصبية بمستشفى كارولنيسكا مستلقياً على سرير في غرفة واسعة تضم عدداً من الاسرة الأخرى . وكان البروفسور المسؤول يطوف حولي ويحدثني بلطف ، فقلت له شيئاً حول الخجل والخوف . فحقتوني بآبرة وغفوت في الحال .

أمضيت ثلاثة أسابيع في هذا الجناح وأنا أشعر بالارتياح . كنا مجموعة خانعة من المخدرين الذين يتبعون نظاماً يومياً صارماً دون أي احتجاج . كانوا يعطونني خمس حبات فاليوم زرقاء في النهار وحبتي موغادون في الليل ، وعندما أشعر بأنني لست على ما يرام أطلب من الممرضة جرعة إضافية ، فأنام بعمق ودون أحلام في الليل وفي ساعات من النهار .

وبين وقت وآخر ، كنت اكتشف بما تبقى لدي من فضولي المهني ، العالم المحيط بي . كنت أعيش وراء ستار في غرفة كبيرة خالية ، أقرأ في معظم الاوقات دون أن احتفظ بما أقرؤه ، وكنت اتناول الوجبات في غرفة الطعام ، وأشارك دون اجبار في محادثات لطيفة . لم تصادفني انفجارات انفعالية باستثناء مرة واحدة عندما ثار نحات مشهور في إحدى الامسيات وحطم أسنانه . وأذكر من الناس الموجودين معي في الجناح نفسه ، فتاة حزينة كانت تشعر بضرورة غسل يديها باستمرار ، شاب رقيق طوله ستة أقدام مصاب باليرقان ، يأخذونه مرة كل أسبوع الى مستشفى اولراكر للأمراض العقلية ليحجروا عليه فحوصات مختلفة . بالإضافة الى وجود رجل عجوز حاول الانتحار بواسطة قطع شرايينه بالمنشار اليدوي ، وإمراة في منتصف العمر ذات وجه جميل وعابس ، تعاني من قلق داخلي مستمر ، فتمشي في الممرات قاطعة أميال عديدة بصمت .

في المساء كنا نتجمع ونتابع بطولة العالم في التزلج على الجليد ، على جهاز تلفزيون أبيض وأسود ، صورته مشوشة وصوته سيء . لكن أحداً منا لم يكن يعلق على الأمر .

وكانت انغريد تزورني مرتين يومياً ، فنتحدث بهدوء ومودة ،
وأحياناً نذهب الى عروض مبكرة في السينما .

لم أكن أقرأ الصحف او حتى اسمع أية برامج اخبارية . وشيئاً
فشيئاً ، وعلى نحو غير مدرك اختفى قلقي وتلاشى إحساسي بالإهانة ،
غير القابل للإصلاح ، لكن زخم ابداعي الجارف بدأ ينحسر ويغيب .

خيل إلي انني قد أصبح قضية للعلاج حتى آخر عمري ، فوجودي
كان مثيراً للشفقة ، غير متطلب . لم يعد يوجد شيء حقيقي أو عاجل ،
مؤلم أو مقلق . كنت أتحرك بحذر وكل ردود فعلي تأتي متأخرة . أما
رغباتي الجنسية فقد انقطعت تماماً وأصبحت حياتي مرثية .

ذات يوم سألت البروفسور الصديق فيما إذا كان قد شفي
أحداً ما ، ففكر بجدية ثم أجابني قائلاً : « الشفاء كلمة كبيرة » . ثم
أوماً براسه وابتسم مشجعاً . ومضت الدقائق والأيام والأسابيع .

لا أدري ماذا جعلني اخترق جدار الحيطه المحكم حولي . سألت
البروفسور فيما إذا كان بوسعي أن اذهب برحلة الى صوفياهمت ،
فوافق محذراً إياي الا اتوقف عن علاج القاليوم بشكل حاد . شكرت له
لطفه ، وودعت زملائي المرضى وتبرعت لهم بجهاز تلفزيون ملون .

في نهاية شباط وجدت نفسي في غرفة هادئة ومريحة بصوفياهمت ،
تطل نافذتها على الحديقة ، ومن خلالها كنت استطيع رؤية بيت الكاهن
الأصفر ، حيث أمضيت طفولتي . وفي كل صباح كنت أتنزه لمدة ساعة
في الحديقة .

لقد كان زمن عذابات قاسية . توقفت عن تناول القاليوم والموغادون
بسرعة احتجاجاً على تعليمات البروفسور ، وكان التأثير فورياً ،
فاشتعل القلق المقموع في داخلي ، وعاد شيطاني بفضب وساد الأرق

ليالي ثانية حتى ظننت أن أشلائي لن تلبث أن تتطاير إثر انفجار داخلي عنيف . بدأت اقرأ الصحف وأحشر نفسي في كل ما حدث أثناء غيابي ، وعاودت اتصالي مع المحامين والأصدقاء .

لم يكن الأمر شجاعة أو إحساساً باليأس ، ولكن غريزة الحفاظ على الذات ، والتي على الرغم من ، أو ربما بفضل وجودي في العيادة النفسية ، استجمعت بعضاً من مقاومتها .

شنت هجوماً على الشيطان بداخلي بواسطة نهج أثبت فعالته خلال أزمت سابقة . وكان هذا النهج يقوم على تقسيم أيامي وليالي إلى وحدات زمنية تتضمن كل واحدة منها نشاطات معدة سلفاً تتخللها فترات من الراحة . وقد استطعت من خلال اتباع هذا البرنامج بصرامة أن أحافظ على سلامة عقلي من العذابات المؤلمة . وباختصار ، فقد عدت إلى تخطيط حياتي وممارستها بعناية فائقة .

وبواسطة هذا النهج تمكنت بسرعة من إعادة ذاتي المهنية إلى وضعها الطبيعي ، وأصبحت قادراً على تقصي أسباب عذاباتي باهتمام شديد . بدأت أدون ملاحظاتي ووجدت نفسي أقترب من بيت الكاهن . وجاءني صوت هادئ من مكان ما ، مشيراً إلى أن ردة فعلي تجاه ما حدث كان مبالغاً فيها ، وكانت أقرب إلى الإذعان منها إلى الغضب ، وأنني رغم كل شيء ، اعترفت بكوني مذنباً رغم أنني لست كذلك ، وسعيت للعقاب حتى أنال الففران والراحة بأسرع وقت ممكن . وتابع الصوت بازدياد ولطف : من سيففر لك ؟ مصلحة الضرائب ؟ المحقق كارلسون بقميصه المورّد وأظافره المتسخة ؟ من ؟ أعدائك ؟ نقادك ؟ هل سيففر الله لك ويمنحك الخلاص ؟ ماذا تعتقد ؟ هل سيصدر أولف بالله والملك مرسوماً يعلنان فيه أنك قد عوقبت وطلبت الففران ، فففر لك ؟ (في وقت لاحق ، وأثناء زيارتي لباريس ، فتحت التلفزيون صدفة فوجدت أولف بالله يؤكد للجميع ، وبلغه فرنسية ممتازة ، أن قصة الضرائب مبالغ فيها وأنه صديق لي . في تلك اللحظة كرهته) .

وفجأة بدأ الغضب المكتوم والمضغوط في داخلي ، يتحرك في ممرات اعماقي المظلمة . يجب ألا أبالغ ! بالنسبة للعالم الخارجي كنت شخصاً نزيهاً باكياً ومثيراً للشفقة . حصلت على كل الرعاية والحنان المفترضين وصرت أشبه بطفل مدلل . ورغم نظامي الذاتي فقد كنت مشوشاً ومرتبكاً ، لا أعرف اليوم ما الذي سيأتي به الغد ، ولا أستطيع أن أخطط لأسبوع مقبل . كيف ستصبح حياتي ، وعملي في المسرح والسينما ؟ ماذا سيحدث لشركة سينما توغراف ، بؤبؤة عيني ؟ وماذا سيحل بالموظفين العاملين عندي ؟ في الليل ، عندما أعجز عن تركيز طاقتي للقراءة ، تهاجمني كتيبة كاملة من الشياطين ، وفي النهار أحس رغم النظام الظاهري بأن الفوضى تسودني مثل مدينة تتعرض للقصف .

في منتصف شهر آذار انتقلنا الى فارو ، حيث بدأ الصراع الطويل بين الشتاء والربيع . . إذ يأتي يوم مشمس ذو نسيمات لطيفة يليه يوم آخر عاصف تكاد فيه الريح تقتلع النوافذ وأعمدة الكهرباء .

ومع ذلك فقد كان الجو هناك مهدئاً بالنسبة لي ، فعملت باجتهاد ، وكتبت الخطوط العريضة لفيلم (الغرفة المغلقة) . وشيئاً فشيئاً بدأت أشق طريقي في دروب غير مألوفة ، تجعلني أحس دائماً بالصمت وبأنني فقدت طريقي فعلاً . لقد كانت الكتابة جزءاً من نظامي اليومي .

وفي الليل كنت أتناول القاليوم والموغادون عندما يتفاهم إحساسي بخطر الإبادة الداخلي . كان بوسعي التحكم بهذه الجرعات على الأقل لأن توازني لا يزال غير مستقر .

كان أنغريد على وشك السفر الى استوكهولم لقضاء أعمال مستعجلة ، وعرضت علي الذهاب معها ، لكنني لم أرغب بذلك ، فاقترحت أن يأتي أحد ايشاركني إقامتي أثناء غيابها ، لكنني رفضت هذا أيضاً .

أوصلتها الى المطار ، وفي الطريق بين فارو وبانغ ، شاهدنا سيارة شرطة ، وهو امر غير مألوف أبدأ في شمال غوتلاند . تملكني الرعب وظننت أنهم قادمون لإلقاء القبض علي ، لكن انفريد أخبرتني بأنني مخطيء . هدأت ، ثم ودعتها في مطار فيزبي . وعندما عدت الى المنزل ، كان الثلج يتساقط قليلاً . ولمحت آثار لأقدام ولعجلات سيارة أمام المنزل ، فاقتنعت تماماً بأن الشرطة كانت هنا تبحث عني . أوصدت الأبواب كلها ، وحشوت بندقيتي وتمركزت في المطبخ حيث يمكن مراقبة الشارع ومرآب السيارات . انتظرت لساعات طويلة . جف فمي وحنجرتي ، فشربت بعض المياه المعدنية وفكرت بهدوء ، ودون أمل ، أن هذه هي النهاية . أقبل غروب آذار بصمت وحدّة . لم تظهر الشرطة . وبالتدرج أدركت أنني كنت أتصرف مثل مجنون خطير . فأفرغت البندقية وأعدتها الى مكانها وحضرت العشاء .

أصبحت الكتابة أكثر صعوبة ، وزاد قلقي إذ انتشرت اشاعات بتهمة التهرب من الضرائب ، وهكذا فالقضية برمتها ، مجرد شأن سخيف يتعلق بالضرائب .

انتظرنا ولم يحدث شيء . أقرأ كتاب (القدس) لسلمة لاغرلوف ، أحاول بصعوبة الحفاظ على نظامي الخاص . يوم الأربعاء ٢٤ شباط كان غائماً وهادئاً . تفتت الثلج وتساقط عن السطوح . ومن غرفتي سمعت جرس الهاتف يرن وانفريد تجيب ، ثم ألقّت بالسماعة وهرعت إلي ترتدي ثوبها اليومي الأزرق ، ثم وقفت وضربت بيدها اليمنى على فخدها وصاحت : « أسقطوا القضية » ! .

في البداية لم أشعر بشيء ، بعدها تملكني إحساس بإرهاق فظيع ، فحطمت نظامي الخاص وذهبت الى السرير واستغرقت في النوم لساعات عديدة ولم أشعر بمثل ذلك الدفء إلا مرة وحيدة ، عندما كنت مسافراً بطائرة ذات جناح واحد واشتعلت النيران فيها ، فاضطروا الى التحليق حول أوريسوند لمدة طويلة حتى نفذ الوقود وهبطت الطائرة .

وعند المساء سمعنا طرقة على الباب ، وكانت القادمة صديقة طيبة ما إن فتحنا لها حتى أقت إلي بباقة ازهار وقالت إنها جاءت لتهنئتي وتعبر لي عن مدى فرحتها .

كانت ليلة بلا نوم ، أيقظني فيها انفجار المشاريع والأعمال . وعندما لم تساعدني الأقراس المنومة والموسيقا وكتاب سلما والشوكولا والبسكويت ، غادرت الفراش وجلست الى مكتبي ، وكتبت الخطوط العريضة لفيلم (الأم والإبنة والام) مع ملاحظة بأن انغريد برغمان وليق اولمان يجب أن تلعبا الدورين الأساسيين .

في ٣٠ آذار عدنا الى استوكهولم حيث كان بانتظاري كم لا بأس به من العمل . وبشيء من القلق الذي كان يصعب تحمله ، بدأت أعالج أموراً مستعجلة كان اولها متعلقاً بسيناريو (مكان الجنة) مع اولاً إيزاكسون وغونيل ليندبلوم .

في ٢ نيسان ، قامت مصلحة الضرائب بشن هجوم مباغت علينا ، فاجتمعنا في الواحدة ظهراً مع المحامي رالف ماغريل ، وبصعوبة وبطء بدأت أفهم محتوى الرسالة التي بعثتها مصلحة الضرائب . فيما بعد كتبت مقالة في إحدى الصحف ، حول الموضوع نفسه ، جاء فيها :

في يوم الجمعة ، الموافق ٢ نيسان ، دعي ممثلي القانوني رالف ماغريل للقاء موظفين من مصلحة الضرائب ، هما بنغت كولن وهانز سفنسن .

كانت الرسالة التي أراد هذان الموظفان نقلها إليّ بالغة التعقيد . ورغم محاولاته الصبورة فإنني لم أستوعب الأمر بكل تفاصيله من قبل ماغريل لكنني التقطت الفكرة الأساسية .

ومن أجل الوصول الى الإعلام ، قبل أن تفعل مصلحة الضرائب فعلها من خلال اتصالاتها الحميمة بوسائل الإعلام ، فإنني أرغب بإعلان ما يجول

ببال هذين الموظفين ، بعد أن توصلت الى خلاصات معينة فيما أصبح يسمى « مثلث برغمان » . وسأحاول الآن أن أصف باختصار مضمون رسالة سفنسن وكولن ، وأرجو أن يتحلى القارئ بالصبر ، فالقضية مثيرة للإهتمام .

لقد ادعيا بأن مصلحة الضرائب الحكومية غير راضية عن اخفاق مصلحة الضرائب المحلية في اعلانها السابق والذي تورط فيه مدير المصلحة دالستراند ، من خلال دعوته الجديدة التي يقترح فيها ضرورة قيامي بدفع ضريبة تبلغ مليونين ونصف المليون كرونر عن عام ١٩٧٥ (من حصتي في شركتي السويسرية السابقة برسونا فيلم) . أما مصلحة الضرائب الحكومية فإنها ترغب بتفريمي المبلغ نفسه عن شركتي السويدية سينما توغراف لأنها تعتبر شركتي السويسرية «غير قانونية» . ولم يكن يعينها أبداً أن تدفع الضريبة مرتين على الدخل نفسه ، فقد اخطأ دالستراند (أرجو أنك لا تزال معي ايها القارئ) .

ومن ناحية أخرى لو أنني ودالستراند وافقنا على دفع الضريبة كما ترغب مصلحة الضرائب الحكومية ، فإنها قد تكف عن مطالبتني بدفع ضريبة شركتي السويدية .

وببساطة أكثر ، فقد أرادوا من خلال التهديدات والإبتزاز أن يدفعوني أنا ودالستراند للإعتراف بأن مصلحة الضرائب الحكومية كانت محقة منذ البداية .

يسعدني أن أبلغ بنفت كولن ، وهانز سفنسن من خلال هذه الصحيفة ، أنني أرفض أساليهما والتورط في مثل هذه المتاجرة .

ومن الطبيعي الآن أن أتأمل جيداً بالأسباب الكامنة وراء التصرف المدهش الذي قامت به مصلحة الضرائب الحكومية .

فيما يلي بعض الشروحات . . فعندما أعلن المدعي العام نوردنادلر بأن القضية ضدي قد أسقطت ، أحس بعضهم في مصلحة الضرائب الحكومية بأنه فقد ماء وجهه . فالمحقق كارلسون كان قد عمل مع معاونيه لمدة أشهر طويلة في هذه القضية ، ووصل به الأمر الى اقتيادي محجوزاً من المسرح الدرامي الملكي . وعندما توضح لاحقاً أن كل ما قام به كان مجرد عبث بشكل أو بآخر ، شعر بحاجة ملحة لأن يجد شيئاً ، يستطيع من خلاله ولو مؤقتاً أن يبطل السمعة السيئة التي لحقت بمصلحة الضرائب الحكومية سواء داخل البلاد أو خارجها . ربما كانوا يعتقدون أن خوفي من الدخول في تحد معهم ، سوف يجعلني أخضع لابتزازهم وبالتالي فإن مصلحة الضرائب الحكومية ستكون هي الرابحة في النهاية .

لكنني أرفض مثل هذه الالاعيب .

وفي الوقت نفسه فإنني أعترف برغبتني في ضم هذين الموظفين الى قلبي ، لأنهما بالحقيقة قد نجحا في أمر لم يتمكن منه الطبيب النفساني ، ولم أتمكن منه أنا أيضاً ، خلال فترة مرضي . .

ببساطة فقد تملكني غضب عنيف لأنني شنفت على الفور . إن الرعب والإحساس بالذلل الذي يصعب استئصاله ، والذي عانيت منه أياما وليالي ، تبخر خلال ساعات قليلة ولم يترك أثراً . لقد أدركت أن خصومي يفتقدون النزاهة والموضوعية ، وليسوا سوى مجموعة من لاعبي البوكر الذي يبحثون عن النفوذ والسلطة .

لقد انتبهت الى هذا الأمر ، خصوصاً بعد ما أقيت نظرة قريبة على المحقق كارلسون في مصلحة الضرائب ، والذي كان حاضراً أثناء الاستجواب الأول في قسم الشرطة ، ينصت باهتمام الى كل كلمة ، ويبدو عليه الارتعاش بسبب الإحساس بالنصر الوشيك . يجب علي أن أعترف بأنني ترددت قليلاً عندما قرر المدعي العام نوردنادلر أن يواجه

بشجاعة أخلاقية كل القوى المتسلطة التي أدانتني . (ولكنني قررت أن أنسى الأمر برمته ، وأن أعود الى نشاطاتي ، وأسلم قضية الضرائب الى شخص خبير يتابعها . لقد كنت دائماً - وسأبقى - لا مبالياً تجاه المال والأشياء المادية . إنني لا أخشى فقدان ما امتلك . لكنني كنت أفكر بأنهم أساءوا معاملتي ، ويجب علي أن أتجاوز الأمر وأعود الى الواقع ، لأنه لا بد أن يسود العدل والأخلاق في النهاية) .

لكن كوان وسفنسن ، من خلال التهديد والابتزاز ، قاما بترسيخ افكاري حول جنون الاضطهاد . وفي الوقت نفسه فإن الأزمة الإبداعية الخائفة التي عانيت منها لأول مرة في حياتي ، انتهت تماماً .

وهكذا ، بالتعاون مع نفسي وأحد مساعدي المقربين ، توصلت الى مجموعة من القرارات ، وإلا فسوف تنشأ غابة كاملة من الاستغلال والإشاعات والتلميحات وستكبر ويصبح من الصعب السيطرة عليها .

كان قراري الأول هو : « بما أنني اطالب بنوع من الامان حتى أستطيع تحقيق شيء على الصعيد المهني ، وبما أن هذا الامان قد أحرم منه في يوم من الأيام ، فإنني مضطر للبحث عنه في مكان ما خارج هذه البلاد » . وكان واضحاً تماماً بالنسبة لي أن الأمر ينطوي على مجازفة كبيرة إذ أن ممارسة مهنتي ترتبط الى حد كبير ببيئتي ولغتي ، وقد لا أستطيع النجاح في هذه المجازفة وأنا في الثامنة والخمسين . بالإضافة الى ذلك فإنني مضطر لأن أجازف بالمحاولة نفسها لأنه يجب وضع نهاية لإحساس انعدام الامان الذي يصيبني بالشلل ، فلا أستطيع أن أعمل ، ومن دون عمل فإن حياتي تصبح بلا قيمة .

أما قراري الثاني فيتلخص في إبقاء كمية من دخلي في حساب مفلق بالبنك وتحت تصرف مصلحة الضرائب الحكومية في حال أنني خسرت القضية . حتى لا يظن البعض بأنني هربت من البلاد كي لا أرفع

الضرائب . وسوف أقوم بتحويل أي مبلغ إذا لم يكن حساب البنك كافياً . لقد قررت ألا أكون مديناً لوطني بسنت واحد .

قراري الثالث هو : « بما أنني دفعت ما يزيد عن المليون كرونة كضرائب خلال السنوات الماضية التي وظفت فيها عدداً كبيراً من الناس في أعمالي . وأشعر بالقلق فيما يتعلق باتمام كافة الإجراءات بطريقة شريفة ، وافتقر في الوقت نفسه إلى فهم الأرقام ، وأخاف من المال ، فقد قررت أن أعهد بهذه المسائل إلى أشخاص خبراء ونزيهين » . لقد كانت فارو ملاذي الآمن الوحيد الذي أشعر فيه أنني متمدن في رحم لا تراودني فكرة مغادرته أبداً . لقد كنت اشتراكياً ديمقراطياً ، وقد اعتنقت بحماس مخلص أيولوجية التسويات هذه . ولا أزال أعتقد بأن بلدي هو الأفضل في العالم ، ربما لأنني لم أر إلا القليل جداً من البلاد الأخرى .

وجاءت يقظتي كالصدمة بسبب الإذلال غير المحتمل ، ولأنني أدركت أن أي إنسان في هذه البلاد قد يتعرض للهجوم والإهانة بسبب هذه البيروقراطية التي تتفشى مثل سرطان سريع ، والتي قدم المجتمع لمن يمارسونها سلطات قوية ، ليست بأي حال من الأحوال بين أيدي مؤهلة لها .

عندما جاء ممثلو مصلحة الضرائب الحكومية وعلى رأسهم المحقق كنت كارلسون ، بشكل غير متوقع إلى مكتب شركة سينما توغراف وطلبوا أن يدققوا حساباتنا ، وجدت طريقتهم في معالجة الأمور تافهة وكريهة ، وعرفت فيما بعد أن هذه هي الطريقة المتبعة ، وأن حساباتنا على ما يرام . عندئذ طلبوا الإطلاع على الإجراءات المتعلقة بشركة برسونا ، فقمنا دون أن نسألهم بوضع دفاتر الشركة تحت تصرفهم .

وبقلق شديد انتظرت أنا ومحامي اللقاء مع مدقي الحسابات من طرفهم .

لكن هذا اللقاء لم يتم .

لقد كان لدى المحقق كنت كارلسون ورجاله خطط أخرى ، يريدون من خلالها استعراض عضلاتهم أمام العالم بأسره ويفوزون لأنفسهم بمزيد من النقاط على طاولة البيروقراطية .

لكنهم لم ينجحوا معي . انقضت اشهر عديدة بين البدء بتدقيق الحسابات ، واليوم الذي جاؤوا فيه ليحذروني أنا ومحامي « من إتلاف أية وثيقة اثبات » . او كان لدينا ما نخفيه فعلاً ، لقمنا باتلافه خلال الأشهر الماضية ، وهذه حقيقة يعرفها شرطي ريفي ساذج . ولو كان ضميري مثقلاً بالذنوب لكنت حولت نفسي الى سويدي مُبعد خلال هذه الفترة . وأخيراً لو أنني لم أكن مفرماً لحد الجنون بحب هذه البلاد ، وشريفاً الدرجة لا توصف ، لكانت ثروات طائلة تحت تصرفي خارج البلاد .

لكن شيئاً من هذه الأفكار لم يخطر ببال المحقق كارلسون أو المدعي العام دريفالدت . ضربة كارلسون غير المتوقعة كانت حقيقة ، وبعد أربع عشرة دقيقة من دفعي خارج المسرح اتصلوا من إحدى الصحف بالرجل الذي يقود العملية واستفسروا عن هذا الفصل المثير .

وما لبث ان اخفق استعراض العضلات المنظم وتحول الى حرب خنادق عادية ، استخدمت فيها أسلحة التهديد والإبتزاز ، وقد خشيت أن تستمر هذه الاستراتيجية لزمناً طويلاً .

فأنا لا أملك الأفكار والأعصاب لمواجهة هذه الحروب ، ولا وقت عندي لها .

لذلك قررت الرحيل . كنت سأغادر البلاد لأحضر لفيلمي الأول خارجها ، وسيكون ناطقاً بلغة أجنبية دون أن أجد سبباً يجعلني أندم على قراري .

لقد أخبرني البعض بضرورة مهاجمة صحيفة آفتون بلادت لطريقتها في نشر القضية ، لكنني قلت إن الأمر غير مجدٍ ، وإن الصحيفة المتفوقة بالتملق والدس ، بالإهانات المعلنه والحقائق المشبوهة ، مثل صحيفة آفتون بلادت ، ليست سوى بالوعة مفيدة للمجتمع . وكنت أستغرب دائماً أن هذه البالوعة هي منبر الاشتراكيين الديمقراطيين ، ورغم انهياراتها المتلاحقة لا يزال يعمل فيها عدد من الناس المحترمين واللطيفين .

كذلك أخبرني البعض الآخر بضرورة المطالبة بتعويض من قبل المدعي العام درايفالدت للأضرار التي لحقت بي (أجري عن مسرحيتين : تسعين ألف كرونر - إلغاء مشروع الفيلم : ثلاثة ملايين كرونر ، الضرر النفسي : قطعة كرونا واحدة ، الشرف المهان : قطعة كرونا واحدة ، وهكذا يصبح المجموعة ثلاثة ملايين وتسعين ألف وكروناتين) .

لكنني وجدت هذا غير مجدٍ وقريباً من عمل الهواة . يجب أن يفهم المرء ، فالقضية برمتها تحمل طابعاً سويدياً بحثاً ، وربما أكتب مسرحية هزلية عنها يوماً ما . وأقول هنا ، كما كان سترندبرغ يقول كلما غضب : « احذروا أيها الأوغاد ، فسوف نلتقي ثانية في المسرحية القادمة » .

قرأ بورن نلسون من صحيفة اكسبريس المقالة التي كتبتها . وذهبت أنا برفقة انغريد الى ليسوفورس لزيارة شقيقتها ، وفي طريق عودتنا الى استوكهولم ، مررنا بفارموس الصامتة والكامنة تحت ضياء شتوي باهت ، نهرها أسود وتلالها مغطاة بالضباب ، ثم اجتزنا شتوراتونا حيث دفنت والدة انغريد ، وتوقفنا لساعة أو أكثر في أوبسالا حيث شاهدت انغريد بيت جدتي في ترادغاردستجانن . وهناك وقفنا على ضفة نهر فايريس الغزير . . كان في الأمر حزن ووداع .

بعد ذلك ذهبنا الى فارو حيث أمضينا بضعة أيام فيها كانت مؤلمة ولكن ضرورية . كان لارس - أو كارلبرغ وكاتنكا فاراغو قد وعداني بأنهما سيحافظان على شركة سينماتوغراف بأفضل حالة ممكنة . وفي يوم جمعة رائق كتبت المقالة ثم أعدت كتابتها مرتين ، وأنا أتساءل عن سبب خوضي في كل هذه المتاعب ، لكن الغضب الذي جعلني استمر خلال هذه الأسابيع قد أنتج الأدرنالين المطلوب .

في ٢٠ نيسان سافرت انغريد وشقيقتها الى باريس ، أما أنا فأمضيت الأمسية مع صديقي وطبيبي شتور هلاندر . لقد تعرف واحدنا الى الآخر في عام ١٩٥٥ حيث أحضروني وأنا أتشنج وأتقيأ الى عيادته في مستشفى كارولينسكا ، وكان وزني آنذاك لا يزيد عن الستة والخمسين كيلو ، حتى أنهم شكوا بوجود سرطان في معدتي . ومع أننا كنا مختلفين الا أننا أصبحنا صديقين حميمين ، ولا تزال صداقتنا تعني الكثير بالنسبة لكلينا .

يوم الأربعاء ٢١ نيسان ، وفي الساعة الرابعة والخمسين دقيقة أقلعت بي الطائرة الى باريس ، وبدأت أحكي قصصا لفتاة صغيرة كانت تجلس بجاني .

والذي حدث لاحقا كان مثيرا للاهتمام بمضونه . فقد نشرت الاكسبريس مقالتني في اليوم الذي تلا سفري مباشرة ، واثارت المقالة ضجة كبيرة حتى ان وسائل الاعلام احاطت بفندقني في باريس ، وكاد أحد المصورين ان يقتل نفسه وهو يلاحق بدراجته النارية سيارتنا المتجهة الى السفارة السويدية . لكنني كنت قد وعدت دينو دي لاورينتس بالتزام الصمت تماما قبل ان نعقد مؤتمرنا الصحفي في هوليوود خلال الايام القادمة .

أدركت أننا ربحنا الجولة الثانية ، لكنني تساءلت فيما اذا كان الثمن غاليا لذلك .

فكرت انا وانفريد بالاستقرار في باريس بعد أن عدنا اليها من هوليبود ، وكنا سنقضي الصيف في لوس انجلوس بعد أن تأجلت التحضيرات لفيلم (بيضة الثعبان) . كان الطقس حارا في باريس وكانت مكيفات فندقنا الأنيق تهدر وتيار الهواء البارد يندفع منها . كنا غير قادرين على احركة ، فجلسنا عارئين أمام التيار البارد وأخذنا نشرب الشمبانيا ، في حين انفجرت قنبلتان في الشارع المجاور ودمرت بعض المكاتب التابعة لالمانيا الغربية .

ازدادت حرارة الطقس ، فطرنا الى كوبنهاغن حيث استأجرنا سيارة وقمنا بجولة في الريف الدانماركي . وذات مساء استأجرنا طائرة خاصة وطرنا الى فيسبي ، ووصلنا الى قارو في وقت متأخر . كانت أزهار الليلك متفتحة عند البيت القديم في دامبا ، فجلسنا على عتبة البيت حتى الفجر وقد غلفنا شذى الليلك ، ثم طرنا عائدين الى كوبنهاغن .

كنت قد اتفقت مع دينو دي لاورنيتس على تصوير الفيلم في ألمانيا حيث تدور الأحداث في برلين العشرينيات . سافرت الى برلين لاستطلاع مواقع التصوير ولم أجد شيئا سوى مكان قريب من الجدار يدعى كروز بورغ ، وهو أشبه بمدينة مهجورة لم يصلح فيها شيء منذ الحرب ، وكانت واجهات المباني مثقبة من القنابل والرصاص ، وقد أزيلت خرائب الأبنية المدمرة وبقيت مكانها مساحات خالية . وكانت الكتابات فوق المحلات التجارية مكتوبة بلغة غريبة ، ولم يكن الماني واحد يعيش في هذا الجزء من المدينة الذي كان فيما مضى عاصمة أبية . كان يقطن المكان عائلات مهاجرين اجانب . الأبنية التي يمكن السكن فيها تكتظ بالناس ، والأطفال يلعبون في الساحات ، ورائحة القمامة تملأ المكان ، والشوارع مرقعة وغير صالحة .

انني واثق من أن هناك سلطات معنية تشرف على هذا التورم السرطاني في هذا المكان من برلين الغربية . أما الالمان أنفسهم ، بوعيمهم

الذي يخفي بصعوبة كراهيتهم العرقية، فانهم يقولون عن هؤلاء المهاجرين: « على كل حال هذا المكان بالنسبة لهؤلاء الأوغاد أفضل بكثير من كل الامكنة التي جاؤوا منها » . لم أشاهد في حياتي قط مثل هذا البؤس المادي والروحي . الألمان لا يرونه ، أو ربما يرونه ويقولون يجب أن ينتقل هؤلاء الى المخيمات . لكن هناك فكرة بسيطة وساخرة وراء كروزبورغ ، مفادها أنه او هاجم العدو من الطرف الآخر للسور فسوف نسد عليه الطريق بواسطة حواجز من الأجساد غير الألمانية .

كانت استوديوهات بافاريا في ميونخ عبارة عن مؤسسة راقية يعمل فيها أربعة آلاف شخص وتضم اثني عشر استوديو للتصوير . وكانت مدينة ميونخ تضم دارين للأوبرا ، واثنين وثلاثين مسرحا ، وثلاث فرق سيمفونية وعددا لا يحصى من المتاحف والحدائق الضخمة والشوارع النظيفة المكتظة بالمحلات التي تعرض واجهاتها الزجاجية رفاهيات معقدة يصعب وجودها في المدن الأوروبية الكبيرة الأخرى . وكان الناس ودودين ومضيفين ، فقررنا أن نبقى في ميونخ خصوصا بعد أن دعيت لاجراءج (لعبة حلم) على مسرح الرزدنس ، وهو المسرح البافاري الموازي لمسرح الدراما الملكي في استوكهولم .

تلقيت جائزة فخرية ، وهي جائزة غوته ، التي ستمنح إلي في فرانكفورت ، الخريف المقبل . وبعد أن بحثنا عن شقة مناسبة وجدنا واحدة مضاءة وفسيحة في بناء عالي وبشع ، نستطيع ان نشاهد من خلال شرفتها جبال الالب وميونخ القديمة وأبراج الكنائس .

وبما أن الشقة ستكون جاهزة في أيلول فقد عدنا لقضاء الصيف في لوس انجلوس ، التي ضربتها في ذلك الصيف تحديدا موجة حر القرن . وصلنا اليها بعد يومين من منتصف الصيف ، وجلسنا نشاهد التلفزيون في الغرفة المكيفة الشبيهة بالقبر . حاولنا الخروج مساءً الى سينما قريبة ، لكن الحرارة سقطت علينا مثل جدار اسمنتي .

في الصباح التالي اتصلت بي بربارا سترابنزنند واقترحت علينا أن نحضر ملابس السباحة ونذهب إليها للمشاركة بحفلة تقيمها حول حوض السباحة في بيتها . شكرتها ، ثم وضعت السماعة والتفت الى انغريد وقلت لها : « هيا نعود الى بيتنا في فارو ونمضي الصيف هناك » .

بعد بضع ساعات كنا في طريقنا الى السويد .

وصلنا استوكهولم عند المساء ، فاتصلت انغريد بوالدها الذي كان يحثني بأقربائه وأصدقائه في مزرعته قرب نورتالي ، وعندما علم بحضورنا أصر على انضمامنا اليهم فوراً .

كانت الساعة العاشرة والنصف ، وكان المساء لطيفاً ووعطراً ، وأقبلت الليالي السويدية البيضاء .

وفي الصباح كنت مستلقياً على سرير أبيض في غرفة تفوح منها رائحة الأرضية الخشبية المنظفة حديثاً ، وكانت توجد شجرة بتولا عالية في الخارج ، تتراقص ظلال أغصانها وترسم أشكالاً على ستائر النافذة ذات الألوان المشرقة .

انتهت الرحلة الطويلة ، وكانت كارثة حياتي مجرد حلم تراءى لشخص آخر غيري .

وبهدوء ، تحدثت مع انغريد حول حياتنا الجديدة المقبلة . كنا ندرك تماماً أنها سوف تكون صعبة .

قلت لها : « اما أن أموت ، أو أن الحياة سوف تحثني على المواجهة بشكل جهنمي .. » .

كان يوم احد ذلك الذي بقيت خلاله وحيداً في بيت الكاهن ، اعالج بعض مسائل الرياضيات المستعصية ، وكنت قد بلغت الثالثة عشرة . دقت اجراس كنيسة انغلبركت تدعو الى جناز ، وكان شقيقي في السينما ، وشقيقتي في المستشفى تعاني من التهاب الزائدة الدودية ، أما والدي والمشرفات على البيت ، فقد ذهبوا جميعاً الى كنيسة صغيرة للاحتفال بذكرى الملكة صوفيا ، مؤسسة المستشفى . تأملت اشعة الشمس الربيعية وهي تتوهج على سطح طاولتي ، ثم شاهدت المرضات المسنات يمضين على الجانب المظلل بالاشجار . كان ممنوعاً علي الذهاب للسينما لانني كنت في غوتر دامرنج الليلة الفائتة . شعرت بالملل والتشويش ، فرسمت امرأة عارية على دفتر الوظائف . لقد كنت دائماً رساماً ميئوساً منه . كان صدر المرأة العارية ضخماً للغاية ، وأعضاؤها التناسلية مبالغاً منها .

كنت اعرف القليل جداً عن النساء ، ولا شيء أبداً عن الجنس . وكان شقيقي يشير بتلميحات فاضحة بين الحين والآخر ، أما والدي والمدرسون فلم يسيروا الى الموضوع بشيء . وكان يمكن مشاهد امرأة عارية في المتحف الوطني او في كتب تاريخ الفن . وفي الصيف كانت تسنح فرصة للمح صدر عار او مؤخرة ، ولم يكن افتقاد المعلومات حول هذه الامور يمثل مشكلة بالنسبة لي . كنت أتجنب الاغراءات ولم يكن الفضول يعدبني .

ثمة حادثة تافهة لكنها تركت انطباعاً محدداً . . كانت لدي العائلة صديقة أرملة في منتصف العمر ، ذات أصل فنلندي سويدي ، ترعى

بعض شؤون الكنيسة ، وتدعى آلا بتروس . اضطرت ذات مرة لقضاء بضعة اسابيع في منزلها ، بسبب مرض معدٍ انتشر لفترة في بيت الكاهن . كانت تسكن في شقة ضخمة بستراند فاجن ، تطل على النهر حيث تطفو اعداد هائلة من الاشجار المقطوعة . وكان ضجيج الشارع لا يصل أبداً إلى غرفة الشقة الهادئة والمشمسة ، والمكتظة بقطع تزيينية حديثة مثيرة للاهتمام .

وبالطبع لم تكن آلا بتروس جميلة . كانت تضع نظارة سميقة وتمشي مثل الرجال ، وعندما تضحك - وهي تضحك كثيراً - يظهر لعاب ابيض في زاويتي فمها . كانت ترتدي ثياباً أنيقة وقبعات كبيرة يجب نزعها في السينما ، وكانت لها عينان بنيتان دافئتان ، ويدان ناعمتان ، وقد انتشرت في مناطق مختلفة من جسمها وسمات ذات أشكال متنوعة ، وكانت تفوح منها رائحة عطر غرائبي . وكان صوتها عميقاً ، يكاد يكون رجولياً . كنت سعيداً للغاية باقامتي معها ، خصوصاً وأن المسافة إلى المدرسة باتت قصيرة . وكان يسكن معنا أيضاً الخادمة والطباخة ، وكلاهما تتحدثان الفنلندية ، وتداعباني وتقرصاني من وجنتي ومؤخرتي .

ذات مساء دخلت الحمام لاستحم ، ووجدت الخادمة قد أعدت لي مغطساً من الماء الساخن المعطر ، فاستلقيت فيه بمتعة كبيرة . دقت آلا بتروس الباب وسألتنني اذا كنت نائماً أم لا ، لكنني لم اُجب ، ففتحت الباب ودخلت مرتدية روب الحمام الاخضر الذي مالبت أن نزعته عنها .

أخبرتني بأنها سوف تفرك لي ظهري ، فاستدرت واستلقيت على بطني ، في حين ولجت هي الى مغطس الماء بجانبني ، وبدأت تفرك ظهري بفرشاة قاسية ثم دلكته بيديها الناعمتين . وبعد ذلك أمسكتني من يدي ودفعت بها بين فخذيهما . أحسست بنبض عنقي يتسارع وهي تدفع بأصابعي في عمق عورتها وتضغط بيدها الاخرى على قضيبتي الذي كانت له ردة فعل قوية ومدهشة فأفرز سائلاً ابيض . كل هذا كان ممتعاً ومخيفاً الى أقصى الحدود .

كنت عندئذ في الثامنة ، أو ربما في التاسعة من عمري . وعندما كنا نلتقي أنا والعمة آلا في بيت الكاهن كنا نتبادل النظرات خفية واراها تبسم باستخفاف . لقد كان بيننا سر مشترك .

بعد خمس سنوات تلاشت هذه الذكرى وتحولت لاحقاً الى طقس مؤلم وممتع ، فيه احساس مخفي بالذنب ، طقس يتكرر باستمرار ويدور بقسوة مثل انشودة آلة العرض السينمائي ، طقس يدفعني اليه شيطان يكرهني ويتمنى لي العذاب والألم .

وهكذا رسمت امرأة عارية على دفتر وظائفى الأزرق . وشعرت بالدفء وأنا أتابع مرضات مستشفى صولهمت يتمشين في الخارج . بدأت أفرك بين فخذي بقوة ، ثم أرخيت سروالي وجعلت مثقبي الأزرق المائل للحمرة ينتصب حراً وكبيراً ، وتابعت فركه بحذر ، وكانت عملية ممتعة على نحو مثير للخوف . وفي الوقت نفسه تابعت الرسم ، فرسمت امرأة عارية أخرى ، أكثر جراءة من الأولى ، ودرسمت مثقباً خاصاً بها ، ثم ختمت ثغرة بين فخذي المرأة ، وقطعت المثقب ، ودفعته الى داخلها .

وفجأة شعرت بأن جسدي على وشك الانفجار ، وان شيئاً ما لا يمكن السيطرة عليه في طريقه خارج جسدي ، فاندفعت الى الحمام في الطرف الاخر في القاعة واقفلت بابه خلفي . لقد انقلبت المتعة الى ألم جسدي ، اما عضوي اللطيف والصغير والذي كنت أنظر إليه باهتمام عادي فيما مضى ، فقد تحول الآن الى شيطان خافق يقذف احساسيس ألم عنيف تجاه معدتي وفخذي . لم أدر كيف أواجه هذا العدو المخيف ، فأحكمت عليه يدي ، لكن انفجاراته توالى ، وأصابني الرعب عندما وجدت سائلاً ابيض مجهولاً يتدفق على يدي وسروالي وعلى مقعد الحمام وستائر النافذة والجدران والحصيرة . لقد تلوثت وكل شيء حولي بهذا الخارج من جسدي . لم أعرف شيئاً ، ولم أفهم شيئاً ولم تصادفني من قبل احلام مبالة . حدث كل شيء وانتهى بالسرعة نفسها .

لقد هاجمتني احوالي الجنسية مثل قصف الرعد ، وجاءت غامضة
وعدوانية ومعذبة . ما زلت لا اعرف كيف حدث هذا التغير العويص في
جسدي ؟ ولماذا حدث دون انذار مسبق ؟ ولماذا كان مؤلماً ، ومنذ
اللحظات الاولى يرافقه احساس بالذنب . واذا كان الخوف من الجنس
يتسلل إلينا نحن الاطفال عبر جلدنا ، فقد كان في غرف نومنا أشبه بغاز
سام غير مرئي . لم يخبرنا أحد بالامر ، ولم يحذرنا أحد منه .

لقد ابتلاني هذا الهاجس دون شفقة ، وأخذ الفعل يتكرر معي
باستمرار وبشكل اجباري .

كان يجب ان اعرف ، فسألت شقيقي فيما اذا كان قد مر بتجربة
مشابهة ، فابتسم بمودة واخبرني انه سبق وعاش حياة جنسية صاخبة
مع معلمة اللغة الالمانية عندما كان في السابعة عشرة . لم يرغب بسماع
بذاءاتي ونصحني لمزيد من المعلومات أن اقرأ حول العادة السرية في
قاموس الأسرة الطبي . وهكذا فعلت .

في القاموس كان الامر مشروحا بلغة واضحة . فالعادة السرية
هي ايداء للنفس ورذيلة يقترفها الشباب يجب مقاومتها بشتى الوسائل
الممكنة . وهذه العادة تصيب بالشحوب والتعرق والارتعاش ، وتشكل
هالات سوداء حول العينين وتحدث اختلالا بالتوازن وتفقد القدرة على
التركيز ، وفي حالات أخرى ، فانها قد تضرب الدماغ والحبل الشوكي
وتؤدي الى الاصابة بداء الصرع والموت المبكر . أمام أبعاد المستقبل هذه،
تابعت ممارسة العادة السرية برعب وامتعة . لم أجد شخصا واحدا
استطيع التحدث اليه ، فبقيت أنا الحارس على نفسي ، وكتمت هذا
السر الرهيب .

استنجدت بالمسيح في لحظات اليأس وحاولت التخلص من لعنتي
بممارسة التمارين الروحية وتأدية الصلوات . وفي الليلة التي سبقت
طقس المشاركة الاولى، حاولت مقاومة شيطاني بكل ما اوتي لي من قوة ،

فصارعته طويلا لكنني خسرت المعركة ، وعاقبني المسيح على ذلك بظهور
بشرة كبيرة الحجم في منتصف جبهتي الشاحبة . وعندما جلست لأستمع
الى مواعد الصلاة ، تقلصت معدتي وكدت اتقيا .

واليوم يبدو كل هذا مضحكا ، لكنه في ذلك الوقت كان واقعا
مؤلما . لقد كبر ذلك الجدار الفاصل بين حياتي الحقيقية وحياتي السرية
وأصبح لا يمكن ارتقاؤه ، وتحول الكذب الى حاجة ملحة ، وأصيب
عالم تخيلاتي بأضرار تطلب اصلاحها سنوات عديدة ومساعدة بعض
الأشخاص الطيبين . لقد اشتد عليّ احساسى بالمزلة حتى شعرت
بأنني سوف أجن ، ثم وجدت عزاء في نبرة سترندبرغ المازحة والفوضوية
عندما قرأت مجموعته القصصية (الزواج) . ولكن يا للحجيم ؟ كيف
بإمكاني أن أحصل على امرأة ؟ أية امرأة ؟! كان الجميع يتدبرون أمورهم
ما عداي . أنا الذي كنت أمارس العادة السرية ، أنا الشاحب ، المتعرق ،
صاحب الهالات الزرقاء حول العينين ، الضعيف القدرة على التركيز .

الى جانب هذا كله ، كنت نحيفا ، منكس الرأس ، سريع الغضب ،
الباديء بالشجار والصراخ ، سيء العلامات بالمدرسة ومتورم الأذنين
من العقاب .

لقد كانت السينما والمسرح هما ملاذّي الوحيدين .

ذاك الصيف ، لم نذهب الى فارموس كالمعتاد وبقينا في البناء الأصفر
بجزيرة سمادالارو ، وقد جاء هذا القرار نتيجة صراع عنيف ومربح
ساد في بيت الكاهن لفترة طويلة . فوالدي كان يكره فارموس ولا يطيق
جدتي ولا حرارة ذلك الجزء الداخلي من البلاد ، أما والدتي فكانت
تشمئز من البحر والأرخبيل والهواء البحري الذي يسبب لها آلاماً في
الكتفين . لكنها فيما بعد ، ولسبب ما مجهول ، تخلت عن موقفها من
الذهاب الى فارموس وأصبحت سمادالارو منتجعنا الصيفي الريفى
لسنوات عديدة مقبله .

كان الأرخبيل بالنسبة لي مصدر وحي مذهل ، يزوره كل صيف عدد من الزوار مع أولاد من جيلي نفسه ، وكان هؤلاء الأولاد مغامرین وجميلين ووقحين، أما أنا فكنت منقط الوجه، غير لائق الثياب ، متلعثماً، أضحك بصوت مرتفع دون سبب ، وكنت شخصاً ميئوساً منه في كل أنواع الرياضة ، لا أجرؤ على الفطس وأحب التحدث عن نيتشه ، وهي مهوابة اجتماعية عديمة القيمة على ذلك الشاطئ الحجري حيث كنا نسبح .

كنت أجلس في غرفتي العلوية الخائفة ، أراقب أداء الفتيات وأوراكنهن ومؤخراتهن، أسمع ضحكتهن الفرحة تتردد عالياً، فأكرههن.

كانت حفلات الرقص تقام مساء كل سبت في مخزن حبوب بالقربية، وكان كل شيء فيها تماماً كما وصفه سترندبرغ في مسرحية (الأنسة جولي) : أضواء الليل ، الجو المثير ، العطور الثقيلة ، الليلك ، صوت الكمان المحتج ، الرقص والقبول ، الألعاب والقسوة . وبسبب النقص في عدد الراقصين الشباب كانت الفتيات يضطرن للرقص معي ولم أكن أجرؤ على لمسهن ، بالإضافة الى أنني كنت أرقص بشكل سيء للغاية ، فرعان ما تم استبعادني فشعرت بالغيظ والغضب والحزن والسخافة والخوف والتراجع . انه سن البلوغ ، بأسلوب بورجوازي ، في صيف عام ١٩٣٢ .

كنت أقرأ باستمرار ، دون فهم في أغلب الاحيان ، الا أنني كنت التقط بحساسية نبرة الخطاب : دوستوفسكي ، تولستوي ، بلزاك ، ديفو ، سويفت ، فلوير ، نيتشه ، وبالطبع سترندبرغ .

لم أعد أملك أية كلمات . بدأت اتلعثم واقضم اظفاري . كان كرهني لنفسي وحياتي يعقدانني . كنت أسير وجسدي مدفوع للأمام ورأسي يسبقني ، وكل هذا بسبب التآنيب المستمر . الأمر الغريب أنني لم أتساءل قط عن سبب حياتي البائسة هذه . كنت اعتقد أنها هكذا يجب أن تكون .

كنت أنا وأنا ليندبرغ في سن واحدة ، ندرس في الصف التاسع ، الذي يمثل المرحلة الاخيرة قبل الثانوية ، بمدرسة خاصة تدعى بالمغرينسكا سامسكولا ، وتقع على الناصية بين شارعي سكيرغاتن وكوموندور غاتن . وكان طلابها البالغ عددهم ثلاثمائة وخمسين طالبا يتمتعون بشروط لطيفة وصارمة في آن واحد ، أما المعلمون فكان يفترض أنهم يقدمون مستوى تعليمياً وثقافياً أرفع بكثير مما يمارس في المدارس العامة . لكن الحقيقة ليست كذلك ، فمعظمهم كان يعمل في الوقت نفسه في مدرسة أوسترمالم التي تبعد عن مدرستنا خمس دقائق سيرا على الأقدام .

وفي كلا المدرستين كان يدرس المنهاج السخيف نفسه ، والفرق الرئيسي بينهما هو الاختلاف في رسوم الفصول الدراسية ، التي كانت عالية بشكل ملحوظ في بالمغرينسكا ، بالإضافة الى كون مدرستنا مختلطة ، وكان صفنا يضم واحداً وعشرين طالباً وثمانى فتيات ، بمن فيهن أنا .

وكان الطلاب يجلسون على مقاعد مزدوجة من الطراز القديم ، في حين يشغل الأستاذ مع طاولته احدى الزوايا مقابلنا . كانت السماء تمطر باستمرار خارج نوافذ الصف الثالث ، ويسود الصف في الداخل ضياء شفق مبكر ممزوج بضوء ستة مصابيح كهربائية . وكانت تتخلل جدران الصف وموجوداته روائح الأحذية المتلة والملابس الداخلية غير النظيفة والعرق والبول . وكان الصف عبارة عن منمنة تعكس مجتمع ما قبل الحرب بما فيه من الكسل واللامبالاة والانتهازية والتمرد مع ومضات مشوشة من الثورة والمثالية والفضول . وكان العقاب مثلاً يحتذى به ، يؤثر مدى الحياة بمن يوقع به . مناهج التعليم كانت تقوم على مفاهيم العقاب والمكافأة والاحساس بالضمير المذنب ، وكان معظم الأساتذة اشتراكيين وطنيين ، نصيرين للنازية ، بعضهم بسبب حماقته ، أو رغبته بالحصول على مرتبة أكاديمية متقدمة ، والبعض الآخر بسبب مثاليتهم وتوقيرهم لالمانيا القديمة « أمة الشعراء والمفكرين » .

وبالطبع كانت توجد استثناءات : فقد كان قسم من الطلاب والمدرسين يتعذر كبحه ، وهؤلاء كانوا يشرعون الأبواب ويدعون الهواء والنور يدخلان . لكنهم كانوا قلة . أما مدير المدرسة فكان رجلا متملقا ، مجنون سلطة ، وعضوا بارزا في مجتمع الإرسالية ، يحب إقامة صلوات الصباح التي تتألف دائما من مناحات عاطفية حول أسف المسيح لو أنه جاء لزيارة مدرسة بالمغرينسكا في هذا الصباح بالذات ، بالإضافة الى مواعظه حول السياسة والمرور والداء المنتشر لثقافة الجاز .

الواجبات المنزلية المهمة ، الخداع ، الغش ، العقوق ، الغضب المكبوت ، الأجساد النتنة . . كل هذا كان يشكل النظام اليومي الموحش للمدرسة . الفتيات يتجمعن ويحكن المؤامرات بهمس وقهقهة ، والفتيان يصيحون بأصوات كسيرة ، يتشاجرون ، يركلون الكرة ، يعدون لسرقة ما ، ويهملون وجباتهم .

كنت أجلس في وسط الصف تماما ، وعلى الخط الأفقي نفسه ، الى جانب النافذة ، كانت تجلس أنا . أعتقد أنها بشعة ، الجميع يعتقد كذلك . كانت طويلة وسمينة ذات كتفين مستديرين ووقفه سيئة وصدر ضخم ووركين كبيرين ومؤخرة بارزة ، وكان شعرها قصيرا ، أما عيناها فمنحرفتان ، احدهما زرقاء والآخرى بنية . عظام خديها ناتئة ، وشفاتها منتفختان . وكان ثمة ندب يمتد من حاجبها الأيمن حتى قمة جبينها ، يحمر لونه كلما بكت أو غضبت . كانت تفوح منها رائحة صابون الأطفال ، وترتدي تنورة بنية غير مناسبة وقميصا حريريا أزرقا ، وكانت فتاة ذكية ولطيفة ، تدور اشاعات حول والدها بأنه قد هرب مع شخص مخنث ، وحول والدتها بأنها تعاشر بائعا متجولا أحمر الشعر سيء معاملة كل من الأم وابنتها ، كما قيل انها لم تدفع حتى الآن كامل رسوم المدرسة .

كنا دخيلين : أنا غريب الطباع ، وأنا بشعة . لكن أحداً من طلاب الصف لم يزعجنا أو يضطهدنا .

في أحد الأيام التقينا صدفة في سينما كارلا ، واتضح أن كلانا يحب السينما ويتردد عليها باستمرار . وكانت آنا - عكسي تماما - تملك مبلغا كبيرا من المال تنفق منه ، لذلك تركتها تدفع عني . وشيئا فشيئا بدأت أرافقها ، وأعود بها الى منزلها ، وكان شقة واسعة رثة في بناء يطل على شارع نيبرو غاتن .

كانت غرفتها معتمة مستطيلة الشكل ، تحوي اثنا متناسقا وفيها سجادة ممزقة وموقد آجري ، بالإضافة الى طاولة مكتب بيضاء ورثتها عن جدتها لأمها ، وكان سريرها عبارة عن نوع من الكنبات التي تتحول الى سرير . أما أمها فكانت ودودة معي ولكن دون حرارة زائدة ، وكانت تشابه ابنتها من حيث شكلهما الخارجي بخلاف فهما القاسي وجلدها المصفر وشعرها الرمادي . ولم يكن في البيت أي أثر للبائع ذي الشعر الأحمر .

بدأنا أنا وآنا ننجز واجباتنا المدرسية سويا ، وكنت قد قدمتها الى عائلتي في بيت الكاهن فقبلوا بها ، ربما لأنهم كانوا يرونها قبيحة ولن تشكل خطرا على شرفي ، فكانت تتردد على البيت تتناول العشاء معنا في أمسيات الآحاد ، يتفحصها شقيقي بنظرات مهينة وساخرة ، وتجبب هي على كل التساؤلات بسرعة وصراحة ، وتساعدنا اثناء عرض مسرح العرائس ، وقد أدت طيبة آنا الصريحة الى تخفيف حدة التوتر بيني وبين أفراد عائلتي .

لكنهم لم يكونوا يعرفون بأن والدة آنا كانت نادرا ما توجد في البيت مساء ، وأن نشاطاتنا الدراسية مالبت أن تحولت الى تمارين عنيدة ومشوشة على السرير الذي يصرصر بعنف .

كنا وحيدين ، متعطشين ، فضولين وجاهلين تماما . أبدت عذرية آنا مقاومة ، وزاد الأمر صعوبة السرير ذي الأرجوحة الشبكية . لم نجرؤ على نزع ثيابنا ، وكنا نمارس نشاطنا بكامل ثيابنا ماعدا جوارب

أنا القطنية الطويلة ، وكنت أقذف في مكان ما عند معدتها . كانت آنا جريئة وذكية واقترحت ذات مرة أن نستلقي على الأرض قرب الموقد ، كما شاهدت في أحد الأفلام . أضرمنا النار في الموقد ومزقنا بعض الثياب التي تقيدنا فصرخت آنا وضحكت ، أما أنا فغطست الى الامام بطريقة غريبة ، فتقلصت آنا وتألمت لكنها بقيت متشبثة بي ، فحاولت أن أخلص نفسي . طوقت ظهري بساقيها ووجدت نفسي أغوص أكثر فأكثر . بكت فجأة وابتل وجهها بالدموع ، ثم قبلتني وهمست : « أنا حامل الآن ، أستطيع أن أشعر بذلك » ، ثم أخذت تبكي وتضحك في آن واحد ، أما أنا فتجمدت من الرعب ، وحاولت أن أهدئها لتذهب وتنظف نفسها والحصيرة على الفور ، بعد أن لوثتنا بقع الدم .

في هذه اللحظة فتحت باب الصالة ودخلت والدة آنا . كانت آنا جالسة على الأرض تدفع بثديها الضخمين داخل الصدرية ، أما أنا فحاولت إخفاء البقع بقميصي .

صفعتني السيدة ليندبرغ على وجهي ، وأمسكتني من أذني وجرتني مرتين حول الغرفة ثم توقفت وهوت بقبضتها على أذني ، ثم قالت لي بابتسامة مهددة بأن بوسعنا أن نفعل ما نشاء دون أن تحمل آنا ، وتتورط هي في هذه القصة . بعد ذلك استدارت وخرجت من الغرفة وأغلقت الباب وراءها بعنف .

لم أكن أحب آنا ، فالحب لم يكن موجوداً في المكان الذي أعيش وأتنفس فيه . لقد نسيت طعم الحب الذي عرفته وقرأ في طفولتي ، فلم أعد أشعر بالحب تجاه أي إنسان أو أي شيء ، إلا تجاه نفسي فقط . أما مشاعر آنا فكانت مختلفة ، إذا أصبح لديها إنسان تتعلق به ، تقبله وتلهو معه ، إنسان مشاكس ، حيوي ، سخيف ، يتحدث باستمرار ، أحيانا بشكل مثير للدهشة ، وأحيانا أخرى ببلادة وطفولية حتى ليصعب تصديق أنه في الرابعة عشرة . إنسان يرفض السير معها في

الشارع أحيانا لأنها سميئة جدا وهو هزيل جدا ، وسيبدو منظرهما معا مشيراً للسخرية .

وعندما كان الضغط عليّ يفدو غير محتمل في بيت الكاهن ، كنت أقوم بضرب آنا ، فتردد لي الضربة بمثلها . كنا متساويين بالقوة ، لكنني كنت أكثر غضبا منها ، وكانت شجاراتنا تنتهي بيكائها وخروجي ولا نلبث أن نتصالح فيما بعد . ذات مرة ، وبعد أن ضربتها ، تورمت عينها وشقت شفقتها ، فكانت تتباهى بعرض جراحها في المدرسة ، وإذا ما سألتها أحد من فعل بها هذا ، تجيبه بأنه حبيبها ، فكان الجميع يضحكون ولم يصدقوا بأن ابن الكاهن الهزيل والمتلمثم ، قادر على مثل هذا العنف .

في صباح يوم أحد اتصلت آنا بي قبل الصلاة ، وصرخت مستنجدة لان بول على وشك أن يقتل أمها . هرعت اليها ، وعندما فتحت لي آنا الباب واندفعت داخلا تلقيت ضربة على فمي ، وارتددت الى الخلف واصطدمت بخزانة الاحذية . وعندما استعدت توازني وجدت البائع المتجول ذا الشعر الاحمر في سرواله الداخلي وجواربه القصيرة يتصارع مع الام وابنتها مهددا بقتلها ، قائلا انه يجب وضع حد لهذه الخيانات كلها ، فقد تعب من الاحتفاظ بعاهرة وابنتها . قبض بيديه على حنجرة الام التي امتقع لون وجهها وانقلب احمر داكنا . حاولت أنا وآنا أن نخلصها ، ولما لم ننجح فقد اندفعت آنا الى المطبخ وعادت تحمل سكيننا قاطعة، وهددته بالظمن حتى الموت ان لم يترك أمها حالا، فتركها وضربني من جديد ، فحاولت ان ارد له الضربة لكنني اخفقت . ارتدى ثيابه بصمت وحمل معطفه وقبعته ، ثم ألقى بمفتاح البيت على الارض ، ومضى .

أعدت والدة آنا بعض القهوة والسندويشات ، وجاءت احدي الجارات لتسأل عما حدث . فأخذتني آنا الى غرفتها وتفحصت جراحي . كان

أحد أسناني قد فقد شظية من طرفه (وخلال كتابتي هذه الاسطر ،
أشعر بفقدانها ، بواسطة لساني) .

كل هذا كان مشيراً ولكنه غير حقيقي بالنسبة لي . كان ما يدور
حولي أشبه بأجزاء من فيلم ، مركبة بطريقة غير ثابتة ، توحى بالغموض
وأحيانا بالحزن . وجدت بدهشة شديدة أن أحاسيسي قد سجلت
الواقع الخارجي دون أن تلامس نبضاتي الداخلية .

أستطيع أن أذكر كل اللحظات التي أمضيتها في تلك الشقة البائسة،
كل الاصوات والعلامات والاضواء المنعكسة على النوافذ من الشارع
المقابل . أذكر روائح الشواء والقذارة ، والشعر الأحمر الزيتي لذلك
الرجل . أذكر كل شيء بالتفصيل ولكن دون وجود لاية عواطف مرتبطة
بتلك الانطباعات . هل كنت خائفا ، غاضبا ، محرجا ، فضوليا ، أم
مهسترا فحسب ؟ لست أدري .

* * *

والآن . بما انني أملك المفتاح في يدي ، أعرف تماما بأنه كان يجب
انقضاء أربعين عاما قبل ان تتحرر مشاعري من سجنها ، لقد عشت على
ذاكرة الأحاسيس ، وعرفت كيف أعيد خلق هذه الأحاسيس دون أن
يكون التعبير العفوي عنها ، عفويا وتلقائيا بمعنى الكلمة . ثمة جزء من
الثانية يفصل دائما بين تجربة حدسي وتجليها الحسي .

دعوت آنا للمشاركة في عيد ميلادي الخامس عشر والذي سنحتفل
به في البناء الاصفر بجزيرة سمادا لارو ، فأمضت الليل مع شقيقتي
في غرفتها . أيقظتها عند الفجر ، ثم تسللنا سوية عبر مخزن الحبوب
وركبنا القارب وجدفنا بعيدا عبر السكون والامواج المتراخية وخيوط
الضياء الاولى .

عدنا في موعد الافطار تماما وقبل أن ألقى التهاني كانت أكتافنا
محروقة من الشمس ، وشفاهنا متشققة طعمها مالح ، وأعيننا نصف
عمياء من كل هذا الضياء .

كنا قد شاهدنا عربنا للمرة الاولى .



في الصيف ، عندما بلغت السادسة عشرة ، أرسلني أهلي الى ألمانيا في نطاق تبادل الطلاب ، وهذا يعني قضاء ستة أسابيع مع عائلة ألمانية لها ابن في مثل سني ، يعود معي بعدئذ الى السويد ليقضي مع عائلتي المدة نفسها .

نزلت عند أسرة كاهن ألماني تقطن في هانية ، وهي مدينة صغيرة تقع بين فايمر وإسناس ، في وادٍ تحيط به قرى مزدهرة ، ويتخلله نهر بطيء . وكانت للمدينة كنيسة حجمها أكبر من المألوف ، وساحة سوق مزينة بنصب تذكاري عن الحرب ، ومحطة باصات .

كانت العائلة كبيرة فيها ستة أبناء وثلاث بنات مع والدهم ووالدتهم ، بالإضافة الى إحدى قريباتهم ، وكانت عجوزاً تعمل في الكنيسة ، لها شاربان ، تتعرق كثيراً وتحكم الأسرة بقبضة حديدية . وكان صاحب البيت رجلاً هزلياً له لحية ماعز ، وعينان زرقاوان ودودتان ، يرتدي ياقة قطنية تغطي أذنيه ويريه سوداء تحجب جبهته . كان رجلاً واسع الإطلاع ، موسيقياً يعزف على آلات مختلفة ويفني بطبقة ناعمة . وكانت زوجته سمينة مطيعة ، تمضي معظم وقتها في المطبخ ، وطلالما داعبت وجنتي بخجل ، كأنها تريد أن تعتذر لتواضع بيتهم .

أما صديقي هانز فكان أشبه بنشرة دعائية للاشتراكيين الوطنيين . كان أشقر ، طويلاً ، له عينان زرقاوان وأذنان صغيرتان وابتسامة منتعشة وبداية لحية . بذلنا جهوداً مشتركة كي يفهم أحدنا الآخر ، ولم يكن الأمر سهلاً ، فلغتي الألمانية كانت نتاج دراسة سريعة للقواعد ، بحيث لم يتضمن منهاج المدرسة احتمال التحدث بهذه اللغة .

كانت الايام مملّة . يغادر الاطفال البيت في السابعة صباحاً ويتوجهون الى المدرسة ، وأبقى وحدي مع الكبار ، فأقرأ ثم أتجول قليلاً وأنا أشعر بالحنين الى الوطن . كنت أفضل البقاء أحياناً في غرفة مكتب الكاهن أو أمضي برفقته لزيارة الأبرشية ، بواسطة سيارته المهترئة الأيلة للسقوط ، عبر الطرقات الترابية المحرقة .

سألت الكاهن إذا كان يجب علي أن أرفع يدي وأقول « هايل هتلر » مثل الآخرين ، فأجابني : « عزيزي انغمار ، إن هذا سوف يُعتبر أكثر بكثير من مجرد لطف » . فرفعت يدي وقلت : « هايل هتلر » ، وشعرت بالفراغة .

اقترح هانز أن أذهب معه الى المدرسة وأحضر الدروس ، فوافقت وذهبت معه الى المدرسة التي تقع في مدينة أكبر من هانيه وتبعد عنها بضعة كيلو مترات بواسطة الدراجة ، وهناك استقبلوني بحماس ومودة ودعوني للجلوس بجانب هانز . كان الصف واسعاً وبارداً رغم حرارة الصيف خارج النوافذ الطويلة ، وكانت المادة الأولى هي المعرفة الدينية ، لكن كتاب هتلر (كفاحي) كان موجوداً أمام الجميع على مقاعدهم . قرأ الأستاذ شيئاً ما من ورقة يحملها ، وتذكرت عبارة مألوفة بالنسبة لي ، أخذ يكررها بنبرة صوت واضح للغاية : « لقد دسّ اليهود السم له .. » . وعندما سألت هانز عن معناها ، ضحك وقال : « آه يا انغمار ، هذا ليس للغرباء » .

في أيام الآحاد كانت الأسرة تذهب الى صلاة الصباح ، ومن المدهش أن الكاهن كان يقرأ أثناء الطقوس مقتطفات من كتاب (كفاحي) وليس من الأناجيل . وبعد الكنيسة كانت القهوة تقدم في قاعة مجاورة ، وكنت ألتقي فيها عدداً من الرجال في زيهم العسكري الموحد فتسنع لي الفرصة بأن أرفع يدي وأقول « هايل هتلر » .

كان جميع الشباب والشابات في البيت منتسبين الى منظمات شبيبية ، ويقومون بتدريبات بواسطة الرفوش ، بدلاً من البنادق ، ويمارسون الرياضة في الملعب الكبير ثم يحضرون محاضرات أو عروضاً سينمائية في المساء ، وأحياناً يفتنون ويرقصون . وكنا نسبح بصعوبة في النهر الطيني ذي الرائحة الكريهة .

انشغل الجميع بمهرجان مثير للحماس على وشك أن يفقد في فايمر ، يتقدمه موكب هتلر العملاق . ساد البيت هرج ومرج ، فغسلت القمصان وكويت جيداً ولمعت الأحذية والأحزمة ، وانطلق الشباب في وقت مبكر جداً من صباح اليوم الموعد ، أما أنا فكنت سألحق بهم مع الكاهن وزوجته ، وكانوا جميعاً مهتاجين لحصولهم على تذاكر قريبة من منصة الشرف ، حتى أن أحدهم أشار مازحاً الى أن السبب في ذلك وجودي بينهم .

في ذلك الصباح ، رن جرس الهاتف وكانت المتحدثة هي العمدة أنا بصوتها الرنان ، تهتف اليانا من السويد . أما الذي جعل هذه المكالمة المكلفة أمراً ممكناً ، فهو ثروة العمدة أنا . تحدثت بروية ودون استعجال حتى وصلت الى هدف اتصالها ، فأخبرتني أن صديقة لها ، قد تزوجت من رجل مصري ، تعيش في فايمر وأنها قد سمعت من أمي بأنني في مكان قريب منها ، فاتصلت بصديقتها على الفور واقترحت أن أقوم بزيارتهم . بعد ذلك تحدثت العمدة أنا الى الكاهن بلغة المانية متمكنة ، ثم عادت فتحدثت الي وأعربت عن سرورها في حال زيارتي لصديقتها .

وصلنا الى فايمر في منتصف النهار ، وكان العرض سيبدأ وحديث هتلر في الثالثة ظهراً ، والمدينة تعيش في حالة من الإثارة ، وقد ارتدى أهلها أفضل ثيابهم وأخذوا يسرون في الشوارع حيث كانت تعزف فرق موسيقية تحت شرفات البيوت المزينة بالاكاييل والزهور والإعلام ، وكانت أجراس الكنائس ، البروتستانتية الكئيبة ، والكاثوليكية الجدلى،

تقرع سوية ، ودار الأوبرا تقدم مؤلفة فاغنر (رينزي) ، بالإضافة الى أعمال أخرى ستعرض بعدها .

جلست مع أسرة الكاهن قريباً من منصة الشرف ، واخذنا ننتظر ، نحسّي البيرة ونأكل الشطائر التي احتفظت زوجة الكاهن بها في أكياس دهنية ، ضمتها طوال الرحلة الى صدرها المتعرق .

ما أن دقت الساعة الثالثة حتى سمعنا صوتاً أشبه بالإعصار ينتشر ويدوي عبر الطرقات ، وظهر في الساحة موكب من السيارات السوداء المكشوفة . وارتفع الهدير أكثر فأكثر حتى طفى على قصف الرعد ، وبدأ المطر يتساقط مثل ستارة شفافة وانفجر الضجيج في المكان .

لم ينتبه أحد الى العاصفة والمطر ، فكل الإنتباه ، كل الحماس وكل المجد ، كانت مركزة على شخصية واحدة . كان يقف ثابتاً في السيارة السوداء الضخمة التي تتقدم ببطء عبر الساحة ، يتطلع الى الجماهير الفرحة والباكية ، والمطر ينهمر على وجهه ويبلل زيه العسكري . وعندما توقفت السيارة ، ترجل منها الى السجاد الاحمر وسار باتجاه المنصة الرئيسية وحاشيته ترافقه عن بعد .

وفجأة ساد الصمت وبقي صوت المطر وهو يتكسر على الطرقات الحجرية والشرفات . وتكلم الفوهرر . كان خطابه قصيراً لم أفهم منه الكثير ، لكن نبرة صوته كانت متفطرسة ومازحة وحركات يديه متزامنة مع ما يقوله . وما أن انتهى من حديثه حتى صاح الجميع « هايل » ، وتوقف المطر وشق ضياء دافئ طريقه عبر الغيوم القاتمة ، وبدأت فرقة موسيقية كبيرة تعزف وتدفق العرض من جميع الشوارع الى الساحة وحول المنصة ، ومضى بجانب المسرح والكاندراية .

لم أرَ في حياتي مثل هذا الهيجان الهائل . هتفت مثل الجميع ، ورفعت يدي مثل الجميع ، وعويت مثل الجميع ، واحببت مثل الجميع .

خلال أحداث المساء ، شرح لي هانز معنى واهداف الحرب في أثيوبيا ، وأنه من المهم حقاً ان موسوليني قد قرر في النهاية ان يلتفت الى تلك الامم الفارقة في الظلام ويمنحها بكرم شيئاً من مزايا الحضارة الإيطالية العريقة ، واذاف هانز الى اننا في اسكندنافيا لم تكن نعرف كيف قام اليهود باستغلال الشعب الألماني الذي اقام المتاريس ليواجه الشيوعية . وشرح لي كيف يجب علينا جميعاً ان نحب هذا الرجل الذي شكل مصيرنا المشترك ووجدنا باخلاص في بوتقة إرادة واحدة وقوة واحدة وشعب واحد .

قدمت لي الاسرة هدية بمناسبة عيد ميلادي ، وكانت عبارة عن صورة لهتلر ، علقها هانز فوق سريري مباشرة حتى أستطيع « رؤية الرجل امامي دائماً » ، فأتعلم كيف أحبه مثل هانز وباقي أفراد أسرة هايد .

ولقد أحببته لسنوات طويلة ، كنت مؤيداً له ، أفرح لانتصاراته وأحزن لهزائمه .

كان شقيقي أحد مؤسسي ومنظمي حزب الإشتراكيين الوطنيين السويدي ، وكان والدي يصوت لصالحهم في الانتخابات ، وكان أستاذ التاريخ يعبد « ألمانيا القديمة » ، وأستاذ الرياضة يذهب كل صيف للقاء الضباط في بافاريا ، وكان بعض كهنة الأبرشية نازبي النزعة والانتماء ، كذلك كان أصدقاء العائلة المقربون يعبرون باستمرار عن تأييدهم القوي « لألمانيا الجديدة » .



وعندما جاءت كل الأدلة من معسكرات الإعتقال ، لم أصدق عيني ، واعتقدت مثل الكثيرين غيري أن الصور مركبة وتهدف الى دعاية كاذبة. لكن الحقيقة هزمت مقاومتي في النهاية .

كنت مجرد طالب تبادل ، غير محصن ، وغير مهياً ، وجدت نفسي فجأة في جو متوهج بالمثالية وعبادة الفرد ، ومعرضاً لقدر كبير من العدوانية التي كانت تتلاءم هارمونياً مع تكويني . لقد اعمانى البريق الخارجي ولم أرَ العتمة .

عندما ذهبت الى مسرح غوتبزغ المركزي بعد عام من انتهاء الحرب كان هناك صدع عميق بين جبهتين ، تضم الاولى المعلقين الالمان العاملين في جريدة أوبا السينمائية ، ومنظمي غرفة الفيلم الوطني السويدي وبعض أصدقائهم ، وتضم الثانية معادي النازية ومحرر جريدة غوتبزغ التابع للتحالف ، وبعض الممثلين الدانمركيين والنرويجيين . كانوا يجلسون جميعاً في جو من الكراهية المتبادلة ، يأكلون طعامهم الذي أحضروه معهم ويشربون القهوة الباردة المقرفة .

وما إن يندق جرس المسرح حتى يخرجوا الى خشبة المسرح ويصبحوا أفضل فرقة مسرحية في البلاد .

لم اتحدث حول ضلالي وبأسي السابقين أمام أحد ، ولكن قراراً غريباً تشكل في داخلي : لا سياسة بعد اليوم ! بالطبع كان يجب أن اتخذ قراراً آخر مختلفاً تماماً .



استمرت الإحتفالات طيلة المساء وجزءاً من الليل ، ثم أوصلني الكاهن الى منزل المصري ، وكان عبارة عن شقة حديثة ولطيفة تحيط بها حديقة عطرة . صعدت الدرجات القليلة وقرعت الجرس ، ففتحت لي خادمة ترتدي فستاناً أسود وغطاء رأس مخزماً . عرفتها بنفسي وأنا أتلعثم ، فضحكت وسحبتني الى داخل غرفة الاستقبال .

كانت صديقة العممة أنا امرأة شقراء ضخمة ، وطيبة للغاية ، تدعى آني ، وكانت أمها سويدية ووالدها أميركياً ، وتحدثت لغة سويدية

مكسرة ، وترتدي ثياباً أنيقة للغاية إذ كانت ذاهبة في تلك الأمسية مع زوجها لحضور عرض في الأوبرا . قادنوني الى غرفة الطعام حيث كانوا يتناولون وجبة باردة ويشربون الشاي ، وشاهدت أمامي أجمل مخلوقات إنسانية يمكن أن أراها ، وقد تحلقت حول الطاولة المرتبة بعناية . كان الزوج رجلاً طويلاً أسمر له لحية مشدبة ونظرات ذات تعابير ساخرة ، والى جانبه كانت تجلس الابنة الصغرى كلارا ، أو كما يدعونها كلارشن ، وكانت تشبه والدها ، طويلة ، سمراء ، ذات عيني سوداوين وفم شاحب ممتلئ ، وكان بها حَوْلٌ طفيف يزيد من جمالها بطريقة غير مفهومة .

كان شقيقها الكبيران أسمرين ذوي عيون زرقاء ، وكانا يرتديان سترتين فضفاضتين من الطراز الإنكليزي ، وقد طُرزت عليهما من ناحية الصدر ، شعارات الجامعة .

جلست الى مقعد بجانب العمّة آني التي كانت تصب الشاي وتوزع الشطائر ، نظرت حولي فشاهدت اللوحات معلقة في كل مكان، وشاهدت الفضيات والسجاد الناعم على الأرضية الخشبية اللامعة والأعمدة الرخامية والستائر الثقيلة ، وفي الغرفة المجاورة كانت الشمس الغاربة تلقي بضياؤها على النافذة الوردية .

عندما انتهينا من تناول الوجبة ، أخذتني العمّة آني الى غرفتي في الطابق الأول ، بجانب جناحي الشقيقين ، وبعد أن أرّنتي كل هذه الرفاهية ، ودعتني إذ كان زوجها والسائق بانتظارها .

ظهرت كلارشن وهي ترتدي حذاءً عالي الكعب (مما جعلها أطول مني) وفستاناً عادياً أحمر اللون ، ووضعت أصبعها على شفيتها مثل من يدعو الى مؤامرة لطيفة .

أمسكتني من يدي وقادتني عبر ممر طويل ومن ثم الى غرفة علوية غير مستخدمة بسبب أثائها المفطى وثريتها المغلفة بحبر رقيق ، وكانت

الغرفة مضاءة بشموع ينعكس لهبها على المرايا الجدارية الضخمة ،
وهناك وجدت شقيقي كلارشن يدخان السيجار التركي العريض
ويشربان البراندي ، وقد وضعا أمامهما على طاولة مطلية بالذهب جهاز
غرامافون .

كانت الاسطوانة وعليها شعار شركة تليفونكن الأزرق ، جاهزة في
مكانها ، وعندما وُضعت الإبرة على طرفها الخارجي بدأت تخرج من
الصندوق الأسود الحان مكبوتة وخشنة من (أوبرا القروش الثلاثة) .

طافت في الغرفة رائحة السيجار المعطر اللاذعة وأضاء القمر الأشجار
في الحديقة ، ورايت كلارشن وقد التفتت نصف التفاتة ، تحديق نحو
انعكاس وجهها على المرآة المعلقة بين نافذتين وتضع يدها على إحدى
عينها . صب ديفيد المزيد في كأسه فانفجرت أمام عيني غشاوة رقيقة .

انتهت (أوبرا القروش الثلاثة) ، ولم أفهم الكلمات ، أو على
الأقل ، قسماً كبيراً منها ، لكنني عوضاً عن ذلك ، ومثل حيوان داهية ،
استطعت أن أفهم نبرة الصوت ، وكان هذا الفهم يفوس عميقاً في داخلي
ليبقى جزءاً مني .

بعد عشرين سنة سنحت لي الفرصة لإخراج (أوبرا القروش الثلاثة)
على المسرح في السويد ، ورغم كل الإمكانيات الفنية والمادية التي وُضعت
تحت تصرفي فقد فشلت لأنني كنت أحمق وعابثاً ، ولم أستحضر وجه
كلارشن نصف المضاء ، وضوء القمر ورائحة السيجار التركي وصورة
ديفيد وهو ينصت باهتمام للغرامافون . كانت لدي فرصة السماع
لتسجيلات تليفونكن الخشنة تلك ، لكنني أصرت على أداء أوركسترالي
حديث . لقد كنت أبله من المقاطعات ، عبقرياً ريفياً ساذجاً . هكذا
كانت الأمور ، وهكذا هي الآن .

في تلك الأمسية غفوت نتيجة الإثارة والبراندي ، ثم استيقظت بعد
وقت قصير فوجدت نفسي مستلقياً على سريرى الكبير ، ورايت كلارشن

تجلس مقابلي ، عند طرف السرير ، تحديق بي بثبات وفضول . وعندما تأكد لها انني افقت ، أو ماتت برأسها مبتسمة وغادرة الغرفة دون أن تتفوه بحرف .

بعد ستة أشهر تلقيت رسالة من كلارشن بعثت بها من سويسرا ، وذكرتني مازحة بالوعد الذي قطعناه على أنفسنا بأن نتراسل . وكيف انني لم أف بالوعد ، وأخبرتني بانها عادت الى مدرستها المملة وأن والديها قد غادرا لزيارة اصدقاء في كندا ، وانها ستلتحق بمعهد الرسم بعد المدرسة ، وأن شقيقها تمكنا من العودة الى جامعتهم في بريطانيا بفضل وساطة السفير البريطاني ، وانها لا تعتقد بأن العائلة ستعود الى فايبر ثانية .

ذلك ما جاء على الصفحة الاولى من الرسالة ، اما على الصفحة الثانية فقد كتبت :

« اسمي الحقيقي ليس كلارا ، وإنما ثيا ، وهو غير مكتوب في جواز السفر . اما نشأتي الدينية ، فهي كما ذكرت لك ، أورثوذكسية صارمة ، واعتقد انني امثل ابنة طيبة وفق معايير والدي .

لقد عانيت من امراض جسدية كثيرة ، أسوأها حالة الهيجان التي تلاحتني كالكابوس منذ سنتين ، بالإضافة الى حساسيتي المفرطة . إن ردة فعلي عنيفة تجاه الأصوات المفاجئة والروائح الكريهة والأضواء الباهرة (أنا عمياء في عين واحدة) . إن الضغط الطبيعي لفستان ما قد يدفعني للجنون والألم . عندما كنت في الخامسة عشرة تزوجت من ممثل نمساوي شاب ، فقد أردت أن أبدأ مع المسرح ، لكن زواجنا لم يكن سعيداً ورزقت بطفل ما لبث أن توفي ، فعدت الى المدرسة في سويسرا ، وأنا ابكي الآن .

حتى عيني الزجاجية تدمع .

ادعيت انني قديسة او شهيدة ، بوسعي ان اجلس ساعات طويلة قرب الطاولة في تلك الغرفة المفلقة (حيث كنا نستمع الى التسجيلات المنوعة) ، واتأمل راحتي يدي ، وذات مرة احمرت راحتي اليسرى وبدا وكأن الدم سيتفجر منها . ادعيت انني اضحي بنفسي من اجل شقيقي واحفظهما من خطر مميت . ادعيت النشوة والحديث مع العذراء المقدسة ، ادعيت الإيمان والكفر ، التحدي والشك . ادعيت انني خاطئة مرتدة يعذبها إحساس بالذنب غير محتمل . وفجأة رفضت الذنب وغفرت لنفسي . الأمر كله مجرد لعبة . إنني ادعي ذلك .

وضمن اللعبة اكون أحيانا في غاية المساوية ، وأخرى مبتهجة الى أقصى الحدود . لقد وثقت بأحد الأطباء (كنت التقيت الكثير منهم) وقال لي إن أحلامي وحياتي التافهة ستفسد جهازني العصبي ، ووصف لي أشياء محددة تجبرني على مغادرة سجن أنانيتي المركزة ، منها النظام ، والانتظام الذاتي والاختبارات والمشدات النسائية . أما والذي اللطيف والحكيم والذي يجمع حساباته بهدوء فأخبرني بأنني يجب ألا اقلق ، وأن كل شيء موجود في كل الأشياء ، وأن العيش هو عذاب يمكن التغلب عليه بالاستقالة من الحياة ولكن يفضل من دون سخرية . لست تواقفة لمثل هذه الجهود ، وأفكر بالذهاب بعيداً في العابي ، وعلى نحو أكثر جدية ، إذا كنت تفهم قصدي .

أرجوك اكتب لي بسرعة وأخبرني عن كل شيء باللفة التي تريدها ، ما عدا السويدية ، التي ربما قد أتعلمها في يوم ما . اكتب وحدثني عن نفسك ، أنت يا شقيقي الأصغر . أشتاق إليك » .

بعد ذلك أوردت ملاحظات تتعلق بعنوانها الجديد ، وأنهت رسالتها بشكل تقليدي ولكن مؤثر : « عزيزي انغمار ، أعانقك بقوة . أما زلت نحيلاً على ذلك النحو المخيف ؟ كلارا . » .

لم أجب على رسالتها أبداً . كانت صعوبات اللغة شاقة ، ولم أرغب في أن أبدو أحمق أمامها ، لكنني احتفظت بالرسالة واستخدمتها كلمة كلمة في فيلم (الطقوس) عام ١٩٦٩ .

بعد أيام قليلة في فايمر ، وأسبوع مرعب في هانية ، تورطت في جدال ديني مع الشماسة العجوز عندما اكتشفت أنني أقرأ سترندبرغ . قالت إنه راديكالي متطرف ، يكره النساء وبهزاً بالرب ، ثم وبختني وابتدت اعتراضها على قراءاتي متسائلة حول امكانية زيارة هانز لأسرة مثل اسرتي تسمح بوجود أدب مماثل في بيتها أجبتها بلغة المانية ركيكة أننا في بيتنا بالوطن نتمتع بحرية الدين وحرية التعبير (فجأة وجدت أن الديمقراطية أمر مناسب) . خدمت عاصفة الجدل ، وبدأنا أنا وهانز استعدادتنا للسفر .

توجهنا إلى برلين من حيث سيقلنا قطار خاص الى استوكهولم ، ونزلنا في فندق ضخم مخصص للشباب على مشارف المدينة ، وبفضل تعزيزات مادية سرية من قبل العمدة آني فقد استطعت الهروب من جولة سياحة مقررة للاماكن الاثرية وماشابه .

ركبت الباص خارج الفندق وبقيت فيه حتى توقف عند المحطة الأخيرة . كان يوماً حاراً من شهر تموز ، والساعة تقارب السادسة بعد الظهر . اخترت طريقاً بشكل عشوائي ومشييت فيه إلى أن وجدت امامي جسراً هائلاً يسمى كرفور شتينبروك ، وقصراً على الطرف الآخر للنهر . وقفت ساعات عديدة عند سور القصر أراقب الغروب والظلال القاتمة فوق النهر النتن ، وانصت إلى الهدير المتزايد .

عبرت جسراً آخر فوق نهر ضيقاً ، وعلى طرفه رصيف خشبي غارق ، حيث يرسو مركب رحلات كبير ، يجلس على متنه رجلان يصطادان السمك ويشربان البيرة . وجدت نفسي منقاداً إلى جانب المدينة حيث تبطأ الحركة . لم يحدث شيء ، ولم تبداني أية عاهرة

بالكلام رغم أنهم بدأنا يتخذون مواقعهم . شعرت بالجوع والعطش لكنني لم أجرؤ على الدخول إلى أي مكان .

سقط الليل ، ولم يحدث شيء . أنهكني التعب وخيبة الامل فركبت سيارة اجرة ابتلعت ماتبقى لدي من نقود وعدت إلى الفندق ، وعندما وصلت وجدتهم على وشك الإتصال بالشرطة ليلبغوهم عن ضلعي .

في الصباح التالي سافرنا الى استوكهولم بواسطة قطار بضائع خاص لانهاية له ، مقاعده خشبية وسقفه مفتوح . انهمر المطر . فوقفت تحت سيله المتدفق انصت للضحيج والعب دور شخص أحرق لعلي اثير اهتمام احد ، او فتاة ما . بقيت على هذا النحو ساعات ، وعندما ركبنا المعدية فكرت في القفز الى الماء ، لكنني خشيت أن تفرمني مراوح المعدية . وباقتراب الليل تظاهرت بأنني ثمل قد سقط أرضاً ويحاول أن يتقيأ إلى أن تدخلت أخيراً صبية ريانه لها نمش في وجهها ، وسحبيني من شعري وهزنتي جيداً وحذرتني بصراحة بأنني لايجب أن ابدو كالحمار . فتوقفت فوراً ، ثم اتجهت إلى إحدى الزوايا ، وجلست والتهمت برتقالة وغفوت . وعندما استيقظت كنا قد وصلنا إلى سيودرتالي .

لقد زرت برلين في أحلامي مرات عديدة ، ولم تكن برلين الحقيقية ولكن مدينة مبنية على خشبة المسرح ، مدينة ضخمة ذات ابنية عملاقة، مسودة من الدخان ، وأبراج كنائس وثمانيل . كنت اطوف فيها وسط زحام السير الرهيب وكل شيء يبدو مألوفاً وغريباً في آن واحد . أحيانا أشعر بالرعب والبهجة وأعرف تماماً إلى أين أذهب . أبحث عن مكان ما وراء الجسور ، ذلك الجزء من المدينة حيث أعرف أن شيئاً ماسيحدث أنسلق هضبة شديدة الإنحدار وأرى الطائرة تحلق فوق البيوت ، وفي النهاية أصل إلى النهر حيث يرفعون منه حصاناً ميتاً هائلاً الحجم كالحيوت .

يدفعني الفضول والخوف الى الامام ، يجب أن أكون هناك في الوقت المحدد وأشهد الإعدام العلني . بعد ذلك التقى زوجتي

الراحلة ، فنتماثق بحنان ونبحث عن غرفة في فندق حيث يمكننا أن نمارس الحب . انها تمضي بخطوات سريعة ورشيقة امامي وأنا أمسك بها من وركها . مصابيح الشارع لاتزال مضاءة رغم الشمس الساطعة ، السماء سوداء لها صرير عالٍ . والآن أعرف أنني وصلت الى المنطقة المحرمة . هاهو المسرح هناك ، مع ذلك العمل الفني العميق الذي لا يمكن سبر أغواره .

لقد حاولت ثلاث مرات ان اخلق مدينة حلمي . في المرة الاولى كتبت مسرحية اذاعية بعنوان (المدينة) ، وتدور أحداثها حول مدينة ضخمة غارقة في الفساد والتعفن ، أبنيتها منهارة وشوارعها مهدامة . بعدها بسنوات قليلة أخرجت فيلم (الصمت) حيث تضع شقيقتان وصبي صغير من مدينة هائلة موحشة لا يعرفون لفتها . وأخيراً قمت بمحاولة جديدة من خلال فيلم (بيضة الثعبان) ، والذي يعود سبب اخفاقه الفني الى أنني أسميت المدينة برلين وقررت أن تكون الأحداث في زمن العشرينيات . كان هذا قراراً أحمق وبلا معنى . ولو أنني خلقت مدينة حلمي ، هذه المدينة التي لم ولن تعلن عن نفسها من خلال خطورتها وروائعها وصخبها العالي ، لو أنني خلقت هذه المدينة فعلاً ، فعندئذ لا أكون قادراً على التحرك بحرية كبيرة ، والاحساس المطلق بالانتماء فحسب ، بل الأهم من ذلك أنني سأأخذ جمهور المشاهدين الى عالم غريب ومألوف بالنسبة لهم . من سوء الحظ أنني سمحت لتلك الرحلة التي قمت بها في برلين ، في منتصف الثلاثينيات ، أن تقودني بشكل خاطيء، وفي أمسية لم يحدث فيها شيء. في فيلم (بيضة الثعبان) قدمت مدينة برلين بحيث لم يتعرف عليها أحد ، ولا حتى أنا .



عُينَ والدي مسؤولاً في أبرشية هيدفغ اليانورا في استوكهولم ، وانتقلت العائلة الى شقة تابعة للكنيسة في شارع ستورغاتن ، حيث خصصت لي غرفة كبيرة تطل على ساحة اوسترمالم . اصبح طريقي للمدرسة مختصراً وبدأت أستمتع بمزيد من حرية الحركة .

كان والدي واعظاً ذا شعبية يكتظ بيته بالزوار دائماً . وكان راعياً صالحاً ، يقظ الضمير ، يتمتع بموهبة نادرة تتمثل بذاكرته الخارقة في استيعابها الناس . فخلال السنوات الماضية ، كان قد عمد ومنح التثبيت الديني وزوج ودفن أكثر من أربعين الفاً من رعايا الأبرشية ، وكان يعرفهم جميعاً ، ويعرف أسماءهم وأحوالهم ، لذلك كان السير معه اجراءً معقداً لأنه كان يتوقف باستمرار لتبادل التحية مع الناس والتحدث اليهم والسؤال عن اطفالهم وأحفادهم وأقاربهم . وبقي والدي، رغم تقدمه بالسن ، يحافظ بنجاح على هذه الموهبة .

كان راعياً للأبرشية وادارياً حاسماً وديبلوماسياً في آن واحد . لم تكن لديه فرصة لاختيار الأشخاص الذين يعملون معه ، فبعضهم كان ينافسه على منصبه والبعض الآخر كانوا كسالى ، منافقين ومتدليلين ، وقد تمكن والدي من ابقاء كل نشاطاته وفعالياته خارج اطار المشاجرات والمكائد الكهنوتية .

ووفق العادة كان بيت الكاهن مفتوحاً للجميع ، وكانت أمي تمثل قوة أساسية في الأعمال الخيرية التابعة للكنيسة . توجد باستمرار الى جانب والدي في كل المناسبات وتجلس أثناء المواعظ تنصت باهتمام وصدق ، وتشارك في المؤتمرات وتقيم حفلات عشاء . أما شقيقي الذي

بلغ العشرين من عمره فقد التحق بجامعة أوبسالا ، وكنت أنا قد بلغت السادسة عشرة وشقيقتي الثانية عشرة . كانت حريتنا النسبية مرتبطة تماما بعبء العمل المفرط الذي يتحمله والدانا ، كانت حرية مسومة ، وتوترا هائلا ، ومشاكل يصعب حلها . ما كان يبدو من الخارج صورة متكاملة لمجتمع عائلة سالحة ، كان في حقيقة الأمر بؤساً وصراعات مضية ، وكان والذي يتمتع بقدرة لا بأس بها على التمثيل ، أما بعيدا عن المنصة فكان عصيبا ونزقا ومتجبرا ، ينتابه خوف دائم من الا يكون ملائما ، فيكاد ينازع قبل ظهوره أمام الرعية ، ويعيد كتابة مواعظه مرات عديدة ، ولا يتساهل مطلقا تجاه واجباته الادارية ، ويبقى قلقا ، يفقد مزاجه وينفجر بسرعة حتى لاتفه الأسباب . لم يكن مسموحا لنا ان نصفر او نسير وأيدينا في جيوبنا ، وكان يقرر فجأة مراجعة وظائفنا المدرسية ، ومن يخطيء يعاقب فورا . لقد كان والذي يعاني من حساسية زائدة في السمع تجاه الأصوات المرتفعة التي تثير غضبه ، فقام بعزل جدران غرفتي نومه ومكتبه لكنه بقي يتدمر من ضجيج السيارات ، القليلة في ذلك الوقت .

أما أمي فكانت تتحمل عبئا مزدوجاً ، فبقيت متوترة باستمرار ، لا تنام جيدا وتتعاطى علاجا قويا سبب لها تأثيرات داخلية ضاعفت من قلقها وتعبها . وكانت تشبه والذي عندما يملكها احساس بأنها غير ملائمة للطموحات الكبيرة ، وكان عذابها الأكبر يتمثل في هاجسها بأنها قد تفقد التواصل معنا ، نحن أولادها ، فبدأت تعطي اهتماما أكثر لشقيقتي المهذبة والمطبعة ، وأرسلت شقيقي الى جامعة أوبسالا بعد محاولته الفاشلة للانتحار ، أما أنا فكنت أغوص في عالمي الخاص ، أعمق فأعمق .

من المحتمل جدا انني أبالغ في قتامة المشهد . كان والذي يعبر أحيانا كثيرة عن رغبته بالعمل كقس في الريف . اذ ان التحديات التي يتطلبها مثل هذا العمل أكثر ملائمة بالنسبة له ، أما أمي فكتبت في يومياتها السرية أنها تريد الانفصال عن والذي والرحيل الى إيطاليا .

ذات أمسية سمحت لي أمي بمرافقتها لزيارة صديق قديم يعمل مديرا لدار النشر التابعة للكنيسة ويدعى العم بير . كان قد تزوج . ثم انفصل عن زوجته وعاش وحيدا في شقة معتمة كبيرة في فاساتادن . وعندما وصلنا الى شقته وجدنا الاسقف ، العم تورستن ، صديق والدي منذ الطفولة .

عهد إليّ بمهمة العمل على غرامافون العم بير الكبير في غرفة الطعام حيث كان الموسيقي تصدح بصوت عالٍ ، وكانت غالبا لموزارت أو فيردي . توأرى العم بير في مكتبه لبعض الوقت وجلست أمي مع العم تورستن قرب المدفأة في الصالون واستطعت أن أراهما من خلال شق الباب الفاصل بين الغرفتين . كانت نار المدفأة تضيء جانبا من وجهيهما ، وكان العم تورستن ممسكا بيد أمي ، وكانا يتحدثان بهدوء فلم أستطع سماع حديثهما بسبب الموسيقي ، ثم رأيت أمي تبكي والعم تورستن ينحني قريبا منها وهو لا يزال ممسكا بيدها .

بعد ساعات قليلة أوصلنا العم بير الى المنزل بسيارته السوداء الكبيرة ذات المقاعد الجلدية .

في الصيف والشتاء كنا نتناول العشاء عند الخامسة مساءً . فعندما تدق ساعة غرفة الطعام كنا نقف هناك ، كل وراء كرسيه ، نظيف اليدين ممشط الشعر . تتلى الصلاة . ثم نجلس ، أبي وأمي عند حافتي المائدة المتقابلتين ، أنا وشقيقتي في جانب وشقيقي والأنسة آغدا في الجانب الآخر . وكانت الأنسة آغدا لطيفة وطويلة ، ومتقلبة بشكل ما ، تعمل معلمة في مدرسة ابتدائية ، وبقيت لمدة طويلة تعطينا دورسا خصوصية وأصبحت صديقة حميمة لأمي .

كانت كريات الثريا الزجاجية تنشر ضوءا ضبابيا أصفر فوق المائدة . . تبدأ الوجبة مع مخلل الرنجة والبطاطا أو مع اللحم والبطاطا ، وكان والدي يشرب الشنابس ممزوجا بالبيرة . تضغط أمي على زر

جرس كهربائي صغير مخفي أسفل حافة المائدة فتظهر الخادمة بزيبها الأسود وتأخذ الصحون والسكاكين ، ثم تقدم الطبق الرئيسي الذي يكون في أفضل أحواله عبارة عن كرات من اللحم وفي أسوأها معكرونة بالسجن . كنا حذرين للغاية في عدم التعبير عن استيائنا . كان يجب ان نأكل كل شيء ، وكنا نأكل كل شيء .

عندما تنتهي الوجبة الرئيسية ويفرغ والذي من مشروبه ، تحمر جبهته لسبب ما . كنا نأكل بصمت فالأطفال لا يتكلمون أثناء الطعام الا اذا وجهت أسئلة اليهم . السؤال الالزامي : « كيف كنت اليوم بالمدرسة ؟ » . يليه الجواب الالزامي : « جيد » . « هل اضطررت لاعادة كتابة الموضوع ؟ » « لا » . « أي سؤال وجه اليك ؟ وهل استطعت الاجابة عليه ؟ » . « نعم بالطبع » « لقد اتصلت بمعلم الصف وعرفت انك نجحت بالرياضيات .. هذا جيد .. » .

ويبتسم والذي بسخرية وتناول امي دواءها . كانت قد أجرت عملية جراحية كبيرة مؤخراً وواظبت على الدواء لفترة طويلة . التفت والذي الى شقيقي قائلاً : « قلد لنا ذلك الأبله نلسون » . كان شقيقي موهوباً في تقليد الآخرين وعلى الفور تدلت شفته السفلى وجحظت عيناه وانضبط أنفه وبدأ يتمتم بصوت ثخين . ضحك والذي وابتسمت امي على مضمض . قال والذي فجأة : « يجب أن تطلق النار على رئيس الوزراء بير ألين وعلى مجموعة الاشتراكيين كلهم » . فردت امي بنبرة حازمة « يجب ألا تقول مثل هذا الكلام . » . « مثل أي كلام ؟ الا أستطيع أن أقول إننا محكومون من قبل رعاك وقطاع طرق ؟ » . حاولت امي أن تغير الموضوع ، فقالت : « يجب أن نرتب المواعيد للقاء مجلس الكنيسة » . فأجاب والذي وقد أصبح لون جبهته قرمزياً : « لقد سبق وقلت هذا مرارا » . خفضت امي عينها وحدقت بصحن الطعام ، ثم التفتت الى شقيقتي وسألتها بلطف : « اما زالت ليليان مريضة ؟ » فأجابت مارغريتا بصوت ضعيف : « سوف تعود للمدرسة

عدا» ، ثم أضافت بتردد : « ألا نستطيع دعوتها للعشاء مساء الاحد القادم ؟ » .

ساد الصمت في الغرفة المضاءة بالنور الاصفر ، وبقيت الساعة تتكك . قال والدي : « لقد عينوا بيرونيوس على الرغم من توصيه الكاتدرائية بالفارو . هكذا هي الامور وهكذا ستبقى .. لا كفاءة .. وحماسة » هزت أمي براسها وقد ارتسم على محياها تعبير ازدياء خفيف ، وسالت : « اصحيح أن اربورليوس سوف يلقي عظة الجمعة الحزينة ؟ » .

فاجاب والدي : « لا احد يستطيع أن يسمعه وهو يتكلم ... وربما هذا أفضل ... » وانفجر ضاحكاً .



بعد الامتحانات النهائية في المدرسة سافرت أنا ليندبرغ ، حبي الاول ، الى فرنسا لتحسين لغتها الفرنسية ، وبعد سنوات قليلة تزوجت هناك وأنجبت طفلين ثم أصيبت بشلل الأطفال . أما زوجها فقد قتل في ثاني أيام الحرب ، بعد أن فقدت الاتصال بها وجدت لنفسي صديقة جديدة .

كانت سيسيليا فون غوتهارد فتاة ذكية سريعة البديهة حمراء الشعر وأكثر نضجاً من كل معجبيها ، وبقي اختيارها لي من بين الجميع سراً غامضاً . كنت عاشقاً ميئوساً منه وراقصاً سيئاً ومتحدثاً لا يهدأ عن الكلام حول نفسه . ارتبطنا سوية لفترة ثم أنهت سيسيليا علاقتنا قائلة انني لن احقق شيئاً ولن أصل الى أي مكان في حياتي ، وهو رأي كنت أشاركها به ، ويشاركها به أيضاً والدي وكل من يحيط بي .

كانت سيسيليا تعيش مع أمها في شقة قهيبية باوسترالم . كان والدها شخصاً مهماً في الادارة . عاد ذات يوم مبكراً من عمله وذهب

الى سريره ورفض أن يفادره ، ثم أمضى بعض الوقت في مشفى للأمراض العقلية وانجب طفلا من ممرضة شابة وانتقل ليعيش معها في مزرعة صغيرة في جامتلاند .

أما والدة سيسيليا فقد شعرت بالخجل الشديد تجاه هذه الكارثة الاجتماعية ، فانتقلت الى غرفة الخادمة المعتمة خلف المطبخ ولم تظهر الا نادراً مع أول الليل . تشقق وجهها الضعيف تحت شعرها المستعار من الألم والمهانة وبدأت تبقي كالدجاج عندما تتحدث فلا يفهم كلامها الا بصعوبة ، وتهز رأسها وكتفيها بحركات عنيفة ومفاجئة ، وكان واضحاً أن في لمحات سيسيليا الجميلة وتصرفاتها شيئاً من أمها . وقد قادني هذا في وقت لاحق الى اتخاذ القرار بأن دوري الام وابنتها الشابة في مسرحية سترندبرغ (سوناتا الاشباح) يجب أن تؤديهما المثلة نفسها .



ما ان تحررت من أنظمة المدرسة الحديدية حتى اندفعت مثل حصان هائج ولم أتوقف الا بعد ست سنوات عندما أصبحت مخرجاً في مسرح هيلسنبورغ البلدي . تعلمت شيئاً من تاريخ الادب بواسطة مارتن لام الذي كان يقرأ محاضرات حول سترندبرغ بنبرة مازحة تأسر انتباه القاعة كلها . وقد ادركت فيما بعد روعة تحليلاته . انتسبت الى منظمة شبابية في المدينة القديمة تدعى ماستر - اولفسفاردن وحصلت على الامتياز بالاشراف على نشاطات الدراما فيها ، ثم التحقت بدورة للدراما في جامعة استوكهولم وتعرفت الى ماريا . كانت تؤدي دور الام في مسرحية (البجع) ولها صيت ذائع داخل الاوساط الطلابية . كانت مكتنزة الجسم ، كثفاها منحدران ، صدرها مرتفع ووركاها كبيران ، وجهها مسطح وانفها طويل ودقيق ، جبهتها عريضة وعيناها زرقاوان داكنتان معبرتان ، فمها رقيق تميل زاويتاه الى الاسفل قليلا ، شعرها ناعم احمر . كانت موهوبة فيما يتعلق باللغات الاجنبية وقد نشرت مجموعة شعرية بمباركة من ارثر لوندكفيست . وفي الامسيات كانت تجلس الى

طاولة في احدى زوايا مقهى الطلاب تشرب البراندي وتدخن سحائر
أمريكية تدعى غولدفلاك .

لقد منحني ماريا كل التجارب والخبرات الممكنة وأصبحت تريباقاً
رائعاً لكسلي العقلي وهمودي الروحي واضطرابي العاطفي ، كذلك أرضت
تعطشي الجنسي وحطمت قضبان السجن وحررت ذلك المجنون الهائج .

استأجرنا غرفة ضيقة في الجانب الشمالي لاستوكهولم ، تحتوي
على رفوف للكتب وكرسیين وطاولة مع مصباح للقراءة وسريرين وخزانة.
كنا نحضر الطعام داخل الخزانة ونستخدم حوض المفصلة للاستحمام
وغسل الاطباق . كنا نجلس ونعمل . كل منا ينهمك في أموره الخاصة ،
وكانت ماريا تدخن بلا توقف ، فقامت ذات مرة بإجراء هجوم مضاد
وأشعلت سيجارة دفعا عن النفس وسرعان ما تحولت الى مدخن شره .

اكتشف والدي أنني أمضي الليالي خارجاً ، فأجريا التحقيقات
اللازمة وظهرت الحقيقة ، فطلبنا مني أن أوضح موقفك لكنني رفضت ،
ونتج عن ذلك مشادة كلامية مع والدي . حذرته من أن يضربني ، لكنه
ضربني فوجهت له ضربة مقابلة فترنح الى الخلف وسقط أرضاً في حين
كانت أمي تنتحب وتناشدنا العودة الى صوابنا . دفعتمنا جانبا فصرخت .
وفي تلك الامسية كتبت لهما رسالة ، قلت فيها اننا لن نلتقي ثانية أبداً .

تركت المنزل يغمرنى احساس بالراحة وبقيت بعيداً عنه
لسنوات عديدة .

حاول شقيقني أن ينتحر ، وأجبرت شقيقتي على الاجهاض حرصاً
على سمعة العائلة ورحلت أنا عن المنزل . وهكذا عاش والداي في حالة
ارهاق دائمة مليئة بالازمات التي لا بداية لها ولا نهاية ، لكنهم استمروا
في تأدية حياتهما باذلين أثناء ذلك جهوداً جبارة ، وتضرعا الى الله طلباً
لرحمة اذ لم يجدا الخلاص في معتقداتهما وأفكارهما وتقاليدهما . كانت

دراما أسرتنا قد أعدت ومثلت سابقاً أمام أعين الجميع على خشبة بيت الكاهن المضاء بقوة . لقد خلق الخوف ما كان يخشى منه .



تلقيت عروضاً مهنية . فقد عرضت علي مديره الانتاج بالمرح بريتا فون هورن وكاتب مسرحياتها أن اعمل مع ممثلين محترفين ، كما طلبت مني لجنة الحدائق العامة أن أقدم مسرحيات خاصة بالاطفال ، فدأت اعمل في مسرح صغير وسط المدينة . وقدمت غالباً مسرحيات للاطفال ، لكنني حاولت في الوقت نفسه أن أجرب العمل على مسرحية سترندبرغ (سوناتا الاشباح) ، وكان جميع الممثلين محترفين ، يتقاضى كل منهم عشرة كرونات كل ليلة . لكن هذه المغامرة انتهت بعد سبعة عروض .

ووجدني بعد ذلك ممثل جوال كان يبحث عني ويريدني أن أخرج له مسرحية أخرى لسترندبرغ وهي (الاب) ، بحيث يؤدي هو الدور الرئيسي فيها . كان الاغراء قوياً فوافقت ، خصوصاً وانني كنت سأسافر مع الفرقة في جولة وبهذه الطريقة أستطيع تأجيل الامتحان في تاريخ الادب . وهكذا تركت دراستي وودعت ماريا وغادرت مع شركة جونانان إسبيورنسون وقدمنا عرض الافتتاح في مدينة صغيرة بشمال السويد وحضره سبعة عشر شخصاً فقط . وجاءت تعليقات الصحف المحلية في الصباح التالي مريرة ولاذعة ، فتشنت الفرقة وبدأ كل واحد من أعضائها يبحث عن طريقه للعودة الى منزله . أما أنا فكنت املك بيضة مسلوقة ونصف رغيف خبز وستة كرونات .

كانت عودتي مشينة للغاية ، ولم تستطع ماريا ، التي كانت نمد ذهابي منذ البداية ، أن تخفي احساسها بالنصر ، أو أن تخفي سر عشيقها الجديد . فأمضى ثلاثتنا بعض الليالي في الغرفة الضيقة قبل أن يلقي بي خارجاً متورم العين وملوي الابهام . لقد كان منافسي اقوى مني .

في المرحلة ذاتها عملت مساعداً للانتاج ، من دون مرتب ، في دار الأوبرا ، وساعدتني راقصة باليه لطيفة فأعطتني نقودا ووفرت لي غرفة مناسبة لبضعة أسابيع ، وكانت أمها تحضر لنا الطعام وتغسل الملابس الداخلية . شفيت من قرحتي المعديّة وحصلت على عمل جديد كملقن أثناء أوبرا (أورفيوس في العالم السفلي) لقاء ثلاثة عشر كرونا في الليلة مما مكّني من استئجار غرفة جديدة والحصول على وجبة جيدة كل يوم .

وفجأة كتبت اثنتي عشرة مسرحية وأوبرا واحدة ، وبعد أن قرأهم كلايس هوجلاند ، مدير المسرح الطلابي ، قرر أن نعمل على (موت المثقب) وهي مسرحية منتحلة عن إحدى مسرحيات سترندبرغ ، الأمر الذي لم يخرجنني البتة .

ونجحت المسرحية وأشادت بها صحيفة سفنسكا داغبلادت، وحضر العرض الأخير منها كارل أندرس ويملنغ ، الذي عين مؤخرًا مديرًا لشركة سفنسك فيلم ، وستينا برغمان مديرة قسم النصوص بالشركة. وفي اليوم التالي اجتمعت مع ستينا وحصلت على وظيفة لمدة عام كامل وأصبح لدي مكتب خاص وطاولة وكرسي وهاتف ومشهد يطل على الأسطحة في منطقة كونفسفاتن ، بالإضافة إلى مرتب قدره ٥٠٠ كرون شهريًا .

أصبحت شخصًا محترمًا يعمل بوظيفة دائمة ، يجلس إلى طاولته كل يوم يحضر النصوص والسيناريوهات ، يكتب الحوارات ويضع الخطوط العريضة لمشاريع الأفلام . كنا خمسة أشخاص « عبيدين للسيناريو » نعمل تحت إدارة ستينا برغمان المقتدرة والحنونة ، وكان يظهر في منطقتنا أحيانًا بعض المنتجين ، مثل غوستاف مولاندر ، والذي يبقى ودودًا كلما بعدت المسافة الفاصلة بيننا . قدمت له سيناريو حول مرحلة دراستي في المدرسة فأعجب به ونصح باخراجه . وهكذا اشترت

الشركة السيناريو ودفعت لي خمسة آلاف كرون ، وهو مبلغ ضخيم جدا ، وعهدت بإخراج الفيلم الى ألف سيوبرغ الذي كنت معجبا به . وفي وقت لاحق استطعت ان أشق طريقي الى داخل الاستوديو .

كان اقتراحي بأن أعمل أثناء الفيلم كسكريت ، وكان كرما من ألف سيوبرغ ان يوافق فانا لم أجرب المشاركة بتصوير الافلام حتى الآن ولم تكن لدي فكرة عن طبيعة عمل السكريت ، وأثناء التصوير كنت شخصا مزعجا وشكلت عبئا عليهم ، فكنت أنسى وظيفتي الأساسية وأتدخل بعمل المخرج الى أن وجه الي اللوم فحبست نفسي في غرفة ضيقة وبكيت . لكنني لم أستسلم ، ففرص الاستفادة والتعلم من خبرات هذا المخرج الكبير كانت غير محدودة .

تزوجت إيزابيشر ، وكانت زميلتي في أيام الجولة الاخيرة وتعمل راقصة ومصممة للرقصات ، وتعتبر موهوبة جدا . كانت لطيفة وذكية ومرحة وعشنا في شقة بابراهامسبرغ . قبل اسبوع واحد من زواجنا هربت منها ، ثم عدت اليها ورزقنا بطفلة في الامسية التي سبقت ليلة الميلاد عام ١٩٤٣ .



أثناء تصوير فيلم (الأزمة) تلقيت عرضا بادارة المسرح المحلي في هيلسنبورغ ، وكان واحدا من أقدم المسارح المحلية في البلاد وقد أغلق لفترة ما . تحمس الوطنيون من أهل المدينة لاعادة افتتاحه واتصلوا بالعديد من المسرحيين الذين رفضوا العرض بعد اطلاعهم على المعطيات الأولية والأحوال المالية للمسرح ، فاتصلوا أخيرا بالناقد المسرحي هربرت جرفينوس وطلبوا مشورته فاقترح عليهم بأنهم اذا كانوا يبحثون عن شخص مهووس بالمسرح ، وموهوب ويتمتع بالمهارات الادارية الكافية (كنت قد أدت مسرحاً للاطفال في المركز المدني لمدة

سنة) فان عليهم ان يتحدثوا الى برغمان . وبعد تردد قصير عملوا
بنصيحته .

اشترت اول قبة في حياتي ووضعتها على رأسي لأعطي انطباعا
بالثبات الذي كنت افتقر اليه تماما ، وسافرت الى هيلسنبورغ
لألقي نظرة على المسرح . كان في حالة مروعة ، وبنائه قدر وامتداع .
وكانت الشركة تقدم عرضين اسبوعيا وتشير احصائياتها الى ان العرض
الواحد يحضره جمهور مؤلف من ثمانية وعشرين شخصا .

احببت هذا المسرح منذ اللحظة الاولى .

قدمت لائحة بالمطالب : يجب تغيير الشركة وتصليح البناء واعادة
تجهيزه وزيادة عدد المسرحيات، والمباشرة بجمع التبرعات. وبالدهشتي
إذ وافقت الادارة على مطلبي واصبحت اصغر مدير للمسرح في تاريخ
البلاد ، وبوسعي اختيار من أشاء من الممثلين والفنيين ، وكانت مدة
عقدي ثمانية اشهر وعلي ان اتدبر أموري بأفضل شكل ممكن .

كان المسرح مليئا بالبراغيث التي اكتسبت الشركة القديمة مناعة
ضدها ، أما الاعضاء الجدد ذوو الدماء الشابة فقد تعرضوا للقرص
بشدة ، وكانت انابيب الماء الممتدة من المطبخ تخترق غرفة ثياب الرجال
والبول يسيل من المراحيض على المكيفات المثبتة بالحائط ، وأجهزة
التدفئة تعمل بشكل سيء ، وعندما نزعوا أرضية الصالة وجدوا مئات
من الجرذان الميتة والتي تسمت بدخان فحم الكوك ، اما الجرذ الحي
الوحيد فكان قويا ولا يخشى الظهور أبدا ويهاجم قط مهندس المسرح،
فيفر القط السمين هاربا .

لا أريد أن يثرنى الحنين ، لكن هذا المكان كان بالنسبة لي جنة
على الأرض . كانت خشبة المسرح مهترئة وقذرة لكنها كانت تنحدر
بانسياب تجاه أضواء المقدمة ، الستارة مرقعة وممزقة ولكن مطلية

بالأحمر والأبيض والذهبي . وكانت غرف الملابس بدائية وضيقة ومجهزة بأربع مفاصل ، وكان هناك مرحاضان فقط لثمانية عشرة شخصا .

كنا نجري البروفات ونقدم العروض باستمرار . في السنة الأولى قدمنا تسع مسرحيات خلال ثمانية أشهر وفي السنة الثانية عشر مسرحيات ، وكنا نتدرب على المسرحية الواحدة لمدة ثلاثة أسابيع ثم يكون الافتتاح .

لم نقدم أية مسرحية أكثر من عشرين عرضا ، باستثناء ربي (1) رأس السنة الذي كان نجاحه باهرا فعرضناه خمسا وثلاثين مرة . كانت حياتنا اليومية مرهونة بالمسرح ، منذ التاسعة صباحا وحتى الحادية عشر ليلا ، وكنا نلهو قليلا لكن أحوالنا المادية تحد بقسوة من ابتهاجنا ، فيحظر علينا دخول مطعم الفراند الفاخر ويرحب بنا صاحب مطعم متواضع ويعد لنا طبقا خاصا من اللحم مع البيرة والشنابس ويتسامح معنا بالدفع ، وبعد بروفات أيام السبت كنا نتناول شوكولا ساخنة مع كريم مخفوق رائع المذاق (كانت أيام حرب) بالإضافة الى كعك شهى في مقهى فالن للحلويات بستورتورغت .

استقبلنا أهل هيلسنبورغ بكرم ومودة ، وكان بعض مواطنيها البارزين يدعوننا الى وجبات طعام متأخرة في بيوتهم ، وكان هناك صاحب متجر ثري يقدم لنا الطبق اليومي مقابل كرون واحدة ويؤجرنا غرفا في بناء قديم يعود زمنه الى القرن الثامن عشر تغطي واجهته نباتات الفرجينيا المتسلقة ، وتتزود بالماء فيه بواسطة مضخة يدوية موجودة في الفناء .

المرتب الأعلى كان ٨٠٠ كرون والأدنى ٧٠٠ كرون . تدبرنا أمورنا بأفضل طريقة ممكنة ، فكنا نستدين ونأخذ سلفا ولم يفكر أحد من

(1) عمل مسرحي يتألف من مزيج من الحوار والرقص والفناء .

بالاحتجاج ضد هذه الظروف البائسة . كنا نشعر بالامتنان لهذه الثروة المذهلة التي نملكها والتي تتمثل بإمكانية تقديم العروض المسرحية واجراء البروفات كل يوم . ونجح عملنا وكوفئنا عليه بعدد الحضور الكبير ، وبدأت صحف استوكهولم تشير الى عروضنا ونهضتنا المعنوية .
أقبل ربيع ذلك العام مبكرا فذهبنا برحلة الى ارليد ، وأقمنا عند طرف غابة تطل على شاطئ البحر وتناولنا طعامنا الملب وشربنا نبذا أحمر سيئا ، فثلت بسرعة وألقيت خطابا مشوشا وأشرت بمصطلحات وتعابير قاتمة الى أننا نحن العاملين في المسرح نعيش من روح الله وقد اختارتنا العناية الإلهية لنتحمل الألم والفرح . قام أحدهم وادى دورا لمارلين ديتريش تقول فيه : « عندما يكون عيد ميلادك سأكون ضيفتك الليلة كلها » . لم يعد أحد يستمع الي ، وسرعان ما بدؤوا يتحدثون بأمر أخرى ونهض بعضهم للرقص ، فشمرت بأنه أسيء فهمي ، فانسحبت بعيدا وتقيأت .

لم أصطحب زوجتي أو ابنتي الي هيلسينبورغ ، فقد حدث أن أصيبتا بالسل في الربيع وذهبت إلزا لتلقي العلاج في مصح خاص قرب الفستا حيث كانت رسوم العلاج تعادل راتبي الشهري ، وبعثنا بلينا الى مستشفى ساشسكا للاطفال ، واستمرت بتحرير النصوص لشركة سفنسك فيلم حتى أتمكن من مساعدتهما .

كنت وحيدا في إدارة المسرح ، يساعدني مدير مالي ، وهو شخص متميز يمتلك عددا من محلات الخردة في استوكهولم ، وكان قد عمل السنوات عديدة في مسرح البولفار برنيفاغن ، حيث قدمت عددا من المسرحيات ، وعندما عرضت عليه مرافقتي للعمل في هيلسنبورغ وافق دون تردد . كان ممثلا هاويا ويجب تأدية أدوار ثانوية ، وكان أعزب يعشق امرأة شابة وله شكل منفر ، ويعتبرني شخصا مجنونا ، لكنه يتسم دائما ويطلب مني أن أقرر شأنا ما ، فكنت أتخذ القرار بقسوة وقلب متحجر ، مما زاد احساسني بالوحدة .

كان من المفترض أن تعمل الزا مصممة للرقصات في المسرح لكنها
وبسبب مرضها أوصت باحدى صديقاتها وهي هيلين لوندستورم التي
كانت قد تزوجت لتوها من أشهر المصورين الفوتوغرافيين آنذاك ،
كريستر ستورمهولم . وهكذا حضرت الى هيلسنبورغ وسافر زوجها
الى افريقيا . كانت هيلين فتاة رائعة الجمال ، موهوبة وصادقة
وشهوانية للغاية .

ساد جو من الارتباك اللطيف في الشركة ، وظهرت حالات من الغيرة
لفترة ما . كان المسرح بيتنا ولم يمنع هذا من أن يشعر كل منا
بالاضطراب وبالحاجة الماسة الى رفيق .

بدأت علاقتي مع هيلين وسرعان ما اثمرت حملا . وفي ليلة الميلاد
التقيت الزا في استوكهولم بعد أن سمح لها الاطباء بزيارة أمها .
أخبرتها بما حدث وقلت لها إنني أريد الطلاق . ما زلت احتفظ في ذاكرتي
بتعبير وجه الزا عندئذ إذ امتزج فيه الحزم والالام . كانت تجلس الى
الطاولة في المطبخ وقد احمرت وجنتاها من المرض واغلقت فمها الطفولي ،
ثم قالت بهدوء : « عليك أن تدفع الإعالة . هل تستطيع توفيرها ، أنت
أيها الشيء الفقير ؟ » . فأجبتها بمرارة : « مادام كان بوسعي أن أدفع
٨٠٠ كرون شهريا لمصحك الخاص اللعين فلا شك أنني أستطيع توفير
الإعالة أيضا . لا تقلقي » .

أكاد لا اتعرف على هذا الانسان الذي كنته قبل أربعين عاما . كانت
محنتي عميقة وآلية القمع عندي تعمل بشكل فعال جدا ، وبصعوبة
أستطيع الآن استحضار صور تلك المرحلة . عندما كنت أشعر بالخطر ،
كنت أعض مثل كلب خائف . لم أثق بأحد ولم أحب أحدا ولم أشتق
الى أحد . استحوذ الجنس علي فكان يدفعني الى خيانات دائمة وكانت
تعذبني الرغبة والخوف والالام والاحساس بالذنب .

وهكذا كنت وحيدا ومنهلا ، وكان العمل في المسرح يخفف بعضا من التوتر الذي كان يزول في لحظات النشوة والثمالة . كنت اعرف أنني امتلكا قوة مقنعة وأن بوسعي ارغام الناس على فعل ما أريد ، وأن لدي جاذبية خاصة أوظفها حسب رغبتني ، وكنت اعرف أيضا أن لدي موهبة لأن أكون خائفا ينتابني الاحساس بالذنب ، فقد عرفت منذ طفولتي الكثير عن آلية الخوف . وباختصار ، كنت رجلا ذا سلطة لا يعرف كيف يستمتع بها .

كنا نشعر على نحو غامض بالحرب العالمية المستمرة حولنا . وعندما اخترق فضاء المدينة سرب طائرات امريكية ، مخترقا حاجز الصوت ، ضاعت كلمات الممثلين ولم نعد نسمع شيئا .

اتساءل أحيانا كيف تبدو طريقة عملنا ، فعندما أبدأ لا يكون لدي سوى بعض الصور الفوتوغرافية وقصاصات جرائد مصفرة اللون . أوقات البروفات قصيرة ، وكل ما حققناه كان يشبه حيلة مركبة بسرعة، واعتقد ان هذا جيد ومفيد . يجب أن يواجه الشباب باستمرار تجارب واختبارات جديدة ، يجب ان تجرب الاداة وتمارس جيدا ، فالتقنية لا تتطور الا من خلال التواصل الثابت والمستمر مع الجمهور . في العام الاول أخرجت خمس مسرحيات ، ورغم أن النتائج مشكوك فيها الا أنني أعتقد أنها كانت تجارب مفيدة . ولم يكن احد منا يتمتع بالادراك الكافي والخبرة الحياتية العميقة من أجل سبر أغوار وخفايا دراما ماكبث.

غادرت المسرح ذات ليلة وتوجهت الى المنزل عندما بدأت أشمر بالقلق فجأة حول الطريقة التي سأعالج بها ظهور الساحرات الثلاث في المسرحية . تصورت ماكبث وزوجته في السرير ، الليدي ماكبث مستغرقة في نومها وماكبث بين الحلم واليقظة ، تمر على الجدار بسرعة أخيلة محمولة ، ثم تظهر الساحرات من الارض ويقفن عند مقدمة السرير ، يتهامسن ويضحكن ضحكات خافتة وأذرعهن تتحرك باتجاه

واحد مثل أعشاب مغمورة بالماء . وفي الكواليس يقوم أحدهم بطرق
أصابع البيانو بصخب وعنف ، ينهض ماكبث من فراشه نصف عاري
ويشبح بوجهه بعيدا متجاهلا وجود الساحرات .

توقفت في الشارع المقفر ، وبقيت واقفا لبضع دقائق وأنا احدث
نفسي قائلا : « اللعنة ، انني موهوب .. انني مدهش حقا .. » . انفجار
داخلي جعلني أشعر بالدفع والدوار ، لقد ظهرت فجأة وسط بؤسي
وشقائي ثقة بالنفس لا تتزعزع وانبثق عمود فولاذي من بين أنقاض
روحي المتداعية للسقوط .

القد حاولت الى حد بعيد أن أقلد معلماً ، ألف سيوبرغ وأولوف
مولاندر ، فكنت أسرق منهما ما يمكن سرقة وارقعه مع الشيء الخاص
بي . لم تكن لدي خبرة نظرية كافية . قرأت بعضا من ستانسلافسكي
الذي كان شائعا بين الممثلين الشباب فلم أفهمه ولم أرغب بفهمه .
كذلك لم تسنح لي الفرصة لان اشاهد عروضاً مسرحية خارج البلاد .
كنت عبقريا ريفيا ثقف نفسه بنفسه .

ولو أن أحدا قد سألني وأصدقائي عن سبب نشاطنا المستمر
دون توقف لما استطعنا اجابته . بنينا مسرحا لاننا بيننا مسرحا . كان
يجب أن يقف شخص ما على الخشبة ويخاطب الناس الجالسين في
الظلام ، كانت ضربة حظ أن نكون نحن وليس غيرنا ، واقفين هناك .
كان كل شيء رائعا رغم أن النتائج لم تكن مؤكدة دائما . أردت أن أكون
بروسبيرو ، لكنني كنت غالبا اتصرف مثل كاليبان .

بعد عامين من الجهد والحرق استدعيت الى غوتنبرغ فرحلت اليها
يملؤني حماس وثقة بالنفس لا تتزعزع .

* * *

كان تورستن هامرن في الثانية والستين من العمر وقد شغل منصب مدير مسرح مدينة غوتنبرغ منذ تأسيسه عام ١٩٣٤ ، وعمل قبل ذلك مديراً لمسرح لورنسبرغ ، وكان ممثلاً مدهشاً .

كان يتمتع بمكانة مرموقة ، وتعتبر شركته الافضل في البلاد ، وتضم كنوت ستروم ، المنتج الاول في المسرح ، ثوري قديم تمرن على يدي رينهاردت ، وهيلفا ولفرن ، الصموتة والحادة والدقيقة ، وكان المسرح يضم أيضا عددا من الممثلين الذين عملوا سوية لسنوات طويلة ، دون أن يعني هذا بالطبع أن احدهم كان يحب الآخر .

في مطلع خريف عام ١٩٤٦ انتقلت مع هيلين والطفلين الى غوتنبرغ وكنت قد بلغت الثامنة والعشرين . كان العاملون بالمسرح مشغولين ببروفات الملابس لمسرحية (سوناتا الأشباح) ، وكان اولوف مولاندر المنتج الفني . تسللت الى مؤخرة الخشبة الواسعة الفارقة في العتمة واسترقت السمع الى اصوات الممثلين الموجودين في مقدمة الخشبة ولحت بعضهم أثناء عبوره دوائر الضوء . وقفت أتأمل المسرح الضخم حيث الامكانيات كلها ، والممثلون الكبار ، والمهمات الكبيرة . لا أود أن أقول إنني شعرت لحظتها بالخوف . لقد كنت ارتعش .

وفجأة لم أعد وحدي إذ وجدت بجانبني مخلوقاً ضئيل الحجم ، وربما كان شبحاً . كانت مارييا شيلدنيشت ، عجوز المسرح ، وقد ارتدت زياً على هيئة بيغاء وأخفت وجهها وراء قناع مومياء شنيع . « أعتقد أنك السيد برغمان » سألتني هامسة وابتسمت على نحو لطيف ، ولكن مروع . أكدت لها هويتي وانحنيت محيياً بشكل غير ملائم . وقفنا

صامتتين للحظات ، ثم عادت تسألني بصوت قوي ومتحدٍ : « ما رأيك بهذا إذا ؟ » . فأجبتها بصراحة : « إنني أعتبر هذه المسرحية من أعظم الأعمال في تاريخ المسرح » . نظرت المومياء إلي بازدياد وقالت : « أوه ، إنه مجرد خراء تفوطه سترندبرغ من أجل أن نقوم نحن بتمثيله في مسرحه المفضل » وأومات إلي بلطف وانصرفت ، ثم ظهرت على خشبة المسرح بعد دقائق تجر ثوبها وتحركه كأنها ببغاء يفرد ريشه .

إنها باقية في هذا الدور الذي تكرهه مع المخرج الذي تكرهه أيضاً .

كانت تجربتي الأولى في هذا المسرح (كاليغولا) لكامو ، وقام بأداء الدور الرئيسي أندرس إيك ، صديقي من أيام أستوكهولم المثيرة .

وقف حشد الممثلين البارزين حولنا ، يتأملنا ، نحن المبتدئين ، بارتياب ونوايا سيئة ، بعد أن وضعت تحت تصرفي كل امكانيات المسرح المادية والتقنية .

ذات يوم ، واثناء إحدى البروفات ، دخل تورستن هامرن الى القاعة دون أن يعلن عن حضوره وجلس يراقب عملنا في لحظة لم تكن مناسبة أبداً . فأندرس إيك كان يرسم خطوط حركته في حين انشغل باقي الممثلين بقراءة أدوارهم . وبسبب نقص الخبرة فقدت السيطرة على مجرى الأحداث واستطعت أن أسمع أنين هامرن وهو يتململ في مكانه ، الى أن فقد صبره في النهاية ، فنهض وصاح : « الى ماذا تسعون بحق الجحيم ؟ أنعتبرون الأمر صلوات خاصة ؟ لعبة فاخرة ؟ ماذا تفعلون بحق الجحيم اللعين ؟ » .

واندفع الى المنصة وهو يلعن ويتوعد وبدأ يجادل أقرب الممثلين اليه ، فتمتم الممثل المتهم بشيء ما حول الإرتجال والأساليب الجديدة ونظر إليّ شزراً ، فقاطعه هامرن بحدة وأخذ يجري تعديلات على المشهد . انفجرت غاضباً وصرخت معلناً بأنني أرفض التعدي ولفة

القوة . فرد هامرن وهو يدير ظهره إلي : « اجلس واخرس فربما تتعلم شيئاً ما في النهاية » . أحسست بشرايين الدم تتفجر في داخلي فصرخت من جديد وقلت إنني لن أتحمل هذا . فضحك هامرن وصاح بعدوانية : « إذا باستطاعتك أن تذهب الى الجحيم أيها العبقرى الريفى التافه » . اندفعت صوب الباب ، وجاهدت حتى فتحته وغادرت المسرح كالزوبعة .

في صباح اليوم التالى اتصلت بى سكرتيرة المدير وأخبرتني بأن عقدي سوف يلغى إذا لم احضر بروقات اليوم .

هدأ غضبي للحظة ، ثم عاد وتجمع ثانية فهرعت الى المسرح لاقتل هامرن ، وهناك التقينا على نحو غير متوقع عندما اصطدم أحدنا بالآخر عند زاوية المر . وجدنا الأمر طريفاً وبداناً نضحك . عانقني هامرن وفي تلك اللحظة أحسست بقلبي أنه الأب الحقيقى الذى كنت بحاجة إليه منذ أن حرمني الله منه ، وقد قام بهذا الدور بصدق وضمير طوال السنوات التى عملت فيها بمسرحه .

تبدأ مسرحية كاي مونك (الحب) مع حفلة كاكاو .

يدعو الكاهن زملاءه من الأبرشية لمناقشة موضوع بناء سدود مواجهة للبحر ، ويجلس على خشبة المسرح ثلاثة وعشرون ممثلاً تتفاوت حجوم أدوارهم . لقد وزع هامرن الممثلين بطريقة جيدة ، حتى أولئك الذين لا يتحدثون أبداً أثناء المسرحية وكانت تعليماته مفصلة للغاية بحيث تمثل اختباراً لصبر الآخرين . عندما يقول كولبورن جملته حول الطقس الشتوي يتناول قطعة كعك ويحرك فنجان الكاكاو بالمعلقة . يطلب هامرن منه أن يجرب هذا ، يجربه ، فيدخل هامرن تعديلاً . تقوم واندا بصب الكاكاو بيدها اليسرى وتبتسم بلطف لبنكت - اكي عندما تقول : « انتم بحاجة إليها فعلاً » . ويستمر الممثلون بالبروقات والمخرج يوجههم .

اعتقد أن المخرج هو حفار قبور ، وهنا يكمن فساد المسرح .

ويتابع هامرن عمله بثبات .

يطلب من الممثلين تقديم اقتراحاتهم بشأن ما . يوافق عليها ،
ويستمر الممثلون .

كنت أراقب وأفكر : لقد استطاع هذا المخرج المعجوز المصنوع من
الشمع أن ينتزع عفوية المشهد ويقتله . بقيت واقفاً أتابع عمله ، ربما
بدافع فضولي وتجسسي . كان يلقي التوقعات أو يضيفها أحياناً ، يزن
حركات الممثلين بدقة ويربطها مع نبرات أصواتهم وبالعكس ، وأنا أتابع
وأثناء كقط خبيث . وبعد عدة ساعات من الإعادة والتدخل والتصحيح
والإقحام ، اعتبر هامرن الوقت مناسباً لأداء المشهد منذ بدايته
وحتى نهايته .

وعندئذ حدثت معجزة :

تدفق الحوار سهلاً ومدهشاً ، متناسباً مع كل التلميحات والنظرات
والمعاني المستترة . كان الممثلون يشعرون بالأمان أثناء عبورهم مساحات
الخشبة ويخلقون شخصياتهم بكل حرية ويرتجلون بدقة وبلا توقع ،
وكل منهم يحترم الآخرين والإيقاع الواحد .

كان درسي الأول تدخل هامرن أثناء بروقات (كاليغولا) ..

يجب ان يكون الإخراج واضحاً وموجهاً ، لا وجود فيه لغموض
النوايا والمشاعر ، ويجب أن يتوجه الممثلون للجمهور بإشارات بسيطة
ونيرة بحيث يتلقى المشاهد الأحداث الجارية في لحظتها ، ثم يلي ذلك من
حيث الأهمية صدق التعبير . إن الممثل الجيد يملك دائماً مصادر كافية
ليؤدي دوره كوسيط للحقيقة التي يراد التعبير عنها .

وكان درسي الثاني حفلة الكاكاو في مسرحية كاي مونك (الحب) ..

إن التمثيل هو فعل تكرر ، ولهذا فإن كل مساهمة يجب ان تنشأ عن التعاون الطوعي بين الأطراف المعنية . إذا أُجبر المخرج ممثليه على أن يعملوا وفق طريقته فسوف يصل الى ما يريد ، أما إذا ترك لهم حرية التصرف فسوف يقوم كل ممثل بمراجعة دوره وفق رؤيته الخاصة ، مما سيؤدي في النهاية الى فشل عرض تنقصه الحرارة والمتعة إلا إذ بقي المخرج يتابع عن قرب جميع ممثليه . للوهلة الأولى تبدو حفلة الكاكاو عرضاً (تنقصه الحرارة) ، لكن الحقيقة ان الممثلين كانوا يرون فرصهم داخل الحدود المرسومة ، وكانوا ينتظرون بفرح اللحظة التي يستطيعون فيها تطعيم المشهد بإبداعهم الخاص . وهكذا فإن حفلة الكاكاو لم تفشل أبداً .

ذات يوم ، لمحت تورستن هامرن وهو يقلب صفحات دفتر عملي الذي لم يكن يضم رسماً واحداً ، وعندما شاهدني سألت بسخرية : « إذا فأنت لا ترسم مشاهدك » . فأجبتني : « كلا ، أنا أفضل أن أخرج مباشرة ومع الممثلين » . فقال وهو يفلق الدفتر بقوة : « سنرى الى متى سيبقى بوسعك تحمل هذه الطريقة » .

وسرعان ما ثبتت لي صحة كلامه ، ومنذ ذلك الحين وأنا أقوم بتحضير أدق التفاصيل وأرغم نفسي على رسم كل مشهد ، بحيث انني عندما أبدأ البروفات أجد كل لحظة من العرض جاهزة ، وتكون تعليماتي واضحة وعملية ومشجعة . إن من يحضر عمله بشكل جيد وحده يمتلك الفرصة الارتجال .



كبرت عائلتي . ففي ربيع عام ١٩٤٨ رزقت بتوأم وانتقلت الى شقة بخمس غرف في ضاحية جديدة خارج غوتنبرغ ، وكان لدي غرفة صغيرة بالمرح امضي فيها الأمسيات وأحرق النصوص وأكتب مسرحيات وسيناريوهات أفلام .

انتحر زوج والدة هيلين تاركاً خلفه ديوناً كثيرة ، فانتقلت هي وابنها الصغير وأقاما معنا في غرفة مكتبي المجاورة لغرفة نومنا . وكانت تمضي ليالي كاملة وهي تبكي . وانضمت إلينا ابنتي الكبرى لينا لأن زوجتي السابقة إلزا كانت لا تزال متوعدة ، واكتملت الأسرة بوجود شخص عابث ولكن لطيف ، يساعد في إدارة شؤون المنزل . كنا عشرة أشخاص ، ولم يكن لدى هيلين الوقت الكافي لتخصصه لمهنتها ، وزادت التعقيدات المالية من سوء الوضع ، وتوقفت حياتنا الجنسية ، التي كانت خلاصنا ، بسبب الجدار الرفيع الفاصل بيننا وبين والدة هيلين في الغرفة المجاورة .

كنت في الثلاثين وقد طردتني شركة سفنسكا فيلم بعد اخفاق فيلم (الأزمة) . تأزمت أحوالي المادية وبدأت تدور في المنزل مشاحنات قاسية حول النقود . كنت وهيلين شخصين مسرفين ولا مبالين .

أحرز فيلمي الرابع نجاحاً متواضعاً والفضل يعود الى حكمة وصبر لورنس مارمستد ، ذلك المنتج العبقري الذي كان يعيش ويحارب في سبيل أفلامه ، بدءاً من السيناريو وانتهاءً بالعرض .

لقد علمني كيف أصنع الأفلام .

بدأت أتنقل بين غوتنبرغ واستوكهولم حيث استأجرت غرفة في البيت الداخلي التابع للأنسة نيلاندر . كانت عجوزاً أرستقراطية لها جسد ضئيل وشعر أبيض لامع وعينان داكنتان ووجه شاحب يغطيه مكياج متقن ، وكان قد عاش في منزلها ممثلون عظام اعتنت بهم وكأنها مهم . كانت خيرة ، تتفاضى عن التجاوزات في أساليب الحياة وعن المشكلة الرئيسية التي تؤرق قاطني بيتها : دفع الأجرة .

لم أكن سعيداً في غوتنبرغ . كانت مدينة معزولة ، والمسرح فيها عالم محدود لا يتحدث احد فيه إلا عن المهنة . أما المنزل فيضج بالأطفال الباكين والمرأة الناحية والغسيل وأحاسيس الغيرة الفاضبة التي كانت

ذقيقة تماماً في معظم الاحيان . كل طرق الهروب كانت موصدة ، واصبح
الخداع أمراً إلزامياً .

كانت هيلين تعرف انني كاذب وكان إحساسها باليأس مزعجاً .
طالما توسلت إلي ان أخبرها بالحقيقة ولو لمرة واحدة لكنني لم استطع
ذلك لأنني لم اعد اعرف اين تكمن الحقيقة . في لحظات السلام القصيرة
بين المعارك كان احدنا يشعر تجاه الآخر بالتماطف والتسامح والمودة
العميقة .

كانت صديقاً جيداً وقوياً ، ولو كانت ظروفنا اقل كآبة لاستمتعنا
بحياتنا . لكننا لم نكن نعرف شيئاً عن أنفسنا واعتقدنا ان الحياة يجب
ان تكون كما هي عليه . لم نتدمر من الظروف ولم نندم على شيء . كنا
نحارب ونحن مقيدون سوية ، لكننا كنا نفرق .

منحني تورستن هامرن فرصة إخراج اثنتين من مسرحياتي في
الاستوديو ، وكان هذا قراراً شجاعاً وصعباً . لقد سبق ان اخرج
بعضهم عدداً من مسرحياتي التي لاقت استحسان النقاد فقالوا إن
برغمان مخرج جيد وموهوب لكنه كاتب سيء ، وكانوا يقصدون بالسيء
انه هاور ومدع ومتقلب وصعب وعاطفي وسخيف وفقير وكئيب . .
وهكذا .

وبدا اولوف لاغركرانتز ، الذي كنت معجباً به ، يلاحقني على
صفحات الجرائد وعندما أصبح المحرر الثقافي في جريدة داغنز نيتز
اتخذت هجماتيه طابعاً ساخراً ، فقد كتب عام ١٩٥٥ حول فيلم
(ابتهامات ليلة صيف) : « خيال فقير لشاب متقلب ، احلام متفطرسة
لقلب هاور واحتقار لا حدود له للحقيقة الإنسانية والفنية . هذه هي
القوى التي صنعت هذه « الكوميديا » . اشعر بالخجل حقاً لأنني
شاهدتها . » .

اليوم لا تتعدى هذه الكلمات مجرد طرفة مضحكة ، أما في ذلك الوقت فكانت أقراص سم أحدثت كثيراً من الضرر والمعاناة .

أما تورستن هامرن ، ذلك الرجل الشجاع والمدهش ، فقد ظل ملاحقاً من قبل أحد نقاد غوتنبرغ لسنوات عديدة . وعندما قدم عرض (بيكون) انتهز الفرصة خلال فترة الاستراحة بين الفصلين وظهر أمام الستارة وطلب من الجمهور بعض الانتباه ، وبدأ يقرأ النقد القاسي الموجه له ، فكافأه الجمهور بعبارات من التعاطف الهائل . توقف الناقد عن الملاحقة العلنية واستبدل بها نوعاً آخر أكثر تعقيداً وأخذ يروج اشاعات قدرة عن علاقة زوجة هامرن ، المثلة ، مع أقرب أصدقائه في المسرح .

واليوم أجد نفسي أتخذ موقفاً مهذباً ، بل ودوداً تجاه قضاتي . فذات مرة وجهت ضربة لأحد النقاد المفسدين فسقط على الأرض وسط حاملات النوتات الموسيقية ، وبعدها دفعت مبلغ خمسة آلاف كرون غرامة وكنت اعتبر الأمر أهم من النقود ، وأن الصحيفة التي يعمل فيها لن تسمح له بنقد أعمالي ثانية . اختفى لعدة سنوات ، ثم عاد من جديد ينشر فكره السفهية على جهود سنواتي الكثيرة ، حتى إنه سافر الى ميونخ لانجاز مهمته فشاهدته في أمسية ريفية بشوارع ماكسميليان ، وكان ثملاً للغاية يرتدي قميصاً ضيقاً وبنطالاً من المخمل ويحاول أن يحدث أحداً من المارة لكن الجميع كانوا ينظرون اليه بازدراء ولا يردون عليه . كان واضحاً أنه مريض ويعاني البرد .

في ردة فعل لحظية فكرت أن أتوجه الى الرجل المسكين وأصافحه . . بوسعنا أن نتصالح بعد هذه السنوات . إننا هادئان الآن ، اليس كذلك ؟ لماذا يجب أن يستمر أحدنا بكرهه للآخر بعد تلك الضجة ؟ لكنني سرعان ما تراجع عن فكريتي . ثمة عدو قاتل يقف أمامي . يجب أن أدمره . الحقيقة إنه كان يدمر نفسه بكتاباتهِ الفاسدة ، يجب أن أرقص

فوق قبره وأدعو له بأبدية خالدة في الجحيم حيث يستطيع أن يجلس
ويقرا مقالاته .

الحياة تتألف من تناقضات ، ويجب أن أشير هنا الى أنني اعتبر
هربرت غريثينو ، وهو ناقد مسرحي ، واحداً من أعز أصدقائي .
إننا نلتقي يومياً في المسرح الدرامي الملكي ، وأثناء كتابتي لهذه الأسطر
يكون قد بلغ السادسة والثمانين عاماً ، ولا يزال يتحدى بقوة ويدخن
خمسين سيجارة في اليوم .

عندما كنت في أسوأ حالاتي ، كان تورستن هامرن وهربرت
غريثينو يقفان الى جانبي كملاكين قويين غير قابلين للفساد . تعلمت
الحرفة من هامرن ، وتنظيم الافكار من غريثينو . لقد جبلاني ووضعاني
على الطريق الصحيح .

كانت المقالات السيئة والإساءات الملعنة تعذبني . وذات مرة
قال لي غريثينو : « تصور أن أمامك خطأ مرسوماً بالطباشير . أنت
تقف الى جانب والناقد يقف الى الجانب المقابل ، وكل منكما يستعرض
حيله للجمهور .. » . ساعدتني هذه الكلمات . وفي مناسبة أخرى كنت
أجري بروفة مع ممثل رائع لكنه سكير ، عندما مخط هامرن وقال :
« تصور أن السوسن ينبت أحياناً من الجثث اللتنة » . شاهد غريثينو
أحد أفلامي واعترض لوجود فجوة في منتصف الفيلم ، فدافعت عن
نفسي بأن الممثل كان يجب أن يؤدي دور شخص متوسط المقدرة ،
فاجاب غريثينو : « يجب الا يؤدي شخص متوسط المقدرة دور
شخص متوسط المقدرة ، ولا امرأة فظة دور امرأة فظة ولا مغنية أوبرا
مغرورة دور مغنية أوبرا مغرورة . » . وقال هامرن : « الممثلون هم
الشیطان بعينه . ما أن يلصقوا وجهاً بأنفسهم حتى يفقدوا ذكرتهم » .

* * *

لم أكن قد سافرت الى خارج البلاد ، باستثناء تلك المرة الوحيدة ،
 عندما أمضيت ستة أسابيع في ألمانيا . وها أنا أسافر من جديد برفقة
 صديقي وزميلي في الفيلم بيرغر الماستن لنمضي بعض الوقت في كتابة
 سيناريو الفيلم الجديد ، في قرية جبلية بين مدينتي كان ونيس ، قرية
 لم يكن يعرفها السياح من قبل إذ كان يقصدها حصراً الرسامون وفنانون
 آخرون . كانت هيلين قد ارتبطت بعمل في مسرح ليزنبرغ بفوتنبرغ ،
 وبقيت أمها تعتني بالأطفال ، وكانت أحوالنا هادئة ووضعنا المادي قد
 تحسن قليلاً بعد ان الانتهاء من تصوير فيلم ووقعت عقداً لإخراج فيلم
 جديد أثناء الصيف . وصلنا الى القرية الجبلية . وكانت تدعى كان
 - سور - مير ، ونزلت في غرفة مشمسة تطل على حقول القرنفل في
 الوادي ، تجاه البحر الذي كان يتلون أحياناً كثيرة بلون النبيذ ، كما
 قال هوميروس .

سرعان ما التهمت امرأة انكليزية ، جميلة ولكن مستهلكة ، صديقي
 بيرغر الماستن . كانت تكتب الشعر وتعيش حياة محمومة . أما أنا
 فبقيت وحيداً اجلس في الشرفة وأكتب سيناريو الفيلم الذي يجب أن
 نبداه في آب . كان زمن التحضير واتخاذ القرار قصيراً في تلك الايام .
 وكان عنوان الفيلم (الفرح) ويروي قصة عازفين شابين يعملان في فرقة
 هيلسنبورغ السيفغونية ، لكنه في حقيقة الامر كان عن قصتنا أنا وهيلين ،
 عن الظروف التي يوجد فيها الفن وعن الإخلاص والخيانة . فيلم سوف
 تتخلله الموسيقى منذ بدايته وحتى نهايته .

بقيت أعمل وحدي دون أن التقى او أحدث أحداً ، وفي الليل كنت
 أتمل فتأخذني صاحبة الفندق المعجوز الى فراشي وهي تعبر عن قلقها

تجاه عادتي في شرب الكحول . وفي التاسعة صباحاً ، رغم أية ظروف ،
أكون جالساً وراء طاولة عملي تاركاً المجال للآثار التي خلفها اسرافي في
الشرب لأن تساعد على تكثيف ابداعي .

بدأنا أنا وهيلين ، يكتب كل منا للآخر رسائل لطيفة وحريصة .
تحت تأثير الأمل بمستقبل ممكن لزواجنا المعذب تحولت صورة
الشخصية النسائية الأساسية في الفيلم الى معجزة من الجمال والصدق
والحكمة والوفاء الانساني ، أما شخصية الرجل فقد أصبحت بالمقابل
مفرورة ، خادعة ، مدعية وكاذبة .

بدأت تفازلني رسامة أمريكية من أصل روسي بخجل ولكن باصرار .
كان جسمها رياضياً وعيناها سوداوان ولامعتان ، وفمها كريم . كانت
تشبه تمثال امرأة أمازونية تشع منها شهوانية مثيرة . لكن اخلاصي
لزواجي حثني على عدم التورط بعلاقة معها ، فبقيت هي ترسم وأنا
أكتب . شخصان وحيدان في جو من الزمالة الابداعية غير المتوقعة .

جاءت نهاية الفيلم مأساوية ومروعة . انفجر موقد الكيروسين
بالشخصية النسائية (ربما كان الامر رغبة سرية حقيقية) ، ونسمع
الحركة الأخيرة من سيمفونية بيتهوفن التاسعة وتدرك الشخصية
الرئيسية أنه يوجد « فرح أعظم من الفرح » . (وهي حقيقة لم أدركها
إلا بعد مضي ثلاثين عاماً) .

انتزعت بيرغر مالمستن من برائن فينوس وودعنا صاحبة الفندق
وعدنا الى بلدنا . وبعد قليل من التردد تمت الموافقة على السيناريو .

كان لقائي مع هيلين سريعاً وغير ناجح تماماً . كنت أشعر بغيرة
فظيمة بعد اكتشافني أن هيلين كانت تعبت مع أحد الممثلين ، سوينا الأمر
الى حد ما وسافرت الى استوكهولم وبدأت تصوير الفيلم حيث يقوم
فيه بيرغر مالمستن وستيف أولن باداء نموذجين مختلفين للرجال ، وحيث

نجحت ماي - بریت نلسون بأداء دور الزوجة المثالية اليائسة بشكل مقنع للغاية .

تم تصوير المشاهد الخارجية في هيلسنبورغ . وذات ليلة في مطلع شهر آب كنا نصور مشهد الزفاف في قاعة المدينة ، وهي القاعة نفسها التي شهدت زواجي وهيلين قبل سنوات عندما جاء لمقابلتنا صحفيون من المجلة الاسبوعية (مجلة الفيلم) ، وقد حضرت معهم مديرة تحرير المجلة، امرأة فاتنة تدعى غونيللا هولغر ومعها صديقتها غان هاغبرغ فدعوتهم لتناول العشاء في الفراند وعلى حساب الفيلم .

بعد العشاء خرجت مع غان وتمشيينا . كانت ليلة دافئة وبلا رياح ، تبادلنا القبل بهجة واتفقنا أن نلتقي عندما نعود للتصوير في استوكهولم . سافرت مجموعة (مجلة الفيلم) ونسيت الأمر برمته .

عدت الى منزلي في منتصف آب فاتصلت بي غان واقترحت أن نتناول العشاء سوياً ونذهب إلى السينما بعد ذلك فشكرتها ووافقت من كل قلبي ، وأنا أشعر بطعنة الرعب .

وسارت الامور فيما بعد بسرعة ، ففي العطلة الاسبوعية التالية ذهبنا الى تروسا ونزلنا في فندق وتوجهنا إلى السرير حيث بقينا فيه حتى صباح الاثنين . وإلى ذلك الحين اتفقنا أن نساغر الى باريس سراً حيث كان يقيم صديقي فيلفوت سيومن والذي كانت روايته الأولى بصدد اقتباسها لفيلم سينمائي يخرج غوستاف مولاندر الذي سبق ورفض كل السيناريوهات المقدمة إلى ان استجذبت بي أخيراً شركة سفنسك فيلم ، كملاذها الأخير ، لاسافر إلى باريس وأنهى العمل مع فيلفوت العنيد . وكانت غان ستنتهز فرصة وجودها بباريس لتغطي بعض عروض الأزياء لمجلتها الاسبوعية . فعهدت بطفليها لمربية فنلندية ، وكان زوجها يزور مزرعة عائلته المنتجة للمطاط في جنوب شرق آسيا لمدة ستة أشهر .

عدت الى غوتنبرغ لاتحدث مع زوجتي بالامر ، ووصلت في وقت متأخر حيث كان الجميع نائماً . سرت هيلين بزيارتي غير المتوقعة ، جلست على حافة السرير دون أن أنزع معطفي وأخبرتها بكل شيء .

إن أي شخص يهمل الأمر ، يستطيع متابعة أحداث الجزء الثالث من فيلم (مشاهد من حياة زوجية) . إن غان على النقيض تماماً من باولا التي لعبت دور العشيقة في الفيلم ، فغان امرأة من الطراز الأول ، جميلة ، طويلة ، رياضية الجسم ، لها عينان زرقاوان وضحكة عالية وشفتان ممتلئتان وهي امرأة صريحة وقوية وفخورة لكنها كانت تسير أثناء نومها .

لم تكن تعرف شيئاً عن نفسها لأنها لم تكن مهتمة بذلك . فواجهت الحياة بصراحة وصدق وشجاعة دون أية مقومات للدفاع . كانت تتجاهل قرحتها المعدية التي تنفجر بين الحين والآخر ، فتتوقف عن شرب القهوة البضعة أيام وتتناول بعض الأدوية وسرعان ما تتحسن حالتها . لم تكن تعترض على علاقتها الضعيفة مع زوجها ، فكل الزيجات تبته عاجلاً أم آجلاً ، وتبقى الحياة الجنسية هي المرهم الوحيد المنقذ ، ولم تتأثر بأحلامها القلقة والمتكررة التي تبرزها بكثرة الطعام والشراب . كانت الحياة بالنسبة لها أمراً واقعاً وساحراً في وقت واحد . كان من المستحيل مقاومة غان .

مزق الحب قلبينا منذ البداية ، وحمل معه بذور الدمار .

سافرنا في الأول من أيلول عام ١٩٤٩ ووصلنا باريس في منتصف النهار ونزلنا في فندق عائلي حسن السمعة بشارع القديسة آنا . كانت غرفتنا مستطيلة تشبه النعش وفيها سريران منفصلان وتطل نافذتها على فناء مفلق تماماً من حيث ينبعث هواء عفن ورطب . ولزيد من المعلومات حول تفاصيل الغرفة ، يمكن العودة الى غرفة العاشقين في فيلم (الصمت) .

من شدة روعنا وارهاقنا استلقينا على أسرتنا وقد ادركت أن هذا هو العقاب الالهي على خيانتني المطلقة . فرحة هيلين بعودتي غير المتوقعة ، ابتسامتها ، وصورتها الواضحة التي تراود مخيلتي باستمرار ، ولا تزال حتى الآن .

في صباح اليوم التالي تحدثت غان مع ادارة الفندق وانتقلنا الى غرفة أخرى مريحة تطل على الشارع ولها حمام واسع مثل صالة الكنيسة ونوافذ ملونة وانابيب تدفئة أرضية ومغسلة ضخمة . وفي الوقت نفسه استأجرت غرفة صغيرة تحت السطح فيها طاولة متزعزعة وسرير متداع ، وتطل على أسطحة باريس وبرج ايفل .

أمضينا في باريس ثلاثة أشهر وكانت فترة عصيبة في حياة كل منا .

في صيف عام ١٩٤٩ صادف عيد ميلادي الواحد والثلاثين ، وكنت أعمل مهنتي بجد ومثابرة . وجاء خريف ذلك العام في باريس دافئاً وكان تجربة أثرت في سقوط جميع الحواجز . كان للحب الوقت والفرصة حتى يكبر بحرية ويفتح الغرف الموصودة ويهدم الجدران . كانت مشاعر خيانتني لهيلين والأطفال غائبة في مكان ما وسط الضباب ، لكنها كانت حاضرة دائماً وتحثني بشكل غريب . وخلال هذه الأشهر كان ثمة إنتاج جريء يعيش ويتنفس ، كان حقيقياً ولا يقدر بضمن ، رغم أن الفاتورة التي استلمتها في النهاية كانت مرعبة جداً .

لم تكن الرسائل القادمة من المنزل مشجعة . هيلين كتبت تقول : إن صحة الأطفال سيئة ، وأنها أصيبت بالأكزيما في يديها وقدميها وبدأت تفقد شعرها . قبل سفري كنت قد تركت تحت تصرفها مبلغاً كبيراً من المال ، وها هي تشكو الآن أنه نفذ . عاد زوج غان بسرعة الى استوكهولم وأرسلت عائلته محامياً هدد باقامة دعوى قضائية إذ أن جزءاً من ثروة العائلة مكتوب باسم غان .

لكننا لم ندع شيئاً يزعجنا ، وكان فيض من الانطباعات والتجارب الفنية يتدفق فوق رأسينا .

كان أعظم شيء اكتشاف مولير ، الذي كنت قرأت بعض مسرحياته اثناء دراسة تاريخ الادب فلم أفهم شيئاً واعتبرته متذلاً وغير ممتع .

وها هو العبقرى الريفى القادم من السويد ، يجلس الآن فى المسرح الكوميدي الفرنسى يشاهد (مبعوض البشر) فى عرض جميل وحيوى وعاطفى . كانت تجربة لاتوصف ، فالناس على خشبة المسرح كانوا يجتازون مشاعري ويدخلون قلبى . هكذا كان الأمر . ربما يبدو سخيلاً لكنه كان كذلك حقاً . دخل مولير قلبى ليقبى فيه الى آخر حياتى . إن دورة دمي الروحية والمرتبطة سابقاً يسترنديبرغ فتحت الآن شرياناً باتجاه مولير .

فى مساء يوم أحد ذهبنا إلى الأوديون ، المسرح الملحق بالكوميدي الفرنسى حيث كانوا يقدمون أوبرا مع موسيقا لبيزيه .

كانت القاعة مكتظة بالأهالى والأبناء والجدات والأعمام والعمات ، جميعهم ينتظرون بدء العرض . إنهم أناس لطفاء امتلأت بطونهم بوجبة يوم الأحد المؤلفة من ديك مطهى بالنبيذ ، إنهم البورجوازيون الفرنسيون الصغار فى رحلة إلى عالم المسرح .

ارتفع الستار عن منظر مرروع لديكور يعود الى القرن الثامن . وكانت تؤدي دور الفتاة إحدى الممثلات المنتسبات الى جمعية للممثلين وقد تجاوزت سن التقاعد . كانت تمثل بطريقة هشئة ، شعرها المستعار أصفر بشكل مزعج . جميع المثلين كانوا يخطبون وهم يسرون أو يركضون . ألفت المثلة بنفسها على أرضية المسرح عند الضوء الأمامى الساطع وعرف رجال الأوركسترا الخمسة والثلاثون موسيقا عاطفية وقوية دون أن يجهدوا أنفسهم .

عندئذ سمعت أصواتاً غريبة تصدر في ظلام القاعة ، فتلفتُ حوالي ولدهشتي وجدت الجميع يبكي ، بعضهم بحذر وتكتم ، والبعض الآخر بشكل علني وممتعة . وحتى السيد ليبرون الجالس إلى جانبي بشعره المشط جيداً وشاربيه المصمغين كان يرتعش وكأنه محموم . وكانت الدموع تنهمر من عينيه السوداوين على وجنتيه الورديتين ، ويداه الصغيرتان المثلثتان تهتران فوق تجاعيد بنطاله .

وأسدل الستار وسط عاصفة من التصفيق ، وظهرت الفتاة المسنة من وراء الستار وقد أعوج شعرها المستعار ، ووضعت يدها الصغيرة على صدرها العظمي ووقفت بثبات تحديق بالقاعة . كانت لا تزال في حالة النشوة ، تنصت الى صيحات التشجيع الصادقة ، شديدة الابتهاج ، كل هؤلاء الناس الذين كانوا يحجون باستمرار الى عرض يوم الاحد المسرحي ليشاهدوا حياة هذه البطلة أرلسين ، كانوا قد جاؤوا في الماضي اطفالاً مع جداتهم وهامهم يأتون اليوم أجداداً وجدات مع أحفادهم ، مطمئنين الى أن المدام غورلين موجودة دائماً على المسرح ، في وقت محدد ، سنة بعد سنة ، وأنها سوف تهوي بجسدها الى مقدمة المسرح . ترثي نفسها من قسوة الحياة .

كان الجميع يصيحون فرحين . لقد لامست قلوبهم هذه العجوز الصغيرة الواقفة على الخشبة المضاءة بلا رحمة . ان المسرح كالمعجزة . وتابعت أراقب بفضول هذا العرض الأساسي ، ثم قلت لغان :

« الناس الباردون يصبحون عاطفيين بسهولة » . بعد ذلك ذهبنا وصعدنا برج ايفل .

قبل ذهبنا للمسرح تناولنا الغذاء في مطعم مميز مقابل الاوديون ، وأثناء الساعات التالية عبرت وجبة الكلاوي التي اكلناها مراحل مختلفة ، وعندما وقفنا عند قمة برج ايفل نتفرج على بانوراما المدينة بدأت عصيات الكولون تضربنا وأصابتنا تشنجات حادة فهرعنا الى المصاعد لكننا فوجئنا

بأنهم أغلقوها ووضعوا لافتات بأن عمال المصاعد لن يعملوا لتعاطفهم مع احتجاج عمال التنظيفات ، فاندفعنا نازلين عبر السلالم ولم يكن بوسعنا منع حدوث الكارثة . قام سائق تكسي لطيف لدرجة لا توصف بوضع صفحات جرائد على المقعد الخلفي وأوصل هذين الشخصين ذوي الرائحة البشعة الفاقدن للوعي جزئياً الى فندقهما ، حيث بقينا بعدها أربعاً وعشرين ساعة نرحف على الارض ، وقد ساهمت حالتنا الجسدية البائسة في التقريب بيننا أكثر .

أصبح السيناريو جاهزاً فقادراً فيلغوت سيومن ، وتركنا وحيدين ، ولم يعد لنا أي مبرر للبقاء في باريس . اقبلت أيام الهواء البارد وغطى الضباب برج ايفل فلم أعد أراه من أسطحة الفندق ، وكتبت مسرحية عنوانها (يواكيم عارياً) .

أرسلت النسخة الوحيدة للمسرحية الى المسرح الدرامي الملكي على أمل أهوج أن يقبلوا بها ، لكنها اختفت دون أثر ، وربما كان هذا جيداً .

طفنا بالمدينة دون هدف محدد ، فكنا نضيع الطريق ، ثم نجده ، ثم نضيعه من جديد . شاهدنا بوابات مارن وحديقة صغيرة مذهشة في ضاحية بوا دو فينس .

معرض الانطباعيين في جو دي بوم . (كارمن) لرولاندا الأصغر . (كوثشيرتو لليد اليسرى) لراقيل في مسرح الشانزليزيه . مسرحية (فيدرا) لراسين . أوبرا (هلاك فاوست) لبرليوز في الأوبرا الكبيرة . باليه بالانشين . السينماتيك . افلام ميليس والسينما الفرنسية الصامتة . تراكتت الخبرات وكنت متعطشاً للمزيد .

ذات ليلة ذهبنا الى مسرح الاثنيه لمشاهدة لويس جوفت في مسرحية لغيرادو ، وكانت هيلين جالسة في الصف الذي امامنا مباشرة . التفتت الينا وابتسمت ، فهربت وغان من المسرح ، ثم جاء الينا محامي في بدلة

زرقاء شاحبة وربطة عنق حمراء ، وقد أرسله أقارب غان لدراسة وضعها . فاتفق معها على تناول الغذاء سوية ، ووقفت أنا عند نافذة الغرفة بالفندق أراقبهما وهما يسيران سوية في شارع القديسة آن . كانت غان ترتدي حذاءً كعبه عالٍ فبدت أطول من المحامي القصير ، وكان ثوبها الأسود ملتصقاً بوركبها ، وأخذت تمر يدها في شعرها الأشقر القصير . في تلك اللحظة اعتقدت أنها لن تعود الي أبداً . لكنها عندما عادت مساءً ، متوترة ومرتعشة ، وجهت إليها سؤالاً وحيداً بفضول وهو : « هل نمت مع المحامي ؟ هل نمت معه؟ اهترفي بأنك فعلت . أنت تعرفين ذلك . » . سوف يخلق الخوف قريباً ما كان يخشى منه .



في أحد أيام كانون الأول الباردة التقينا في بيت مستأجر باستوكهولم حيث كانت أنظمة الفنادق السويدية تحظر علينا الإقامة فيها .

انهارت غان بسرعة لخوفها من أن تفقد أطفالها . فعندما عادت الى المنزل في ليدنغو وجدت زوجها وقد كان لديه الوقت الكافي ليقرر كيف سينتقم منها ، وكنت سأذهب الى غوتبرغ لأنهي عملاً يتعلق بعقدي .

لم يكن مسموحاً لنا ان نلتقي او نتحدث بالهاتف أو يكتب احدنا الآخر ، فكل محاولة للاتصال كانت تزيد من خطورة فقدان غان لأطفالها ، ففي تلك الايام كانت القوانين صارمة للغاية فيما يتعلق بالمرأة التي تهجر منزلها .

وهكذا استطعت تأمين شقة صغيرة (ما زلت مستأجرها حتى الآن) وانتقلت اليها مع أربع اسطوانات وملابس داخلية قدرة وفنجان شاي صدوع . وفي أوقات حزني تلك كتبت سيناريو عنوانه (لحن صيفي) وموجزاً لسيناريو آخر ومسرحة ضاعت فيما بعد . وكانت تسود

اشاعات حول توقف انتاج الافلام بسبب احتجاج المنتجين على ضريبة التسلية التي فرضتها عليهم الحكومة . إن مثل هذا الاجراء سوف يستتبع كارثة مالية بالنسبة لي ، فأنا أعيل عائلتين اثنتين .

في اليوم الذي تلا عيد الميلاد قررت غان أن ترفض هذا الإذلال والألعاب وفق قوانين الذكور ، فدفعنا أجارا باهظا لشقة مفروشة مؤلفة من أربع غرف وتقع في الطابق الاخير من بناء جمل ، وانتقلنا اليها مع طفلي غان والمربية الفنلندية .

لم تكن غان تعمل ، وأصبح لدي ثلاث أسر أعيلها .

ما حدث بعد ذلك يمكن سرده باختصار . . أصبحت غان حاملاً ، ومع نهاية الصيف توقف انتاج الافلام . طردت من شركة سفنسك فيام وعملت مديرا فنيا في مسرح لورنس مارمسند الحديث ، لكنني فشلت في عملي ففصلت من هناك أيضا .

اتصل زوج غان بها في أمسية خريفية واقترح نوعا من المصالحة والاتفاق عوضاً عن المحكمة ، وطلب أن يلتقي بها حتى يتوصلا الى اتفاق ويثبتاه عند المحامي . منعتها من أن تراه وحدها لكنها كانت عنيدة ، وبدت أثناء حديثها معه شبه باكية . بعد العشاء جاء ليصطحبها بسيارته ، وعادت في الرابعة صباحا ، تعبير وجهها صارم ونبرة صوتها مراوغة ، وأرادت أن تنام فورا وقالت إن بوسعنا التحدث في الصباح ، لكنني لم أدعها لأنني أريد أن أعرف ما حدث ، فأخبرتني أخيرا أنه أخذها الى خارج المدينة واغتصبها . تركت الشقة وأخذت أركض في الشوارع .

ولم أكتشف أبداً حقيقة ما حدث إذ كان مؤكداً عدم حدوث اغتصاب بالمعنى الحقيقي ، وربما قد دُفعت الى نوع آخر من العنف عندما قايسها زوجها بأن تنام معه مقابل احتفاظها بالاطفال .

ولم أعد أدرك ما يحدث . غان كانت حاملا في شهرها الرابع وأنا
أتصرف مثل طفل غيور . كانت وحيدة ومعاقة .

في لحظة واحدة أحسنا بنفاد كل الفرص لتجاوز الأزمة . كانت
بداية النهاية أمرا حقيقيا ، ومع ذلك تمسك كل منا بالآخر في محاولة
يائسة للمصالحة .

توقفت اجراءات المحاكمة بفضل محامي غان الذي هدد بإشهار
الأعمال المالية غير المشروعة التي يزاولها الزوج . لا أعرف التفاصيل
كلها ، لكن الطلاق كان مؤكداً وبلا متاعب ، وبعد تحقيقات مهينة ،
أوصت لجنة رعاية الطفل بأن تحتفظ غان بأولادها .

انتهت هذه الدراما ، لكن حيننا كان جريحا وينزف بشكل مमित ،
وكانت المشاكل المالية تلقي بظلالها فوق كل شيء .

لا نقود ، لا تصوير أفلام ، وكل شهر يجب تأمين مبلغ كبير لاعالة
زوجتين سابقتين وخمسة أطفال . كانت كل زيارة للعائلة في غوتنبرغ
تبدأ باللطافة الشكلية المعهودة وتنتهي بالصراخ وبكاء الاطفال المولم .

وأخيرا توجهت الى شركة سفنسك فيلم وطلبت منهم قرضا
فوافقوا واضطرت لأن أوقع عقدا معهم يلزمني أن أعمل على خمسة
أفلام اتقاضى عليها ثلثي أجرى عن السيناريو والايخراج . وأن أسدد
القرض خلال ثلاث سنوات ، بما في ذلك الفوائد المترتبة عليه ، وحيث
يقتطع المبلغ آليا من دخلي الذي تدفعه الشركة لي . وهكذا نجوت
موقتا من كارثة مالية لكنني أصبحت مقيدا تماما .

رزقنا أنا وغان بصبي في نهاية نيسان عام ١٩٥١ ، فاحتفلنا
بالمناسبة ، وشربنا شمبانيا ، ثم خرجنا بجولة في سيارتي الفورد
الايالة للسقوط . وبعد أن أوصلت غان وتركتها لرعاية الممرضات في

المستشفى ، عدت الى المنزل وشربت المزيد وثلت اكثر ، ثم فتحت علبة تحتوي على لعبة قديمة اهديت لي في الماضي ، وكانت عبارة عن قطار وسكك . بدأت اللعب بصمت وعناد الى ان غفوت على الارض .

رفع الحظر عن تصوير الافلام ، وحصلت غان على عمل مؤقت كصحفية في جريدة مسائية بالاضافة الى قيامها بترجمة بعض الاعمال . وكنت سأخرج فيلمين ، اولهما (انتظار النساء) عن سيناريو لي ، وثانيهما (صيف مع مونيكا) عن رواية لاندرس فوجلستروم ، وقد اخترت ممثلة شابة تعمل في مسرح سكالالا لتؤدي دور مونيكا ، وهي هاريت اندرسون ، وكانت عملت في بعض الافلام سابقاً ، ومخطوبة لممثل شاب . وفي نهاية تموز ذهبنا للتصوير في الارخبيل الخارجي .

اعتراني احساس بالراحة والمحبة المشرقة . لقد ولت جميع المشاكل العملية والمادية ، وها هو فريق تصوير الفيلم يعيش حياة مريحة نسبياً يعمل في كل الاوقات ومهما كانت الظروف الجوية . كانت الليالي قصيرة والنوم بلا أحلام . بعد ثلاثة اسابيع من العمل أرسلنا الافلام للتحميض ، لكن أجهزة العمل أفسدت آلاف الامتار منها ، وأصبح ضرورياً إعادة تصوير كل شيء . بكينا قليلاً من دموع التماسيح ، لكننا في سرنا كنا مبتهجين لتمديد فترة حريتنا .

إن خلق الفيلم هو عمل شهواني ذو قوة هائلة : فلا تحفظ في التقارب مع الممثلين ، والمكاشفة المشتركة امام العيان مطلقة . الحميمية والاخلاص والحب والثقة والمصداقية يتحولون امام عين الكاميرا السحرية الى احساس دافئ بالامان . الاجهاد والتحرر من التوتر ، حبس الانفاس المشترك ولحظة الانتصار التي يتبعها هبوط مفاجيء : انه جو مشحون بالجنس بشكل يصعب مقاومته ، وقد تطلب الامر سنوات عديدة قبل أن أدرك بأنه سيأتي يوم تتوقف فيه الكاميرا وتنفث الأضواء .

عملت هاريت اندرسون معي لمدة طويلة . كانت انسانة قوية وحساسة للغاية . علاقتها مع الكاميرا مباشرة وذات حساسية عالية . بالاضافة الى تقنياتها الرائعة فبإمكانها أن تنتقل كالبرق من حالة عاطفية قوية الى أخرى رزينة وهادئة ، روح المرح لديها حادة ولكن غير ساخرة . انها انسانة رائعة ، وواحدة من أعز أصدقائي .

عندما عدت من رحلة الارخبيل اخبرت غان بما حدث وطلبت منها أن اذهب لفترة راحة طويلة ، فقد أدركت انا وهاريت ان علاقتنا محدودة بوقتها . غضبت غان وصاحت بوجهي بأن اذهب للجحيم . شعرت بالدهشة لغضبها الذي لم أشهد له مثيلا من قبل ، وانتابني احساس عميق بالراحة .

حزمت بعض امتعتي وانتقلت الى شقتي ذات الغرفة الوحيدة . خلال السنوات التالية كنا نلتقي دون اتهامات او احساس بالمرارة وبعد أن طلقناها ، بدأت غان تقرأ باللغات السلافية ونالت درجة الدكتوراه وأصبح عملها بالترجمة أكثر تعقيداً ، وسرعان ما حظيت بسمعة جيدة وكونت لنفسها حياة مستقلة خاصة بها ، لها أصدقاؤها وعشاقها ورحلاتها خارج البلاد .

لكن فرحتنا بعودة التقارب بيننا كانت حذرة وأناية ، ولم نلاحظ ردة فعل ابنا المحكمة بالالم والغيرة .

وعندما توفيت غان في حادث سير ، اتفقت مع انغمس الصغير أن نذهب للجنائز سووية . التقينا في شقتي الصغيرة ، وكان في التاسعة عشرة من عمره ، شاب وسيم وطويل القامة ، ولم يكن أحدنا قد رأى الاخر منذ سنوات . جاء مرتديا بذلة ضيقة استعارها من أخيه لأمه . جلسنا صامتين نأمل ان يمضي الوقت بسرعة ، لكنه لم يمض كذلك . سألني اذا كان لدي خيط وابرة فأحضرتهما له ، وبدأ يخيط زراً . كان شعره الاسود الطويل ينحدر على جبهته ويداه الحمراء والقبوتان

مشغولتان بالخياطة ، وكان ينشق باحراج بين الحين والآخر . تأملته واكتشفت كم هو شبيه بجده لوالده عندما كان طالباً : العينان الزرقاوان الداكنتان نفسها ، الشعر نفسه ، والجهة والقم الرقيق ، والوقفة البرغمانية نفسها التي تحتفظ بمسافة بينه وبين الآخرين ، وكأنه يقول لهم : « لا تلمسوني ، لا تقتربوا مني بحق المسيح فأنا برغمان » .

اقدمت على محاولة خرقاء لاقول له شيئاً عن أمه ، لكنه رد بإيماءة رفض عنيفة وعندما انحنت على المتابعة رماني بنظرة ازدراء باردة جعلتني أصمت فوراً .

كانت غان نموذجاً للعديد من النساء في أفلامي : كارين لوبيلوس في (انتظار النساء) . آغدا في (الليلة العارية) ، ماريان في (درس في الحب) ، سوزان في (رحلة الى الخريف) ، ديزير أرمفلد في (ابتسامات ليلة صيف) .

وجدت مثيلة لشخصية غان في ايها دالبك التي لا يمكن مقارنتها بأحد . فكلتا المرأتين استطاعتا تجسيد نصوصي الغامضة والتعبير عن حالات من الانوثة التي لا تقهر ، بطريقة لم أجرؤ على تخيلها قط .

* * *

ثمة أحلام تتراءى لي باستمرار ، وأكثرها مرتبط بأجواء المهنة .
أرى نفسي واقفاً في الاستوديو على وشك إخراج مشهد ما والجميع
موجودون بانتظاري : الممثلون ، المصور ، المساعدون ، عمال الكهرباء
والكومبارس . ولسبب ما لا أستطيع أن أتذكر نص السيناريو الذي
يجب تصويره اليوم فاسترق النظر الى دفتر ملاحظاتي حيث لا أجد
فيه سوى خطوط مهمة . فالتفت الى الممثلين وأحاول خداعهم بالحديث
عن الوقفات أثناء الحوار ، ثم استدير ناحية الكاميرا وأقرأ خطأ ما ،
وأعيد قراءته ثانية بهدوء .

الممثل ينظر الي بارتياح لكنه يطيع تعليماتي . انظر اليه عبر الكاميرا
فأرى نصف وجهه وعيناً واحدة محدقة . هذا غير صحيح ، والتفت
الى سفن نيكفست الذي ينظر عبر محدد اللقطة ، يضبط البؤرة ويختبر
الزوم . وفي هذه الاثناء يختفي الممثل ويقول احدهم انه ذهب ليدخل
سيجارة .

ألاحظ صعوبة اضاءة المشهد ، وأرى وجه سفن غير المقتنع ولكن
بتهديب . انه يكره الاضاءة القوية فوق الرؤوس والاخيلة المزدوجة .

آمر بإزالة الحائط بحيث نحرر انفسنا ويصبح بإمكاننا تصوير
المشهد من الجانب الآخر . لكن أحد المساعدين يقول إن إزالة الحائط
سوف تستغرق ساعتين من الزمن ، لأن هذا الحائط بالذات هو حائط
مزدوج ومرتبطة بحائط آخر ثقيل يصعب تحريكه ، وربما تسبب تحريكه
بانهيار الديكور كاملاً . أبدي تدمري بكلمات مبهمه ، وأحس بالاسى
لأنني أنا من أصر منذ البداية على ربط الداخلي بالخارجي .

أمر بتحريك الكاميرا الى الباب وانظر من خلال محدد اللقطة .
ان الكومبارس يخفون الممثل ، يجب أن يتحرك الى اليمين حتى تمكن
رؤيته ، لكن فتاة السكربيت تشير وبلباقة الى ان الممثل قد تحرك
الى اليسار في اللقطة السابقة .

الهدوء يسود الاستوديو . الجميع ينتظرون بصبر ولكن دون أمل .
أحدق بيأس من خلال محدد اللقطة فأرى نصف وجه الممثل وعينه .
وللحظة اعتقد أن هذه اللقطة ستكون مدهشة وستحظى بإعجاب وتقدير
النقاد العالميين ، ثم أعود وأرفضها .

وفجأة أجد الحل : لقطة مع حركة كاميرا . . يجب أن تتحرك الكاميرا
حول الممثلين وتجتاز الكومبارس . إن تاركوفسكي يحرك كاميرته
باستمرار في كل مشهد ويدير بها في كل اتجاه . كنت أعتقد أنها تقنية
كريهة لكنها ستحل جميع مشاكلي . ويمضي الوقت .

يخفق قلبي بقوة وأجد صعوبة بالتنفس . سغن نيكسفت يقول إن
تحريك الكاميرا مستحيل . لماذا يجب أن يكون سغن أخرق هكذا ؟
بالطبع إنه يخشى حركة الكاميرا الصعبة وقد تقدم به السن وازداد
جبنه . أنظر إليه بيأس ، فيشير الى خلفي وهو حزين . التفت فلا أجد
أي أثر لمكونات المشهد . لا شيء سوى جدران الاستوديو . إنه محق ،
فحركة الكاميرا مستحيلة .

ومن شدة يأسى أقرر أن ألقى خطبة قصيرة أمام العاملين . أردت
أن أقول إنني أعمل في السينما منذ أربعين عاماً وإنني أخرجت خمسة
وأربعين فيلماً ، وأبحث الآن عن حلول جديدة وأريد تجديد مخيلتي .
يجب على كل واحد أن يتساءل حول نتائج عمله باستمرار . أردت أن
أقول لهم إنني كفتُ وذو خبرة عظيمة ، وإن هذه المشكلة ليست سوى
شيء تافه ، وإنني لو أردت لحركت الكاميرا قليلاً الى الخلف وصورت
لقطة عامة وهذا سيكون حلاً ممتازاً . أنا لا أومن بالله ، وأعرف أن

الأمر ليس بهذه السهولة . فكل منا يحمل إلهاً في داخله . أردت أن أقول لهم كل هذا ، ولكن لا داعي . لقد تراجعوا وتجمعوا داخل الاستوديو المظلم وبدؤوا يتجادلون . لم أستطع أن أسمع حديثهم ولم أكن أرى شيئاً سوى ظهورهم .

أجد نفسي في طائرة كبيرة وأنا الراكب الوحيد فيها . تسرع الطائرة على المدرج لكنها لا تستطيع أن ترتفع فتحلق فوق الشوارع العريضة والأبنية ، وأرى من خلال النافذة أناساً يلوحون بأيديهم . إنه يوم ثقيل وعاصف . اتق بمهارة الطيار لكنني أدرك أن النهاية وشيكة .

ها أنا أطيّر الآن دون طائرة ، أحرك ذراعيّ بطريقة معينة وأرتفع عن الأرض وأستغرب كيف أنني لم أجرب هذا من قبل . إنه سهل للغاية . وأدرك في الوقت نفسه أن امكانية الطيران موهبة خاصة لا يمتلكها أي إنسان . ومن بوسعه أن يطير فإنه يبذل جهداً خارقاً ، أما أنا فأطيّر بحرية وسهولة مثل الطير .

أجد نفسي فوق أحد السهوب في روسيا . أطيّر فوق نهر عريض وجسر مرتفع يقوم الى جانبه بناء آجري تتصاعد من مداخله سحب الدخان ، وأسمع هدير الآلات . . إنه معمل .

ويتغير مجرى النهر ، ضفافه مزروعة بالأشجار ، وبانوراما الرؤية غير محدودة . اختفت الشمس وراء الغيوم لكن الضياء قوي . مياه النهر الخضراء تندفق بقوة عبر أخدود عريض وأرى أحياناً أخيلة تمضي فوق الحجارة في أعماق الماء وأسماكاً كبيرة مضيئة . أشعر بهدوء وثقة مطلقة .

عندما كنت صغيراً وأناام جيداً كنت تعذبني أحلام بفيضة : جرائم ، تعذيب جسدي ، اختناق ، سفاح القربى ، تدمير ، غضب أهوج . أما اليوم ومع تقدمي بالسن فإن أحلامي تغيب عن ذاكرتي ولا احتفظ عنها إلا بانطباعات ودودة ومريحة .

أحياناً أحلم بإنتاج ضخم يضم مجاميع هائلة من الناس مع موسيقا
ومشاهد ملونة ، وأهمس لنفسي وقد تملكها إحساس بالرضى المطلق :
« هذا إنتاجي ، وأنا الذي أبدعته » .



في مطلع الخمسينيات تلقيت وعداً بالعمل في المسرح الدرامي الملكي . لكن فرحتي لم تكتمل إذ سرعان ما تغير نظام المسرح مع قدوم مدير جديد تنصل من كافة الوعود السابقة ، وأخبرني بنبرة مهينة أن مستواي لا يرتقي الى مقاييس مسرحنا الوطني . وحتى أواسي نفسي كتبت مجموعة مسرحيات رفضت جميعها . واستمرت هاريت بعملها في مسرح سكاللا ، وكانت تقول : « لا أمانع أن أكون متوحشة وحررة إذا كان انغمار برغمان مولعاً بي » .

اتناء ذلك لم تعد علاقتنا واعدة ، فقد كانت شياطين الغيرة تسمم حياتنا . لذلك انتقلت الى فندق صغير في أعلى بناء مسرح الجنوب . وأثناء انفجار غير مألوف بالنسبة لي ، لحالة من الكراهية العميقة ، كتبت سيناريو فيلم (الليلة العارية) .

وبما أن أحداً من مديري مسارح العاصمة لم يرغب بخدماتي ، فقد قبلت عرضاً من مسرح مدينة مالو ، وسافرت إليها مع هاريت وأقمنا في شقة من ثلاث غرف تقع في حي سكني جديد على الطريق المؤدي لليمهامن ، واشترت بعض الأثاث الضروري .

بعد ذلك أخذنا نفوس في عالم المسرح .

للوهلة الأولى يبدو مسرح مدينة مالو مؤسسة كريمة تضم قاعتين للأوبرا والباليه والأوبريت والمسرح . القاعة الأولى كانت كبيرة جداً (١٧٠٠ مقعد) وتدعى بو الكبير ، أما الثانية فصغيرة جداً (٢٠٠ مقعد) وتدعى سكويك الصغير . وكانت حالة المسرح فيما يتعلق بالتجهيزات

الصوتية ، سيئة للغاية ، حفلات الأوركسترا كانت تفتقد الرنين المطلوب . بالإضافة الى وجود قوس حجري عريض عند ستارة المسرح ومسافة كبيرة تفصل بين الجمهور والخشبة ذات الأرضية المهترئة . وكان يخدم هذا الوحش عدد لا بأس به من العاملين ذوي الأجور الضئيلة الذين يقدمون عشرين عرضاً في العام الواحد ، وكان مدير المسرح ، الأتوقراطي لارس - لفي لاستاديوس ، قد جاء اليه مباشرة من عمله كواعظ نهضوي . كان قارئاً جيداً وشخصاً طائشاً مزهواً بنفسه بشكل مهووس ، وهذه التركيبة لا يمكن ازديادها في شخصية مدير للمسرح .

كانت السنوات الثماني التي أمضيتها في مسرح مدينة مالو من أفضل سنوات حياتي . . كنت أخرج ثلاثة عروض مسرحية كل شتاء وفيلمين سينمائيين كل صيف . كانت يدي طليقة وحياتي الخاصة قد توقفت عملياً . عشت منطوياً على ذاتي أبذل جهداً لأزود ذلك الوحش بالعروض المسرحية ، وكنت متحرراً من أية أعباء إدارية ، فنذرت نفسي بإخلاص وحرية من أجل اكتشاف مهنتي .

وأصبح مسرحنا مركز اهتمام ، وأدرك ممثلون مشهورون ميزات تقديم مسرح جيد في الشتاء وتصوير أفلام مع برغمأن في الصيف . وتطور عمل مجموعتنا المسرحية وتشجعنا على أن نغامر أكثر فأكثر في عالم الدراما .

ولو خطر لأحد أن يسألنا عن أهدافنا التي نسعى إليها . لما كان بوسعنا أن نجيب .

لا أستطيع أن أتذكر أية أهداف سياسية أو دينية أو فكرية حاولت ايصالها من خلال أعمالي الثلاثة عشر في مسرح مالو . كنت أعرف فقط أن المسرح بحاجة لبرنامج وأنه من غير المجدي على الإطلاق ، كما قال

هاملت : « أن تقدم الكافيار للجميع » على خشبة المسرح الكبيرة . كان العمل يتمثل في وضع برنامج مسرحي مقنع ومؤثر .

كنت اصل الى المسرح كل صباح في التاسعة ، أتناول إفطاري المؤلف من ست قطع من البسكويت وفنجان شاي ، ثم أبدا البروفات في التاسعة والنصف ونستمر حتى الواحدة . عند الغذاء أتناول وجبة من البيض واللحم مع فنجان من القهوة المركزة ، ثم أتابع عملي حتى الرابعة . . فأجري بعض اللقاءات وأعطي دروساً في مدرسة المسرح وأكتب سيناريوهات . وأغفو للحظات على كرسي . أتناول العشاء في بوفيه المسرح ، وهو دائماً عبارة عن شريحة لحم حمراء مع البطاطا ، وأتابع تحضير أعمالتي لليوم التالي .

عندما تنزع هاريت مكياجها وتبدل ثيابها ، نعود الى المنزل لننام دون أن يكون لدى أحدنا الكثير ليقوله الآخر . كنت أسافر الى استوكهولم باستمرار لأتابع مشاريع أفلامي ، وكنت أقيم هناك في شقتي ذات الغرفة الوحيدة وأتناول طعامي في الاستوديو . كان يوجد لدي بنطالان وبضعة قمصان وملابس داخلية مهترئة وحذاءان . كانت حياتي عملية ودون متطلبات . توصلت الى قرار بأن الضمير المذنب مجرد تكلف لأن عذابي إن يصلح أبدأ الضرر الذي سببته . كنت أعاني من قرحة معدية . اتقياً باستمرار ، تهاجمني نوبات تشنج في المعدة يليها أسهال مزعج . في خريف عام ١٩٥٥ وبعد تصوير فيلم (ابتسامات ليلة صيف) كنت أزن ستة وخمسين كيلو غراماً ، فأرسلوني الى مستشفى كارولينسكا بعد الاشتباه بوجود سرطان في المعدة ، حيث أشرف الدكتور شتور هيلندر على متابعة فحوصاتي . وذات أمسية جاء الى غرفتي حاملاً صور الأشعة وجلس يشرح لي حالتي بصبر وتأن ، وشخص اعتلالي بأنه (نفسي - جسدي) ، وأخبرني بأنني يجب أن أبدي اهتماماً أكثر بتلك المنطقة الغامضة التي تشكل الحدود بين الجسد والروح ، ونصحني بتناول اليوغارت ، وهي نصيحة ما زلت

اعمل بها حتى الآن ، وكان يعتقد أنني أعاني من ردات فعل ذات حساسية معينة ، وأن الأمر يتعلق بكيفية تعاملي مع الأشياء التي لا أستطيع تحملها . كان إنساناً يشع بالمقدرة والمودة والحكمة .



أفنت ذلك الممثل والمخرج المخضرم ، فيكتور سيو ستروم بأن يؤدي الدور الرئيسي في فيلم (الفريز البري) . كنا قد عملنا سابقاً في فيلم (الفرح) ولم يشعر أحدنا بحاجة ماسة لتكرار التجربة . كان فيكتور متعباً ومريضاً ويجب أخذ كثير من شروطه بعين الاعتبار ، ومنها أنني وعدته بأن يكون في منزله كل يوم عند الساعة الرابعة والنصف ليتناول كأس الويسكي المعهود .

بدأ التعاون بيننا بشكل مرعب . . كان فيكتور عصياً ، وكنت أنا متوتراً . كان يبالح في الأداء أحياناً فألفت نظره الى ذلك ، فلا يكون منه إلا أن يحتمي بانسحاب الوثائق من نفسه ويقول إنه لا بد من وجود شخص ما غيره يستطيع القيام بالدور وفق ملاحظاتي ، وإن طبيبه لا بد أن يعطيه في يوم ما شهادة تثبت سوء حالته الصحية .

وعندما كانت تظهر الفتيات في ساحة التصوير تنتعش أحواله ويفرح لمزاجهن اللطيف ، فيغازلهن ويشترى لهن زهوراً وهدايا صغيرة . وذات مرة ، وبشكل خفي ، قمت بتصوير بيبي أندرسون جالسة على ضفة المرج وهي تطعمه بيدها كرزاً برياً ، وكان كل مرة يعض أصابعها ويضحكان بصوت عالٍ .

وإثناء فترات الاستراحة كنا نتحلق حول فيكتور ونهال عليه بالأسئلة كالأطفال ، ونطلب منه أن يحدثنا عن أيامه القديمة وعمله ، عن المنتجين وزملائه من المرحلة الصامتة أمثال موريس ستيلر وشارلز ميغنوسن ، وعن الممثلين ومدينة السينما القديمة ، فكان يتحدث بسرور

وطيب خاطر واعترف انه في لحظات كثيرة كان لا يستطيع أن يتفوه بكلمة تعبيراً عن رايه ، فيبتعد عن الجميع ويضرب رأسه بحائط ما ، وعندما تخف حدة توتره ، يعود بانتفاخ في جبهته . كان يرى فشله في أحيان كثيرة فيتضايق من نفسه ومن افتقاره للمهارة . وكان يمتدح ستيلر المتفطرس دون أن يقارن نفسه بأحد من زملائه القدامى .

وتحدث بصراحة عن حبه لزوجته السابقة ، أديث إيراستوف ، وعن الدراما الكامنة وراء دراما (عطيل وزوجته) ، وهو أحد أفلامه القديمة . وفجأة لاذ بالصمت ، وتراجع مبتعداً ، وأصبح وجهه قناعاً من الحزن .

استمر التصوير بنجاح ، وذات يوم ذهبنا لتصوير المشهد الأخير من الفيلم في منطقة مجاورة لمدينة السينما . عند الساعة الخامسة بدأت الشمس تنحدر وأصبحت الغابة معتمة ، وكان فيكتور غاضباً وحاقدًا وجاء يذكرني بوعدتي حول الساعة الرابعة والنصف ، البيت وكأس الويسكي . ناشدته بأن نستمر في العمل ولكن دون جدوى . مضى بنشاكل وبعد ربع ساعة عاد وهو يقول : أألن تصور هذه المشاهد اللعينة؟

لم يكن مزاجه بحالة أفضل لكنه قام بواجبه . فعندما سار مع بيبي أندرسون على العشب المضاء بأشعة الشمس ، وهو يدمدم متدمراً ويرفض كل محاولات التودد اليه ، صورنا اللقطة العامة ، وبعد ذلك جهزنا اللقطة وجهه القريبة ، فابتعد قليلاً وجلس ودفن رأسه بين كتفيه، وأخذ يرفض باحتقار عرض كأس الويسكي في موقع التصوير . وعندما أصبح كل شيء جاهزاً ، أقبل مترنحاً ، يعاونه بعض المساعدين ، وقد أزهقه مزاجه السيء . دارت الكاميرا وطلقت الكلايكت ، وعندئذ تغيرت ملامح وجهه فجأة وأصبحت ناعمة ، وغمره الهدوء واللفظ : انها لحظة مباركة . لقد كانت الكاميرا هناك ، وكانت تدور ، ولم يفسد معمل التحميص لاحقاً شيئاً من المشهد .

فوجئت بعد زمن أن احتجاج فيكتور حول وعدتي بكأس ويسكي الساعة الرابعة والنصف ، وغضب شيخوخته ، كنا بسبب خوف مقلق من أن يجد نفسه غير ملائم ، مرهق ولا فائدة منه ، أو ليس جيدا بالقدر الكافي « ... لا أريد . ليس لديهم الحق لأن يطلبوا مني ذلك . لم أرغب بأداء هذا الدور . لقد خدعت . لا ، ليس ثانية ، هذا الرعب والاحساس بعدم الملائمة ، لا ، لا أريده من جديد . لست مضطرا ، ولا أحد يستطيع أرغامي . أنا عجوز متعب . لا جدوى من أي شيء ، فلم كل هذا العذاب؟ اذهبوا الى الجحيم ، أريد أن أبقى وحدي . لقد قمت بواجبي وانتهى الأمر . أما التتمرد على رجل مريض فهذه قسوة . الى الجحيم أنتم والفيلم ، ومع ذلك دعوني أجرب . لن يلوموا سوى أنفسهم ولن أكون بالمستوى الجيد ، سوف أظهر وأريهم بأنني لم أعد أصلح وأري هذه الحشرة الصغيرة بأنه لا يستطيع معاملة أناس مسنين بهذه الطريقة ، وسوف يقدم لي تأكيدا ثابتا على عدم قدرتي ، والتي ، كما يعتقد ، ظهرت في يوم التصوير الأول ... » .

ربما كان ذلك الصديق العجوز يفكر بهذه الطريقة . الآن فقط استطعت أن أفهم سبب غضبه ، عندما وجدت نفسي في الورطة نفسها تقريبا . كل الألعاب اللطيفة أوشكت على نهايتها ، وبدأ الملل يحرق بوجهي . ان الخوف من عدم القدرة يهاجم قدرتي ويدمرها . في الماضي كنت أطيّر بحرية ، وأساعد الآخرين على الطيران ، أما الآن فأشعر بحاجة الى ايمان الآخرين بي ، ويجب أن يساعدوني على الطيران . فانا ما زلت أرغب بأن أطيّر .

* * *

عندما بدأنا بالعمل على مسرحية (رقصة الموت) للمرة الثانية عام ١٩٧٨ ، كانت قد تأكدت اصابة اندرس إيك بسرطان الدم . كان المرض يسبب له آلاما مبرحة حاول تخفيفها بتناول أدوية قوية ، وكانت كل لحظة تكربه . الى ان أكدت لنا رقصة السيف ، وهي من أهم مفاصل

المسرحية ، استحالة العرض . فقررنا تأجيله للمستقبل بعد أن قطع طبيبه وعودا غامضة بأن الآلام سوف تنحسر مع تقدم العلاج . واستمرت البروفات على نحو غريب ، وكانت الساعات تنقضي ببطء وأدركنا جميعا أن العرض لن يكون عمليا وملائما ، لكنني ولأسباب واضحة لم أرغب أن ينسحب من العمل ولم يرغب هو بذلك أيضا .

كنا قد عملنا سوية منذ مطلع الأربعينيات ، وخلال السنوات الماضية تشاجرنا مرارا وأهان أحدهنا الآخر وتصالحنا ، ثم عدنا واختلنا وافترقنا غاضبين ، وشعرنا بالندم فعدنا أصدقاء من جديد . وكانت (رقصة الموت) تمثل قمة تعاوننا في عرض كان يضم ممثلين متميزين ، وخصوصا مارغريتا كروك وجان - أولوف ستراندبرغ .

ها أنا الآن أراقب أندرس يحزن وقلق وهو يبحث عن خوفه من الموت ، ويتعرف إليه في شخصية الكابتن . وتتحول كلمات ستراندبرغ التي توجز حالة يرثى لها لشخص مصاب بوسواس المرض ، من خلال تأويل أندرس لها ، إلى رعب ساموراي رزين وفضولي . كانت حالة مروعة ومخجلة وميثوساً منها جعلت عملنا في المسرح يبدو سخيفاً .

ذات صباح اجتمعت مع أندرس في غرفة الملابس . كان يجلس إلى طاولة المكياج ، يده مرتختان ووجه رمادي من الألم والتعب وقد أضاءه ضياء خريفي . اعترف بأنه يستسلم الآن وإن استهلاكه المتواصل للعقاقير قاتلة الألم قد شوش ذهنه وتفكيره ، وأنه أدرك بأنه يستخدم خوفه من الموت في تمثيل شخصية الكابتن .

ولامني لأنني لم أقل له شيئاً .

* * *

التقيت فريق العمل في مكتب السينما توأغراف لاجراء بروفة على سيناريو (سوناتا الخريف) . قرأت انغريد برغمان دورها بصوت جهوري مع حركات وتماير معنية . وكانت قد راجعت دورها كاملا أمام

المرأة وقررت كيف ستؤديه . كان الأمر أشبه بالصدمة حتى أنني أصبت بالصداع ، وهربت فتاة السكريببت الى الممر وهي تبكي برعب . لم يعد أحد منذ الثلاثينيات يسمع مثل هذه التبررات الزائفة التي كانت انغريد تقرأ بها ، وقد قامت النجمة بشطب ما تشاء من النص لأنها ترفض الكلمات الكريهة .

وقالت إن قصة السيناريو باهتة ويجب ابهاجها ببعض النكات . « لماذا أنت ممل الى هذه الدرجة عندما تكتب يا انغمار ؟ ان بوسعك أن تكون مسليا » ، ثم استمعت الى إحدى معزوفات شوبان التي ستمثل لحظة الذروة في النصف الاول من الفيلم وعلقت قائلة : « يا ربنا الذي في السموات ! هل ستعزف هذه المقطوعة السخيفة مرتين في الفيلم ؟ انغمار أنت مجنون حقا فالجمهور سوف ينام . يجب أن تختار شيئا جميلا واقتصر . اما هذه فانها مملة لدرجة انني أتشاءب الآن » .

كانت انغريد برغمان تقوم في الفيلم بأداء دور عازفة بيانو ، ومن المعروف أن معظم عازفي البيانو ظهورهم محنية ، لذلك يمشون بعض الوقت مستلقين على أرض صلبة . وفي أحد المشاهد طلبت من انغريد أن تستلقي على ظهرها ، فضحكت وقالت : « لا بد أنك جننت يا عزيزي انغمار ، هذا مشهد جدي ولا أستطيع القيام به وأنا مستلقية على ظهري هذا سخف وسوف يضحك الجمهور منا . أعرف أنه لا يوجد كثير من الضحك في هذه القصة المروعة ، ولكن لماذا تريد أن يضحك الناس في مكان غير مناسب ؟ أخبرني لماذا ؟ » .

وبدا التصوير بشكل مزعج .

كانت شركة التأمين قد رفضت التأمين على حياة انغريد بعد أن أجريت لها عملية استئصال ورم خبيث . وبعد اسبوع من بدء التصوير جاءنا من لندن ، حيث كانت انغريد تجري فحوصها الروتينية ، خبر مفاده ان الأطباء وجدوا أوراما جديدة ويجب أن نخضع انغريد على

انفجور لعملية جراحية وعلاج بالأشعة . لكنها قالت : إنها تنوي إنهاء الفيلم أولا ، وسألنا فيما اذا كان بالامكان ضغط ايام التصوير الخاصة بها ، وكانت كمن تضعنا أمام الامر الواقع .

عادت الى العمل وكان شيئا لم يحدث ، وتحول اعتراضها الذي أبدته في ايام التصوير الأولى الى اعتداء مهني وقح ، وانهمني بقله الشرف والحث ان اطلعها على رأي الحقيقي ، وقد اجبتها بما كنت اعتقد تماما . . فتشاجرنا .

في الوقت نفسه اكتشفت انفريد ظاهرة لم تر مثيلا لها في حياتها المهنية كلها . كانت ثمة وحدة وأخوة تجمع بين مجموعة النساء العاملات في الفيلم ، وكن نساءً قويات ومستقلات ، محترفات وخبيرات . كانتا فارغو في ادارة الانتاج ، انفر برسون مسؤولة الملابس ، سيلادرون للمكياج ، سيلفيا انمارسون المونتاج ، وأنا أسب مصممة المناظر ، كرستين ايركسدوتر ، فتاة السكربيت وزوجتي ومديرة المكتب ، ليف أولمان المثلة . انجذبت انفريد برغمان الى هذه الوحدة وكانت تضي بين الحين والآخر لساعات من مشاعر المودة .

كانت انفريد تحتفظ بعلمة قصدير رثة تضم شرائح من افلام التقطت لها في طفولتها وشبابها ، وتأخذها معها الى اي مكان تذهب اليه في العالم . كان والدها مصورا فوتوغرافيا يستأجر كاميرا سينمائية في المناسبات . وخلال الأربع عشرة دقيقة ، زمن عرض هذه الشرائح ، يمكن رؤية ام انفريد مع كلب صغير عند قدميها ، ثم انفريد الطفلة عند قبر والدتها ، ثم وهي تضحك وتغني وتعزف البيانو ، ثم وهي امرأة شابة تبسم وتقطف أزهارا من الحديقة . كانت انفريد تعتبر هذه الافلام كنزا لا يقدر بثمن ، وقد استطعت ان اقنعها بعد جهد بأن تعيرني اياها لاخرج منها نيجاتيفا ونسخا جديدة .

واجهت انفريد مرضها بغضب ونفاد صبر ، لكن جسدها القوي
انهار وتأكلت مشاعرها . كانت منتظمة أثناء عملها داخل الاستوديو .
وذات صباح التفتت الي بعنف وصفعتني (مازحة ؟) وهددتني بأنها
ستمزقني اربا اذا لم أخبرها فوراً بكيفية اعداد المشاهد . اجبتها وأنا
غاضب لهجومها المفاجيء بأنني سبق وحذرتها مئات المرات بالأ تفعل
شيئاً . وان الهواة اللعينين وحدهم يفكرون بما سيفعلونه في
كل خطوة . عندئذ اخذت تهزأ بحدة ومرح من سمعتي كمخرج يعرف
كيف يدير ممثليه ، فأجبتها بالمقابل وباللهجة نفسها ، انني أشفق على
المخرجين الذين عملوا معها أثناء شهرتها . وهكذا تبادلنا الكلمات بهذا
الاسلوب ، ثم بدأنا نضحك وعدنا الى الاستوديو حيث كان الجميع
ينتظرون بفضول . هدأت بنفريد ، وانتفخ جفناها وكانهما امتلأا بالدموع ،
سقط القناع الصارم ، وسجلت الكاميرا وجهها انسانيا يعاني .

تم تصوير فيلم وثائقي عن مراحل التصوير ، وكانت مدته خمس
ساعات كاملة . بعد ستة أشهر جاءت انفريد لزيارتنا في فارو وأصرت
على مشاهدة الفيلم الوثائقي . وعندما أنتهت من مشاهدته جلست
صامتة لبضع دقائق ، وهو امر غير مألوف بالنسبة لانفريد ، ثم قالت
بصوتها ذي النبرة الفذة : « كان يجب أن اشاهده قبل البدء بتصوير
الفيلم » .

وفي احد الايام كنا جالسين في الاستوديو بانتظار أن تجهز الاضاءة .
كانت الشمس على وشك الغروب وقد توزعنا في زاويتين متقابلتين
لصوفا جلدية مهترئة . قامت انفريد بحركة نادرة بالنسبة لمثلة ..
رفعت يدها ومررت بها على وجهها عدة مرات ، ثم تنهدت بعمق ونظرت
الي دون مودة ولا حتى محاولة للتواصل ، وقالت : « أنت تعرف أنني
أعيش زمنا مستعارا » .. ابتسامة مفاجئة .. زمن مستعار .

* * *

التحقت بالدراماتن - المسرح الدرامي الملكي في استوكهولم - قادماً من مدينة مالمو ، وعلى الرغم من وجود طاقم فني رائع فقد قدمت عرضاً سيئاً لمسرحية (نورس البحر) ، وطلبت من الإدارة ان اتفرغ بعض الوقت لفيلمي المقبل . وجدت نفسي فجأة شخصاً ناجحاً ، يكسب نقوداً ولم أعد أعاني من الإضطرابات العصبية نتيجة تحملي مسؤولية اعادة اسر مختلفة .

ارهقني اسلوب حياتي البوهيمي ، فتزوجت كابي لاريتي ، وكانت عازفة بيانو صاعدة وانتقلت معها إلى فيلا انيقة في منطقة جورشولم وقد نويت أن أعيش حياة بورجوازية ومنظمة .

ذات مساء كنت أعمل في غرفة المونتاج ، عندما اتصل بي وزير الثقافة وسألني إن كنت راغباً في استلام منصب مدير المسرح الدرامي الملكي . ذهبت لمقابلته واطلعتني بسرعة وحيوية على مطالبه . كان يريد خلق مسرح معاصر من الدراماتن ، فأشرت له بأن مثل هذا المشروع سوف يكلف أموالاً طائلة فأجاب الوزير بأنه مستعد للدفع اذا قبلت العرض . ومن شدة جهلي بصدق السياسيين النسبي في هذا العالم ، لم اطلب منه أي تأكيد مكتوب لوعده ، وأكدت له من ناحيتي انني سأعمل كل مايسوعي رغم كل الاحتجاجات التي ستواجه هذا المشروع . اعتبر الوزير موقفي ممتازاً . وهكذا اصبحت مدير المسرح الدرامي الملكي .

أتخيل أن ردة الفعل الأولى داخل المسرح كانت مؤيدة لي . صحيح أن أعضاء مجلس الادارة كانوا فظين إذ أنهم بالاشتراك مع المدير السابق

قاموا بترشيح شخص آخر ، لكنهم سرعان ما ابتلموا انزعاجهم .
واستقبلوني بلطافة محايدة .

ولاسباب تكتيكية احتفظ المدير السابق بموضوع تقاعده سرياً لاطول
فترة ممكنة ، وهكذا وجدت امامي ستة اشهر لتحضير موسمي المسرحي
الاول ، بالاضافة إلى اني كنت مرتبطاً بانتاج تلفزيوني ضخم في الربيع
وتصوير فيلم سينمائي في الصيف .

لم تكن احوال المسرح التنظيمية تسير جيداً ، وكان المسرح يفتقر
الى قسم الاستشارة الفنية وانتظر مدير الانتاج الستة السياسات
الجديدة ، ووجدت امامي جملة من الأعمال الشاقة كقراءة نصوص
المسرحيات وتحديد البرنامج وابرام العقود والتخطيطات الأخرى .

وكان اول إجراء رسمي اتخذته جعل عملية اتخاذ القرارات اكثر
ديمقراطية، واتخذت نموذجاً لنا فيلهاارمونيا فيينا. نعقد اجتماعاً وننتخب
هيئة ادارية مكونة من خمسة ممثلين يجب عليهم ، بالاشتراك مع مدير
المسرح ، تولي شؤون الإدارة واختيار البرامج والاتفاق مع الممثلين
الأخرين وأداء أدوار في المسرحيات ، وأن يكونوا على علم تام بكل احوال
المسرح المالية والادارية . وفي حال حدوث خلاف ما ، يجري اقتراح
ويبدلي كل منهم برأيه ، بما في ذلك مدير المسرح . وبدورها فإن هذه
الهيئة الادارية تكون مسؤولة أمام الشركة وبهذه الطريقة يتم القضاء
على سياسات الكواليس والاشاعات المزيفة والمؤامرات .

تلقى الممثلون اقتراحي ببعض التردد . . من المريح دائماً أن يبقى المرء
سلبياً ويتذمر من القرارات التي يتخذها الآخرون . أبدى بعضهم تفهماً
فيما يتعلق ببيئة الممثلين ، لكن هذا التفهم سرعان ما تلاشى .

كانت الادارة شحيحة بأعضائها ومثقلة بمسؤولياتها ، وكانت غرفة
السكرتارية عبارة عن مكتب صحفي ، وملابس المسرح في حالة رثة . أما

مهندسو الديكور فهم باستمرار إما مرضى أو سكارى . وكان مفهوم التواصل في المسرح غير معروف .

اما المطعم فاكسب سمعة سيئة نتيجة رواده المريبين وطعامه المروع . تفقدت مع الوزير أولويات المسرح ، حيث كان كل شيء معطلاً عن العمل ، فالتصليحات السابقة لم تكن كافية . وما أن نفذت النقود من اللجنة السابقة حتى توقف العمل وغرق المسرح في رائحة النتانة .

بالإضافة إلى هذا كانت توجد مشكلات أخرى مؤلمة من وجهة النظر الفنية ، وكان أولوف مولاندر يمثل واحد منها . لقد أمضى عقوداً طويلة كان خلالها المعلم الكبير في المسرح ، ينافسه آلف سيوبرغ باستمرار وكان مولاندر قد تجاوز السبعين ومع تقدمه بالسن بدا خوفه أكثر وضوحاً ، وأصبح رجلاً مُعذباً يعذب الآخرين .

تجاوزت انتاجاته كل الجداول المتعارف عليها ، وبسبب مزاجه فقد حول المسرح الى حالة من الفوضى المحمومة ذات الطابع غير المبدع ولكن المدمر . لم يشك أحد بقدراته الفنية لكن أحداً لم يعد راغباً بالتعاون معه .

... أوكلت الهيئة الادارية إلي مهمة ابلاغ مولاندر بأن نشاطه في المسرح سوف يتوقف .

كان يرتدي كمادته ثياباً أنيقة ، بذلة مكوية جيداً ، وقميصاً أبيض وربطة عنق داكنة وحذاءً لامعاً . كان قد فقد إظفر أحد أصابع يده البيضاء الجميلة ، الأمر الذي ضايقه قليلاً . وكانت نظراته الجليدية مركزة على نقطة ما وراء اذني اليمنى ، وكان يميل إلى جانبه بدرجة بسيطة مثل القياصرة ويتسم ابتسامه خفيفة .

كان الموقف غريباً للغاية . لقد كان مولاندر رجل المسرح الذي علمني سحر الدراما العميق والذي تلقيت من خلاله دوافعي الأولى

القوية ، وفجأة بدت لي مهمة الهيئة الادارية مستحيلة تماماً خصوصاً
وأنه بدأ يتحدث عن مشاريعه للموسم القادم حيث كان ينوي اخراج
ثلاثية سترندبرغ المسرحية (الى دمشق) مع مجموعة قليلة من
الممثلين . كان يتحدث ويشير بأصبعه ذي الاظفر المكسور ، ثم ابتسم
وركز نظره على الحائط ، وخيل إلي انه يعرف بالأمر لكنه يحاول تأدية
مشهد ما ، مما كان يجعل الوضع اكثر إيلاماً .

قلت له : « دكتور مولاند ، أنا أتحدث الآن بالنيابة عن مجلس
الادارة » وللمرة الأولى نظر إلي مباشرة وقاطعني قائلاً : « تقول بالنيابة
عن مجلس الادارة ؟ الا تستطيع ان تقول شيئاً بالاصالة عن نفسك ؟ » .

فأجبت بآني أشارك مجلس الادارة الرأي .

« هل لي ان اعرف رأي مجلس الادارة يا سيد برغمان ؟ » سألني
وقد اتسعت ابتسامته وأصبحت اكثر ودية :

« يجب ان اخبرك يادكتور مولاندر بانك لن تقدم شيئاً لهذا المسرح
خلال الموسم المقبل » .

تلاشت ابتسامته ، ومال رأسه الكبير إلى اليمين وبقيت يده البيضاء
مشفولة بالاصبع ذي الاظفر المفقود .

« أوه . . . أهكذا هو الوضع ؟ » . وساد الصمت .

قلت لنفسي : « هذا مخالف للعقل والطبيعة . إنني ارتكب خطأ
جسيماً . سوف يبقى هذا الرجل في المسرح حتى لو حططنا جميعاً . إنني
مخطيء حتماً ، وباله من خطأ رهيب » .

« إن قرارك سيسبب لك بعض المتاعب ياسيد برغمان . هل أخذت
ذلك بعين الاعتبار ؟ » .

أجبتة : « لقد كنت بنفسك مديراً للمسرح يادكتور مولاندر ، وأعرف
من تاريخ هذا المسرح انك أقدمت على قرارات كثيرة غير سارة » .

أوما براسه وابتسم : « لن تنال مبادرتك هذه اعجاب الصحافة
ياسيد برغمان » .

فقلت له : « لست أخشى الصحافة .. والحقيقة يادكتور مولاندر
انني لست أخشى شيئاً على الإطلاق » .

« لا تخشى شيئاً ؟ » قال بهدوء ، ثم نظر إلي وتابع : « اهنتك . في
هذه الحالة فإن افلامك هي اختراعات ذكية جداً » .

ونفض بسرعة وهو ينوي حديثه : « لا يوجد لدى أحدنا ما يقوله
الآخر ، أليس كذلك ؟ » .

تساءلت اذا كان بوسعي العودة والبدء من جديد ومحاولة اصلاح
هذا الضرر ، ولكن فات الآوان وبذلك ارتكبت خطئي الرهيب الأول
كمدير للمسرح .

وقفت ومددت يدي لمصافحته ، لكنه تجاهلها قائلاً :

« سوف أكتب الى مجلس الادارة » . ومضى خارجاً .

كانت تقاليد المسرح تقضي ان يشارك المدير في جميع القرارات من
أكبرها الى أصغرها . وقد بقي الحال كذلك بالرغم من عملية اتخاذ
القرارات المشتركة واعصارات الاجتماعات المستمرة . إن الدراماتين
مؤسسة فاشستية ميئوس منها يمتلك مديرها فرصاً هائلة لتشكيل
فعالياتها الداخلية والخارجية . أحببت هذه السلطة ، وكان مذاقها
طيباً وحافزاً . من الناحية الأخرى اتخذت حياتي الخاصة طابعاً أشد
تعقيداً ، لكنني كنت أتحاشى التفكير بها اثناء وجودي بالمسرح من الثامنة

صباحا وحتى الحادية عشرة ليلا . وخلال فترة الاثني عشر والاربعين شهرا التي عملتها مديرا للمسرح ، اخرجت سبع مسرحيات وفيلمين سينمائيين بالاضافة الى كتابة اربعة سيناريوهات .

غرقنا جميعا في العمل وكنا نقدم احدى وعشرين مسرحية خلال العام الواحد ، ثماني عشرة منها على المسرح الكبير وثلاث على المسرح الصيني ، وهو مسرح للشباب .

كانت رواتب الممثلين ضئيلة فرفعتنا بمقدار اربعين بالمائة ، اذ كنت اعتبر الممثل مفيدا مثل اسقف او راعي ابرشية . واقترحت فكرة اسبوع اجازة حيث تمنع خلاله العروض والبروفات ، وقد سخر الممثلون لذلك واستفادوا من هذه الايام للتنزه في ضوء القمر .

قوبلت اجراءاتي بصمت قلق من قبل المعارضة التي جمعت صفوفها بطريقة سويدية نكدة ، والتقى مديرو مساح البلاد في مطعم اوتر الذهبي لمناقشة ما انا بصدده . ان المسرح الذي ينتشر بسرعة يجلب الانتقاد لنفسه وبدأ احدهم يسرب معلومات عن المسرح الى جريدة مسائية . وجهت لنا انتقادات مختلفة ، ومنها اننا لا نقدم مسرحيات سويدية معاصرة بالقدر الكافي ، وهذا الانتقاد بعينه كان يزعج المسرح الوطني خلال القرون الماضية وليس بوسع احد ان يفعل شيئا تجاهه .

لا اعرف تماما كيف كان الوضع ، اعتقد انه كان مسليا ولكن بطريقة مجنونة : رعب وتسلية في آن واحد . اذكر انني كنت اشعر بالمرض والتعب وفي الوقت نفسه احترق من الفضول كل يوم ، واذكر كيف كنت اصعد الدرج الخشبي الضيق الى غرفتي السكرتارية والادارة . تمتلكني احساس هو خليط من الرعب والبهجة . تعلمت ان كل شيء هو مسألة حياة او موت ، وان الفهم وسوء الفهم يسيران سوية مثل توءم سيامي ، وان المحنة هي الجرعة الطبيعية السائدة المؤدية للفشل ،

وان نقص الثقة بالذات أخطر شيء بالعالم وأن الرغبة بالانسحاب هاجس قد يتملك حتى أقوى الناس ، وأن التذمر اليومي الذي يتكرر مثل نوته طنانة عبر الجدران والسقوف يمنع نوعا من الطمأنينة . كنا نصرخ ونتذمر ونندب ، لكننا كنا نضحك أحيانا .

من وجهة النظر المهنية اعتقد أن سنواتي كمدير للمسرح انقضت عينا . لم اطور ولم يكن لدي وقت لأفكر وكنت أبحث دائما عن كلمات معاكسة لحلول مشبته ، وعندما كنت اصعد الى خشبة المسرح في التاسعة والنصف أجد رأسي مزدحما بمشاكل المسرح الصباحية ، وبعد البروفات يمكن توقع لقاءات واجتماعات حتى وقت متأخر من المساء .

اعتقد أن مسرحية ايسن (هيدا غابر) هي انتاجي الوحيد الذي منحني بعض الرضا ، وكل ما عداها كان مجرد خليط تم تنفيذه على عجل .

ومع نهاية موسمي الاول في المسرح بدأت تواجهنا المحن .. فالافتتاح العالمي لمسرحية هاري مارتينسون (ثلاث سكاكين من فيي) الاقى فشلا ذريعا في أحد مهرجانات استوكهولم ، كذلك كان الاخفاق الممنوع والتام بانتظار العرض الاول لفيلمي الكوميدي (والان بصدد أولئك النساء) .

كان صيفا حارا ، ولم نشعر أنا وزوجتي كايي بأية رغبة لحجز مكان نمضي به اجازتنا ، فبقينا في جورشولم وقد اقعنا القيد الشديد واحساسنا بالقيود .

كتبت في يومياتي المتقطعة : « ان للحياة القيمة نفسها التي يقرر الانسان أن يحددها » . انها طريقة ساذجة لطرح الأمور ، لكنها بالنسبة لي كانت حالة من التبصر ، حابسة للانفاس ، ولا أستطيع الاستفادة منها .

أمضى مساعدي تيم صيفاً قاسياً . . . كان يعمل في السابق راقص باليه في مسرح مالو ، لكنه لم يحصل على دور رئيسي بسبب قصر قامته على الرغم من مهارته ، وعندما بلغ الأربعين خرج الى التقاعد فعينته مساعداً لي بعد أن تعقدت أمور الحياة وأصبحت مخرجاً سينمائياً مشهوراً وكان لا بد من وجود شخص ما يرد على الهاتف ويكتب الرسائل ويراجع النفقات ويعتني بتنظيم القاعدة الأساسية ، شخص يتحمل متاعب لكونه يدي اليمنى .

عاش تيم سعيداً واتخذ له صاحباً ذكراً وكان الاخير متزوجاً ولديه أطفال ، وكانت زوجته امرأة حكيمة فسمحت بالعلاقة بينهما ، بل وشجعتها . بالنسبة لي كان تيم لا غنى عنه وبقيت العلاقة معه دون تعقيدات نسبياً ، ثم تعرض للمأساة فجأة عندما وقع صاحبه في غرام جديد وابتعد تيم عن العائلة والرفقة المنتظمة . اندفع تيم بعنف الى مستنقع الكحول والمخدرات وممارسة الجنس بأحط أشكاله ، وتحول الحب الى فسق ودعارة ، وبدأ هذا الرجل الانيق والدقيق والمسؤول يهمل عمله ويظهر مع شخصيات غريبة تسيء معاملته .

وأحياناً كان يختفي لايام ، ثم يتصل مبرراً غيابه بالتهاب معوي أصابه ، ودائماً التهاب معوي . حاولت اقناعه بأن يجد لنفسه طبيباً نفسانياً لكنه رفض . كان يقول لي : « لا يوجد وفاء عند الرجال لاننا لا نستطيع انجاب أطفال . الا تعتقد بأنني كنت سأصبح أما جيدة ؟ نحن مرغمين على العيش وانوفنا غارقة في الخراء . اننا نخشع . أنا لا أؤمن بالخلاص » وربما كان من الأفضل لنا اننا لم نقيم علاقة جسدية بيننا لأنها . . . كانت ستؤدي الى الفيرة والخصومة ، ولكن من المؤسف أنك لم تحاول أبداً ولو قليلاً . على العموم أنا أفضل منك ، فانا رجل وامرأة في آن واحد ، وأكثر اشراقاً منك . »

مات تيم في صباح يوم أحد بينما كان يمد افطاره وقد ارتدى ثياباً مسرحية ووزرة مطبخ رسم عليها دونالد داك . سقط على الارض وبقي

ممددا مكانه ومات خلال ثوانٍ قليلة . موت جيد لرجل صغير شجاع كان يخشى الموت الرحيم أكثر من الحياة الوحشية .

اختار ألف سيوبرغ مجموعة فتيات طويلات القامة للكورس في مسرحية « أليستس » ، بالإضافة الى الواعدة مارغريتا بيستروم التي تخرجت لتوها من مدرسة الدراما ، وتلقت عرضاً من أحد المنتجين لتلعب دوراً أساسياً ، فسمحت لها بالانتقال دون أن أسأل سيوبرغ ووافقت هيئة الممثلين على قرارى وعلقت قائمة بأسماء الممثلين . بعد بضع ساعات اخترق الجدران صوت هادر ، تبعه ضجيج وصخب ، ثم اقتحم سيوبرغ مكتبي غاضباً وطالبنى بإعادة مارغريتا بيستروم فوراً فقلت له ان هذا مستحيل وأن هذه فرصة لا تعوض بالنسبة لها بالإضافة الى انني ارفض كل أنواع التمرد ، فأجاب سيوبرغ بأنه حان الوقت ليحطم أنفي أخيراً . تراجعت الى وراء الطاولة وذكرت له شيئاً حول السلوك المهذب ، لكنه رد قائلاً إنني عملت ضده منذ لحظة وجودي الأولى في المسرح وقد زاد الأمر عن الحد المحتمل . اقتربت منه وعرضت أن يضربني فوراً اذا كان يعتقد بمثل هذا النوع من الجدل . كان وجهه يرتعش وجسده يرجف وكنا نتنفس ببطء ، ثم ادرکنا كم كان الموقف كوميدياً وجنونياً ولكنه بعيد عن الضحك كلية .

جلس سيوبرغ على أقرب مقعد وتساءل كيف يمكن لشخصين ذوي تربية حسنة أن يتصرفا بهذه الحماقة . وعدته أن أعيد مارغريتا بيستروم لكنه رفع يده بحركة رفض مزدرية وغادر الغرفة . عندما التقينا بعد ذلك لم يشر أحدهنا للموضوع . وكنا نختلف في أحيان كثيرة حول شؤون فنية وشخصية ، لكننا كنا نتعامل بلطف ودون ضغينة .

في عام ١٩٣٠ زرت المسرح الدرامي الملكي لأول مرة في حياتي ، حيث كانوا يقدمون مسرحية خيالية للأطفال من تأليف غريستام بقه ان « كلاس الكبير وكلاس الصغير » . وكان ألف سيوبرغ مخرج المسرحية في ذلك الحين وهو يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً ، وكانت هذه المسرحية

ثاني أعماله . أذكر كل التفاصيل والاضاءة والمناظر وشروق الشمس فوق الاقزام الصغار الذين يرتدون الازياء الشعبية والقارب في النهر والكنيسة القديمة التي يحرسها القديس بيتر . كنت حينها جالساً في الصف الثاني من الطابق العلوي ، قريباً الى باب المخرج . خلال السنوات الماضية وفي ساعات هدوء المسرح الفاصلة بين البروفات والعروض المسائية ، كنت أجلس الى مقعدي القديم وأستسلم للحنين وأشعر بكل نبضات قلبي ان هذا المقعد غير العملي هو بيتي . وكانت الصالة الضخمة غارقة في الصمت وشبه العتمة ، وفكرت ان اكتب : « البداية والنهاية وكل شيء تقريباً بينهما » . يبدو الأمر سخيفاً ومبالغاً به ، ولكنني لا أستطيع ان أحدهه بشكل أفضل - البداية والنهاية وكل شيء تقريباً بينهما .

أخبرني ألف سيوبرغ ذات مرة انه لم يستمن في حياته بمسطرة لقياس مساحة الخشبة ورسم المشاهد . كانت يده تعرف القياس الصحيح .

وهكذا استقر في الدراماتن منذ عمله الاول كممثل عاطفي شاب ، (حيث قالت عنه معلمته ماريا شيلكنشت : كان ممثلاً موهوباً ولكنه كسول لذلك أصبح مخرجاً) ، وبقي فيه حتى وفاته ، وكان قد غادر مرتين أو ثلاثاً كمخرج ضيف على مسارح أخرى ، لكنه كان يعود الى الدراماتن حيث أصبح أمره وسجينه في آن واحد . لا اعتقد انني قابلت أحداً يمثل هذه التناقضات العنيفة الموجودة لديه . كان وجهه يشبه قناع دمية تسيطر عليه الارادة وجاذبية خاصة ، وخلف هذه الواجهة الصارمة ثمة تزعزع اجتماعي وعاطفة عقلانية ، معرفة للذات وخداع لها ، شجاعة وجبن ، مزاج أسود وجدية قاتلة ، لطف وفظاظة ، نفاذ صبر وصدر رحب ، كل هذا كان يمتزج مع بعضه في هارمونية واحدة . ومثل كل المخرجين ، كان يمثل دور المخرج ، ولانه أساساً ممثل موهوب فان عروضه مقنعة .

لم أحاول منافسته أبداً . . كان أرفع مقاماً مني في المسرح وهي حقيقة قبلتها دون ضغائن . ان تأويلاته بالنسبة لشكسبير قد استوفت كل

شيء ولم أستطع أن أضيف إليها شيئاً . كان يعرف أكثر مني ويرى
بعمق أكثر ، ثم يعيد خلق ما رآه .

وكان قد تأثر بلا شك بالثورة الثقافية الإقليمية التي جرت في
بلادنا أثناء مد اضطرابات الطلاب العالمية ، وكان ، خلافاً عني ، ذا
ارتباطات سياسية ، وتحدث بحماس عن المسرح كسلاح . وعندما انفجر
الوضع في الدراماتن أراد أن يزود متاريس المسرح بالدماء الشابة ، ثم
أحس بمرارة فظيعة عندما قرأ في مكان ما بأنه يجب احراق الدراماتن
وشنق سيوبرغ وبرغمان عند ساعة تورنبرغ ، خارج نيبروبلان .

ربما يأتي في المستقبل باحث جريء ويحقق في مدى الضرر الذي
ألحقته حركة عام ١٩٦٨ في حياتنا الثقافية . قد يكون هذا ممكن ولكنه
غير مرغوب به . واليوم لا يزال الثوريون المحبطون متمسكين بمكاتبهم
ومناصبهم ويتحدثون بأسى عن (التجديد الذي لم يتم) . انهم لا يرون
(وكيف بوسعهم أن يروا ؟) بأن مساهمتهم كانت جرحاً قاتلاً في عملية
تطور لا يجوز أن تنفصل عن جذورها أبداً . ففي بلاد أخرى حيث يسمح
بتداول وازدهار أفكار متفاوتة ، يحظر تدمير التقاليد والثقافة . ولكن
في الصين والسويد فان الفنانين والمعلمين محتقرون .

لقد تعرضت بنفسى للإبعاد خارج مدرسة الدراما الحكومية وأمام
ناظري ابني . فعندما ذكرت أن الطلاب سوف يتعلمون مهنة تمكنهم
من الخروج حاملين معهم رسالة ثورية ، لوح البعض أمامي بالكتاب
الاحمر محذراً .

يستطيع الشباب ان ينظموا انفسهم بسرعة ومهارة ويشيرون انتباه
وسائل الاعلام ويتركونا ، نحن المعجائز المرهقين ، في عزلة موحشة .
بالنسبة لي فانا لم اشعر بالمضايقة أثناء عملي . فجمهوري كان في بلاد
أخرى وهو الذي وفر لي سبل العيش وجعلني أعيش في مزاج طيب .
أكره التعصب الذي عرفته منذ طفولتي ، فعوضاً عن الهواء النقي نجد

امامنا التشويش والانتماء الاقليمي والتعصب والتعلق وسوء استخدام السلطة . فسدت الافكار .. وهذا الفساد قد يحدث بسرعة وقد يستغرق مئات السنين ، لكنه في عام ١٩٦٨ حدث بسرعة مخيفة وألحق في مدة قصيرة ضررا يتعذر اصلاحه .

انجز آلف سيوبرغ خلال سنواته الاخيرة أعمالا عظيمة ، فترجم واقتبس (بشارة مريم) لكلودل وكان عرضا مسرحيا خالدا ، ثم قدم (غاليليو) لبريخت وأخيرا (مدرسة للزوجات) ، العرض المتمع والمتحفظ والغامض .

كانت غرف مكاتبنا تقع في الممر نفسه وكنا نلتقي أحيانا بسرعة في طريقنا للبروفات والاجتماعات ، وكنا نجلس أحيانا أخرى على مقاعد خشبية ونحدث وننهمك في القيل والقال ونتذمر ، ولكننا لم نلتق بشكل شخصي خارج المسرح . كنا نجلس على المقاعد الخشبية لساعات عديدة ، واصبحت جلستنا طقسنا متكررا .

بعد سنوات ، وعندما اكون مندفعا الى غرفتي في الممر المعتم ذي الرائحة الغريبة ، أقول لنفسي : « ربما قد يظهر مسرعا ونصطدم ببعضنا . »



شيد في مدينة أوربرو ، غرب استوكهولم ، مسرح جديد ووجهت دعوة للمسرح الدرامي الملكي لحضور حفل الافتتاح . اخترنا نصا مسرحيا غير منشور لهيلمار برغمان ، ابن أوربرو الشهير ، ويدعى (سيدة نعمته) ، وقبل بدء البروفات أصيب الممثل اولوف ساندبرغ بوعكة صحية فطلبت من هولغر لوفينادلر أن يحل مكانه فوافق دون حماس لأنه كان يعرف بأن ساندبرغ متفوق ولا يمكن مقارنته في هذا الدور وأن النقاد المبدعين سوف يستفيدون من مقارنة غير محبذة .

وقبل أيام من السفر الى اوربرو اعدت المخرج بير - اكسل برانر الام عصبية في الظهر ، فتعذر سفره ، وكنت بدوري قد تعرضت لنزلة برد ، لكني شعرت بضرورة السفر لإلقاء كلمة وتوزيع الهدايا .

كان المسرح الجديد في اوربرو وحشا اسمنتيا شنيعا يكن ازدراء متأصلا فمن التمثيل (كانت مدينة اوربرو تضم احد اجمل مسارح البلاد والذي تحول بفضل اللامبالاة السويدية تجاه الثقافة الى حطام كامل) .

في اليوم الذي سبق الافتتاح كنا نجري بعض البروفات ونختبر الاضاءة عندما تعرض اندرس هنريكسون ، الذي يؤدي دور ويكبرغ ، لتوبات دوار ورقض استدعاء الطبيب واصر على الاستمرار وإلا فإن الحفل سوف يفشل . وفي صباح يوم الافتتاح وصلت درجة حرارتي الى الاربعين وبدأت اتقياً فاستسلمت وطلبت من المدير المالي ان يتسلم عجلة القيادة .

وبدا حفل الافتتاح المهيب . كتب لارس فورسل خطبة عصماء وقامت بإلقائها بيبي اندرسون وقد ارتدت ملابس دورها في مسرحية (ساغان) لهيلمار برغمان . وما أن بدأت بإلقاء الخطبة حتى انهار رجل جالس في الصف الثاني ومات ، فحملوه خارجا وأعادت بيبي اندرسون الخطبة منذ بدايتها وفي جو غريب للغاية . كانت حالة اندرس هنريكسون الصحية قد ازدادت سوءا لكنه رفض الانسحاب ، وجاء العرض رهيبا في النهاية واضطر الملحن لاداء دور اساسي ، وكان النقاد شديدي القسوة ولم ينل اندرس هنريكسون سوى البصاق مقابل شجاعته .

من المفهوم لماذا يشعر بالتطير كل من يعمل بالمسرح . إن فننا هذا غير معقول وهو معرض باستمرار وغموض لمختلف الحوادث والمصادفات . وقد تساءلنا (مازحين بالطبع) اذا كان هيلمار برغمان يتدخل بشكل ما في عملنا ليمنعنا من تقديم مسرحياته .

لقد واجهت مواقف مماثلة كثيرة . يتراءى لي سترندبرغ غير راض عن عملي في السنوات الاخيرة . كنت سأخرج (رقصة الموت) عندما ألقى الشرطة القبض علي ، وأصيب اندرس ايك بمرض خطير أثناء اعداد المسرحية نفسها في مناسبة أخرى ، وفقد محامي صوابه وجن أثناء بروقات (لعبة حلم) في ميونخ ، وبعد سنوات جنت الممثلة التي تؤدي دور جولي أثناء بروقات (الانسة جولي) وحبلت ممثلة أخرى كان يفترض أن تؤدي الدور نفسه في استوكهولم ، وعندما بدأت التحضير لمسرحية (لعبة حلم) انهار مصم الملابس نفسيا وحبلت ابنة اندرا وأصبحت انا نفسي بعدوى غريبة . إن هذه الحالات من سوء الحظ ليست محض صدفة . إن سترندبرغ يرفضني لسبب ما ، وقد أحزنتني هذه الفكرة لأنني كنت أحبه .

تصورت أنه اتصل بي ذات ليلة واتفقنا أن نلتقي في كارلافاغن . كنت منفعلًا ومراعيًا لرغبات الآخرين ، وحاولت أن أتذكر كيف يلفظ اسمه الأول (اوغست) . وعندما التقيته وجدته مجابًا وودودًا . كان قد شاهد (لعبة حلم) على المسرح الصغير ولم يقل شيئًا عن المحاكاة الساخرة اللطيفة التي قدمتها في مشهد الكهف .

وفي الصباح التالي أدركت بأنه يجب توقع فترات من الخزي عند التورط مع سترندبرغ ، ولكن سوء التفاهم زال في هذه المناسبة .

أتحدث عن كل هذا كقصة طريفة ، ولكن عميقًا في قلبي الطفولي . الذي لا اعتبره كذلك ، أشعر بأن الاشباح والشياطين ومخلوقات أخرى مجهولة الاسماء والعناوين ، لاتزال تحوم حولي منذ الطفولة .



عندما كنت في العاشرة أغلق الباب علي في مستودع اللجثت بصوفياهمت . وكان يعمل بالمستشفى وكيل دفن يدعى الغوت ، وكان

رجلا ريفيا ، شعره قصير وابيض مائل للصفرة ، رأسه كروي وعيناه ضيقتان وزرقاوان لامعتان ، يدها كبيرتان ، لونهما احمر مائل للزرقة ، وكان مسؤولا ن تقل الجثث ويحب التحدث عن الموت والاموات .

كان مستودع الجثث يتألف من غرفتين ، الاولى عبارة عن كنيسة صغيرة حيث يستطيع الاقارب أن يودعوا ذويهم المتوفين ، والثانية كانت غرفة الجثث بعد الانتهاء من تشريحها .

في يوم شتائي مشمس اغراني الفوت بالدخول الى الغرفة الثانية وكشف الفطاء عن جثة وصلت لتوها . كانت لفتاة شابة ذات شعر أسود طويل وفم ممتلىء ورقبة مستديرة . حدثت بها طويلا بينما كان الفوت مشغولا بأمر آخر . وفجأة سمعت صوت انفلاق باب فالتفت وشاهدت الباب الخارجي مغلقا ووجدت نفسي وحيدا مع الاموات ، الفتاة الجميلة وخمس أو ست جثث أخرى موضوعة على رفوف عريضة بمحاذاة الجدران وبالكاد تغطيها اغطية صفراء مبقعة . اندفعت الى الباب وصرخت مناديا الفوت ولكن دون جدوى . كنت وحيدا مع الاموات ، وبأي لحظة يمكن أن ينهض احدهم ليخنقني . ظهرت الشمس وتسللت أشعتها عبر الواح النوافذ الزجاجية البيضاء وتراكم السكون فوق رأسي وسمعت صوت نبضي في أذني . وجدت صعوبة في التنفس وشعرت بالبرد يجمد أعماق معدتي وسطح جلدي .

جلست على أحد مقاعد الكنيسة الصغيرة واغمضت عيني فزاد رعبني . أردت أن اعرف ما يمكن أن يحدث وراء ظهري أو في أي مكان لا اراه . عبرت مجموعة اشخاص من خارج الكنيسة واستطعت ان اسمع اصواتهم والمحهم من خلال زجاج النافذة المتجمدة . وبالدهشتي ! إذ لم أفكر بالاستغاثة بهم وبقيت جالسا بهدوء وصمت الى أن اختفوا تدريجيا وتلاشت اصواتهم .

تملكني دافع لافح ومدغدغ فنهضت وتوجهت الى غرفة الموتى .
كانت الشابة ممددة على طاولة خشبية في وسط الغرفة ، عارية تماما،
وكان هناك شق ممتد من حنجرتها الى عورتها مغطى بشريط طبي
لاصق . دفعت يدي ولمست كتفها ، كنت قد سمعت عن رعشة الموت
لكن جسد الفتاة كان دافئا وليس باردا . حركت يدي باتجاه ثديها
الصغير الرخو ذي الحلمة السوداء المنتصبة . كانت تتنفس . كلا لم
تكن تتنفس . هل فتحت فمها ؟ شاهدت أسنانها البيضاء وراء قوس
شفتيها . تحركت حتى ارى جهازها الجنسي ، اردت ان المسه ولكنني
لم أجرؤ . بعد ذلك رايتها تنظر إلي من وراء جفنين شبه مغمضين .
احسست بالتشويش وتوقف الزمن وأصبح الضوء أكثر توهجا . كان
الوقت قد حكى لي قصة صديق له أراد ان يمازح ممرضة شابة فدرس
لها يدا مبتورة تحت غطاء فراشها ، وعندما لم تظهر الممرضة في صلاة
صباح اليوم التالي ذهبوا الى غرفتها ووجدوها قد جنت تماما ، تمضغ
بأسنانها اليد المبتورة بعد ان قطعت الإبهام ودفعت به الى عورتها .
شعرت بانني سأجن بالطريقة نفسها . هرعت الى الباب الذي فتح
تلقائيا . . لقد تركتني الفتاة أهرب ! .

حاولت أن اقدم هذا المشهد في فيلم (ساعة الذئب) لكنني لم أنجح
ورميت المشهد جانبا، ثم عاودت المحاولة في فيلم (صرخات وهمسات) . .
حيث لا يموت الانسان نهائيا ويبقى الميت ليزعج الاحياء .

الاشباح والشياطين ، الاخيار منهم والاشرار ، يظهرون أمامي ،
يدفعونني ، يتقبون خصيتي وينزعون قميصي . إنهم يتحدثون
ويتهامسون . أصواتهم واضحة ، كلماتهم غير مفهومة ولكن لا يمكن
تجاهلها .

بعد مرور عشرين عاما خضعت لعملية جراحية بسيطة وكانت
تتطلب تحذيرا بدرجة معينة ، لكنه حدث خطأ وأعطوني جرعة زائدة ،
وهكذا اختفت ساعات من حياتي لا أستطيع أن أتذكر أية أحلام

خلالها : لم يعد الزمن وجود ، ست ساعات ، ستة أجزاء من الثانية ،
أو الدهر كله .. ونجحت العملية .

طوال حياتي كنت أصارع العلاقة المعذبة مع الله . الإيمان ونقص
الإيمان ، العقاب ، النعمة الإلهية والكران ، كل هذا كان حقيقيا
وإلزاميا بالنسبة لي ، وكانت صلواتي تفوح بروائح الألم والتضرع والثقة
والكراهية واليأس . لقد تحدثت الله . لم يتحدث الله . لا تشجع
بوجهك عني .

أما ساعات العملية المفقودة فقد حملت إلي رسالة مهدئة . لقد
ولدت دون سبب وتعيشن بلا مغزى . العيش يمثل مغزاه الخاص .
وعندما تموت فإنك تنطفئ وتسدد دنيا ، وسوف تتحول ، من كونك
أنت ، الى الاشياء . إن الله لا يقيم بالضرورة وسط ذراتنا ذات الطابع
الهوائي .

هذا التبصر حمل معه شيئا من الطمأنينة التي قضت على احساسى
بالألم والاضطراب ، ومن ناحية أخرى فاني لم أنكر أبدا حياتي الثانية
(أو الاولى) ، حياة الروح .



عندما عدت من مدينة اوربرو كانت درجة حرارتي إحدى وأربعين
وكنت شبه غائب عن الوعي . حضر طبيبي واكد اصابتي بذات الرئة
المضاعفة ، فاستسلمت للفراش اتناول المضادات الحيوية وأقرأ
المسرحيات .

وبالتدريج بدأت أستعيد قواي رغم بقاء حرارتي مرتفعة لبضعة
أيام . وفي النهاية التحقت بمستشفى صوفياهمت لاجراء الفحوصات .
كانت غرفتي تشرف على الحديقة وبيت الكاهن الواقع على الهضبة

والكنيسة الصغيرة ، حيث كان يدخل ويخرج أشخاص متشحون بالسواد ، مع نعوش أحيانا ، ومن دونها أحيانا أخرى .

كنت أتردد على المسرح ، كلما استطعت ، لافند الشائعات حول اقتراب وفاتي ، فتسوء حالتي وتهاجمني نوبات دوار . كان يجب أن أقوم ببعض التمارين وأقف في غرفتي وأركز نظري على نقطة معينة ، وعندما أتحرك أشعر بأن الجدران وأثاث الغرفة تسقط على رأسي فأتفياً مباشرة . أصبحت مثل رجل عجوز ، يسير خطوة خطوة وبحذر شديد وهو يمسك مقابض الأبواب ويتحدث ببطء .

وفي أيام معينة ، بعد زوال علائم المرض وعودتي إنساناً طبيعياً ، كانت تزورني صديقة حميمة هي أنغريد فون روزن وتأخذني بسيارتها الى سمادالارو ونجلس على عتبة البيت الصيفي المظلة بشجرة بلوط قديمة ونأكل الشطائر ونشرب البيرة . كان أحدنا يعرف الآخر منذ سبع سنوات ولم يكن يوجد لدى أحدنا ما يقوله الآخر ، لكننا كنا نستمتع بوجودنا سوياً .

تعددت على نظام المستشفى فكنت أنهض مبكراً وأتناول الإفطار وأتمشى في الحديقة قليلاً وأجري بعض الاتصالات الهاتفية مع المسرح لمناقشة الكوارث الأخيرة ، وأقرأ الصحف وأجلس الى مكتبي لأرى إن كان بوسعي تحقيق شيء مبدع .

كان يجب أن أنتظر شهراً حتى تحرر مخيلتي نفسها وتتشكل بواسطة الكلمات الحائرة والعبارات المتلثمة .

كنت مرتبطاً مع شركة سفنسك لإخراج فيلم في حزيران ، وكانت قصته مقبولة ويدعى (آكلة لحوم البشر) . وعند نهاية آذار أدركت أن المشروع غير واقعي واقترحت بديلاً منه فيلماً صغيراً يتحدث عن امرأتين . وعندما سألتني مدير المؤسسة عن الفيلم الجديد أخبرته

بمراوغة وتملص بأنه فيلم يروي قصة سيدتين شابتين تجلسان على شاطئ البحر وترتديان قبعتين ضخمتين وتجريان مقارنة بين أيديهما ، فاحتفظ المدير بوجهه صارماً وقال بحماس شديد : إن الفكرة رائعة .

ومع نهاية نيسان جلست الى مكتبي في غرفتي بالمستشفى ، أراقب قدوم الربيع حول بيت الكاهن ومستودع الجثث .

بقيت المرأتان تقارنان بين أيديهما ، وذات يوم اكتشفت أن إحداهن كانت صامتة مثلي ، أما الثانية فكانت متحدثة وفضولية وحريصة ، مثلي أيضاً . لم تكن لدي قوة لاكتب السيناريو بالصيغة التقليدية . كانت المشاهد تولد بصعوبة بالغة ترافقها شبه استحالة في كتابة الكلمات والعبارات . لقد انقطع الاتصال مع آلية التخيل وعجلة الاختراع ، أو أنه أصيب بضرر بالغ . كنت أعرف ما أريد أن أقوله لكنني لم أستطع التعبير عنه .

تقدم العمل ببطء شديد مثل الحلزون ، وتخللته هجمات من الحمى واضطراب التوازن والقنوط ، وبدأ الوقت المحدد ينفد ، ولا بد من الاتفاق مع الممثلات . كنت أتناول العشاء مرة أو مرتين بالأسبوع مع صديقي الدكتور شتور هيلاندر والذي كان هاوي تصوير فوتوغرافي . كانوا يصورون فيلماً في لوفوتن تحت عنوان مؤقت (الصيف قصيراً) ، وقام هيلاندر وزوجته بزيارة موقع التصوير لأنهما كانا صديقين حميمين لبيبي أندرسون . التقط الدكتور مجموعة صور وعرضها علي بعد عودته وكانت معظمها لزوجته وللجبال ما عدا صورتين أثارنا اهتمامي ، بيبي أندرسون تجلس مقابل حائط خشبي أحمر والى جانبها ممثلة شابة تشبهها ولا تشبهها في آن واحد ، وعرفتني مباشرة . كانت عضواً بالبعثة النرويجية التي زارت الدراماتن وتعتبر ممثلة واعدة وقد سبق لها أن لعبت دوري جوليت في (روميو وجوليت) ومرغريتا في (فاوست) . . كان اسمها ليف أولمان .

بعد انتهاء تصوير ذلك الفيلم سافرت الممثلتان برفقة زوجيهما
لقضاء الإجازة في يوغوسلافيا .

مع انتهاء الموسم المسرحي في الدراماتن أصبح سيناريو (برسونا)
جاهزاً بين يدي . فالتقيت الممثلتين اللتين شعرنا بالدهشة والخوف في
مواجهة هذه التجربة .

وثناء المؤتمر الصحفي الذي سبق تصوير (برسونا) عاودتني
نوبات الدوار ، وأراد المصور أن يلتقط لي صورة مع الممثلتين بالقرب
من شجرة بتولا ، فرفضت لأنني لم أكن قادراً على الحركة . وكانت
الصورة التي التقطها أخيراً صورة لثلاثة أشخاص شاحبين وقلقين ،
يميلون بوجوههم الى اليسار .

تم تحديد موعد بدء التصوير واعتمدت فارو موقعا رئيسياً له .
كان الاختيار سهلاً لأن فارو بقيت على امتداد سنوات طويلة
حبي السري .

لقد حدث أنه في عام ١٩٦٠ كنت سأصور فيلماً بمنوان (عبر مرآة
معتمة) عن أربعة أشخاص في جزيرة ، يظهرون في لقطة البداية وكأنهم
قادمون من البحر . أردت أن أصور في أوركينز . عصر أعضاء مجلس
إدارة الشركة أيديهم عندما عرفوا حجم النفقات المقبلة ووضعوا طائرة
هيليكوبتر تحت تصرفي لاستطلاع الشاطئ السويدي . عدت وأنا أكثر
تصميماً على التصوير في أوركينز فاقترح أحد المنتجين المنفذين أن
نصور في فارو ، فهي تشبه أوركينز لكنها أرخص منها وأكثر
ملاءمة وعملية .

ومن أجل حسم الموضوع نهائياً وصلنا الى جزيرة غوتلاند في يوم
نيسان عاصف لاستطلاع فارو واتخاذ قرار أخير . أقلتنا سيارة أجرة

متداعية عبر الأمطار والثلوج الى مكان المعديّة التي نقلتنا بصعوبة الى فارو وهناك بدأنا جولتنا على الطرقات الساحلية الزلقة .

يفترض أن نشاهد في الفيلم حطام مركب غارق .. ما أن اجتزنا منعطف الجرف حتى شاهدنا حطام مركب غارق ، تماماً كما وصفته في السيناريو . وكان يفترض أن تحيط بالمنزل القديم حديقة فيها أشجار تفاح قديمة ، فوجدنا الحديقة وانفقنا على بناء المنزل ، وكان يفترض أخيراً وجود شاطئ حجري ، ووجدنا الشاطئ الحجري يواجه اللانهاية .

لا أعرف ماذا حدث تماماً ، فإذا أراد المرء أن يبدو كئيباً لقال إنه وجد مشهده الطبيعي وبيته الحقيقي ، ولو أراد أن يبدو مضحكاً لقال إنه حب من النظرة الأولى .

أخبرت سغن نيكفست بأنني أريد أن أعيش هنا بقية حياتي وأبني منزلاً في المكان نفسه حيث يقوم المنزل المخصص للتصوير ، فاقترح سغن أن أختبر موقعاً آخر بعد بضعة كيلو مترات الى الجنوب ، وهو الموقع نفسه الذي يوجد فيه بيتي اليوم وقد تم بناؤه بين عامي ١٩٦٦ و ١٩٦٧ .

إن لارتباطي بفارو أصولاً عديدة أولها الحدس .. هذا هو مكانك يا برغمان ، إنه يتوافق مع أعماق تصوراتك عن الشكل .. توجد هنا الألوان والآفاق ، الأصوات والصمت ، الأضواء والانعكاسات . يوجد أمان هنا ولا تسأل عن السبب . إن الطبيعة في فارو تمنحك كل ما تحتاجه في مهنتك من البساطة والتناسب ، الجهد والاسترخاء .

الأسباب الأخرى : يجب أن أجد موازياً للمسرح ، فإذا أردت أن أتحدث بصخب وحماس على الشاطئ فربما يطير النورس ، لكن مثل هذا الاستعراض على خشبة المسرح سيكون كارثة حتماً .

الأسباب العاطفية : أريد أن أعتزل العالم وأقرأ كتباً لم أقرأها وأطهر روحي وأوزانها (بعد حوالي شهر أو أكثر وجدت نفسي متورطاً مع مشاكل سكان الجزيرة .. وأثمر هذا التورط فيلماً وثائقياً عن الجزيرة في عام ١٩٦٩) .

أسباب عاطفية أخرى : فإثناء تصوير (برسونا) تملكنا أنا وليف عاطفة قوية ، ومع نقص هائل بالقدرة على المحاكمة شيدت المنزل وأنا تراودني فكرة العيش المشترك معها ، دون أن أسألها رأيها ، وقد اكتشفت الكثير بعدما قرأت لاحقاً كتابها (التغير) ، واقتنعت بصدق اعترافاتها المذكورة فيه . عاشت معي بضع سنوات حاربنا خلالها شيطانينا بكل ما لدينا من قوة ، ثم حصلت على دور كريستينا في فيلم (المهاجرون) . . . الذي أخذها بعيداً . وعندما رحلت عرفت كل من ذلك .

العزلة المفروضة ذاتياً أمر لا بأس به . قمت بتحسين نفسي وأمسست نظاماً ثابتاً . كنت أستيقظ مبكراً وأخرج للتنزه وأعمل وأقرأ . وفي الساعة الخامسة كانت تأتي زوجة جاري فتعد لي طعام العشاء وتنصرف فأعود وحيداً في الساعة السابعة .

كان لدي سبب لافكك أجزاء نظامي وأختبرها . لم أكن راضياً عن أفلامي وأعمالي الأخيرة ، وكان عدم الرضى يأتي بعد الحدث دائماً . وأثناء استمرار العمل قمت بحماية نفسي وأعمالي من الانتقادات الهدامة ، ولم أتعرف على الفشل والضعف إلا فيما بعد .

* * *

في ربيع عام ١٩٣٩ ذهبت لمقابلة باولين برونيوس ، مديرة المسرح الدرامي الملكي آنذاك ، وطلبت منها أن توظفني بالمسرح لأعمل أي شيء وأتعلم المهنة . كانت إمراة نحيلة وجميلة ، وجهها شاحب وعيناها زرقاوان كبيرتان وصوتها هادىء . أخبرتني خلال المقابلة التي استمرت ثلاث دقائق بأنها ترغب جداً بأن أعمل لديهم بعدما أنهى دراستي الأكاديمية وأكدت على الصلة بين الدراسة وفن المسرح ، خصوصاً بالنسبة لشخص جريء مثلي يود أن يصبح مخرجاً . وعندما لاحظت علائم اليأس الرهيب على وجهي ، أمسكت بيدي وقالت : « إن عيوننا مركزة عليك يا سيد برغمان » . بعد أربع دقائق وجدت نفسي في الشارع وقد انهارت أحلامي وآمالي التي علقتها على مقابلة السيدة برونيوس .

أدركت بعد انقضاء فترة طويلة ان والدي كان قد اتصل بالسيدة برونيوس ، التي يعرفها من خلال مركزه الرسمي ، وأخبرها برغبتها المتعلقة بإتمامي الدراسة أولاً . وربما كان هذا للأفضل .

في لحظات يأسى تقدمت بطلب للعمل في دار الأوبرا وبدون أجر ، وكان هارلد أندري قد استلم منصب المدير لتوه ، فتأمل حالة الكرب التي أعانيها من خلال شقي عينيه الصغيرتين وهمس بأمر ما خير لم أسمعه جيداً . وفجأة وجدت نفسي بوظيفة مساعد للإنتاج .

كان هارلد أندري منتجاً شهيراً ومخرجاً ماهراً ، يعمل معه في قيادة الفرقة الموسيقية ليوبليش ونيلز غريفيلوس وكان لدار الأوبرا شركة ممولة دائمة وفرقة كورس جيدة وفريق مروع من راقصي الباليه .

وكان برنامج الدار شاملاً وصالتها صغيرة وحميمة . أما الخشبة فكانت واسعة تنحدر قليلاً باتجاه أضواء المقدمة .

وكان تورولف جانسون قد صمم عدداً هائلاً من المناظر وقام برسمها بنفسه لأعمال من تأليف سترندبرغ . أما الإضاءة فكانت ذات نوعية غير مفهومة تعود الى عام ١٩٠٨ ويشرف عليها رجل عجوز نبيل يطلقون عليه لقب (سيد النار) يساعده ابنه الشاب الصموت ، وكانا يعملان في مساحة ضيقة تشبه المر وتقع الى شمال الخشبة حيث تنعدم كل فرصة تقريباً لمشاهدة ما يجري عليها .

كان بناء المشهد يتطلب قوة وعملاً متواصلًا ، أما اليوم فإن تعقيدات الكمبيوتر الالكترونية تعمل بشكل أسوأ من آلات الثلاثينيات الخرقاء .

وثمة تفسير وحيد لهذه الظاهرة الغريبة ، يتمثل في وجود عمال دائمين ، متقدمين بالسن الى حد ما وثلثين أحياناً ، يعملون ليل نهار على خشبة المسرح بعزم وتصميم . كانوا يشعرون بالمسؤولية ويعرفون جيداً ماذا يفعلون . يعرفون موعد تبدل المشاهد ، وربما كانوا يعملون فرقاً متناوبة ، لست أدري . واعتقد أن الرجال العجائز أنفسهم هم الذين يمسكون الحبال ليل نهار ، سنة بعد سنة ، وربما تأثروا بنوتات فاغتر الطويلة وموت ايزولدا العاصف ، لكن كل شيء كان يبدأ وينتهي في وقته ، وترتفع المناظر الخلفية أو تهبط بالسرعة المطلوبة دائماً ، أما ستارة المسرح فإنها تفتح وتغلق ببراعة فنية لا يمكن استبدال الآلات ذات السرعة المتدرجة بها .

بقيت أتجول في المسرح لبضعة أسابيع وكانني غير مرئي . لم ينتبه أحد إلي ، فحاولت أن أجري اتصالات حذرة لكنها صنت ببرود . وفي الليل كنت أجلس في زاوية بمكتب ادارة المنصة ، وكانت غرفة كبيرة

ذات سقف منخفض ونافذة مقنطرة . ترن أصوات الهواتف ، يأتي الناس ويذهبون . أنهض وأحيي القادم كائناً من كان . ويقرع الجرس مشيراً الى انتهاء فترة الاستراحة ، فتطفأ السجائر ويعود كل واحد الى مكان عمله .

ذات مساء أمسكني الدكتور مايوس ، مدير الخشبة ، من طية سترتي وقال لي : « إن الآخرين لا يرغبون بجلوسك هنا أثناء الاستراحة، تستطيع أن تجلس في ممر الكواليس » . أخفيت نفسي خلف باب غرفة البالية وابتلعت دموع الإهانة والإحساس بالذل . لمحتني راقصة بالية جميلة عندما أضاءت النور فجأة في غرفة الباليه فقالت لي : « يبدو أنك مهتم جداً بالبالية ، لكننا لا نحب أن تحدد بنا ونحن نعمل » .

وبعد شهور من التجوال في أرض الا احد هذه ، أرسلوني للعمل في أوبرا (فاوست) لفونود والتي كان يخرجها فيامتا ، رجل نشيط طويل القامة ترتسم على محياه ملامح النبل .

وكان بالنسبة لي شخصاً يمكن الاعتماد عليه . وكنت أعرف انه كتب كثيراً من السيناريوهات وأخرج مجموعة من الأفلام العظيمة بالإضافة الى عدد لا يحصى من الأوبرات ، ورايته كيف يعمل مع الممثلين والكورس . كان صوته أجش ويلثغ قليلاً ، رأسه مندفع للأمام وكتفاه منتصبان للأعلى ويدها طويلتان ترفرفان كالأجنحة . أدركت أنه رجل واسع الإطلاع وحيوي ، يراه النجوم لطيفاً وخيراً وممتعاً ، أما الآخرون فيرونه ساخراً وفظلاً وخبيثاً . كانت شفاهه الرقيقتان تبتسمان باستمرار سواء كان ودوداً أو غاضباً .

وسرعان ما لاحظ جهلي التام ، فأنزل مرتبتي الى مجرد مراسل تساء معاملته . وكان يقرص وجنتي بقوة أحياناً لكنني كنت ضحية ممتنة لسخريته . وعلى الرغم من خوفي واحتقاري فقد تعلمت الكثير

من توجيهاته العملية . لقد استطاع بعد جهد عظيم وبمشاركة مصمم المناظر الرائع في الدراماتن ، سفن اريك سكاونيوس . أن يقدم عرضاً ساحر الأجزاء لأوبرا غونود الشعبية القديمة .

ذات مرة أوقفني ليون بيوركر ، مغني طبقة الباص العظيم ، والذي كان يجهل قراءة النوتات الموسيقية ، وسألني : « لماذا تبدو متعجباً ؟ هل أنت صبي متسكع أيضاً ؟ » . حدثت به دون أن أفهم ماذا يقصد بالمتعجرف . فتابع قائلاً : « إننا هنا في المسرح نبادل التحية عادة ، ولقد مررت بجانبك أكثر من مرة ورفضت أن تقول لي مرحباً . هل أنت صبي متسكع ؟ » لكنني لم أستطيع إجابته .

كان فيامتا جريئاً وساخراً وقاسياً ولكن غير مزعج . أحببته فعلاً وأعجبت باخلاصه وعناده الذي لا يقهر .

بعد انتهاء إحدى البروفات ذات مساء وقف وراء كرسي خشبي ، يمتلكه الحزن ، ثم انحني على الطاولة الى حيث كنت جالساً أدون بعض الملاحظات وسألني بصوت هادئ ونبرة مدافعة : « ماذا يجب أن أفعل يا سيد برغمان ؟ إن هيوردس لا تزال مصرة على الضغائر الشقراء الطويلة . إنها متبجحة هنا مثلها في الحياة الخاصة » . ثم جلس بصمت على كرسيه الهزاز وقال : « أنت اخترت مهنة غريبة يا سيد برغمان ، وقد يبدو الأمر محبطاً للغاية عندما يتقدم السن بالمرء » .



حاولت في فيلمي (ساعة الذئب) أن أخلق مشهداً له تأثير عميق في داخلي .. يبقى تامينو وحيداً في حديقة القصر فيصرخ قائلاً : « آه أيتها الليلة القاتمة ! متى سوف تنتهي ؟ متى سأجد النور بعد الظلام ؟ » . فيجيبه الكورس من داخل المعبد : « قريباً ، قريباً أو ليس أبداً ! » . تامينو من جديد : « قريباً ؟ قريباً ؟ أو ليس أبداً . أجيبيني أيتها

المخوفات المخفية ، ألا تزال بامينا حية ؟ » فيجيب الكورس ، من بعيد :
« بامينا ، بامينا لا تزال حية . » .

تتضمن هذه الأسطر تساؤلين عن الحياة والإجابتين كذلك .
عندما كتب موزارت هذه الأوبرا كان مريضاً وشبح الموت يلقي بظلاله
عليه . فصاح موزارت في لحظة يأس والم : « آه أيتها الليلة القاتمة !
متى سوف تنتهي ؟ متى سأجد النور بعد الظلام ؟ ويجيبه الكورس
بغموض : « قريباً ، قريباً ، أو ليس أبداً » . إن موزارت المريض على
نحو مميت يطرح تساؤلاً في الظلام ، ومن أعماق الظلام يجيب على تساؤله
الخاص - أو ربما يأتيه الجواب بطريقة ما ؟ .

ومن ثم التساؤل الثاني : « ألا تزال بامينا حية ؟ » وتحول
الموسيقا مضمون هذا التساؤل البسيط ، ليصبح أعظم تساؤل يمكن
أن يطرح : « هل يوجد الحب حقاً ؟ هل الحب حقيقي ؟ » . وتأتي
الإجابة مرتعشة ولكن مفعمة بالأمل وبلطف متقطع لاسم بامينا :
« با - مي - نا - لا تزال حية » . لم يعد الأمر مجرد اسم امرأة جذابة ،
لكنه مفتاح السر لكلمة الحب : « با - مي - نا - لا تزال حية » . الحب
حقيقي ، الحب موجود في عالم الإنسان .

في (ساعة الذئب) تستعرض الكاميرا بحركة بانورامية الشياطين
التي هدأت للحظات بفعل الموسيقى ، ثم تتوقف عند وجه ليف أولمان .
إنه تعبير مزدوج عن الحب ورقة القلب ، واليأس .

بعد بضع سنوات اقترحت على التلفزيون السويدي إعادة تقديم
فيلم (الناي السحري) للتلفزيون . قوبل اقتراحي ببعض التردد
والقلق ، ولولا تدخل ودعم اماغنوس انهورننيغ ، مدير البث في ذلك
الوقت ، لما كتب لهذا المشروع أن يتحقق .

لم احقق خلال حياتي المهنية كثيراً من الأعمال الدرامية الموسيقية والسبب في ذلك محرج .. إذ أن حبي للموسيقا متزعزع ولا أملك القدرة لأحفظ أو لأعيد الجمل الموسيقية بترتيبها الصحيح . أستطيع أن اتعرف عليها بسرعة ولكن دون أن أكررها حتى بالفناء أو التصفير . إن حفظ عمل موسيقي عن ظهر قلب هو عمل شاق للغاية بالنسبة لي ، وطالما جلست لأيام مع المسجل وجدول النوتات ، يصيبني الشلل أحياناً لافتقادي المهارة والقدرة .

وربما كان هذا الصراع الشاق يتضمن بعض الملامح الإيجابية إذ كنت اضطر لقضاء وقت طويل أستمع فيه بحذر واهتمام إلى كل جملة ، وكل نبض وكل برهة .

إن أعمالي تنشأ أصلاً من الموسيقا ولا أستطيع أن أمضي في أي اتجاه غير الذي يؤدي إليها .



أحبت كابي لارتي المسرح وأحبت أنا الموسيقا . وخلال زواجنا حطم كل منا حب الآخر بسداجة وعفوية عاطفية . ففي الحفلات الموسيقية كنت ألفت إليها والسعادة تغمرني ، فتنظر إلي بشك وتساألني : « هل تعتقد حقاً بأن هذا جيد ؟ » . وكان البؤس نفسه يتكرر في المسرح . كنت أكره ما تحبه والعكس بالعكس .

واليوم نحن صديقان حميمان لا يزال كل واحد منا متمسكاً بحكمه الهاوي على فن الآخر ، ومع ذلك لا أستطيع أن أنكر بأنني أثناء حياتي مع كابي تعلمت الكثير عن الموسيقا .

كانت اندريا كورللي تنتمي إلى اسرة ثرية من الطبقة الراقية في تورين ، وقد نشأت وفق التقاليد المتبعة ، فتلقت تعليمها من الأدب الكلاسيكي واللغات في مدرسة للراهبيات ونالت مقعداً في أكاديمية الموسيقى بروما . كانت تعتبر عازفة بيانو واعدة وعاشت قريباً من عائلتها ، متدينة ، تحمىها معتقدات الطبقات الإيطالية الراقية .

كانت امرأة جميلة ومرحة وإلى حد ما رومانسية ، وتتمتع بفضول للمعرفة والثقافة ، يحيط بها المعجبون دائماً . قام جونانان فوغلر ، وهو فنان متذوق وعازف كمان في متوسط العمر ، بزيارة الأكاديمية لإلقاء دروس فيها ، وكان مترهلاً وشاحباً وله عينان سوداوان كبيرتان تنظران شزراً . جاء من برلين وأثار الإعجاب بعزفه وحضوره المتألق .

واختيرت أندريا لترافقه أثناء حفلات الأكاديمية الموسيقية ، ف وقعت في حبه وهجرت عائلتها والأكاديمية وتزوجته وانضمت إليه في رحلاته الكثيرة . وفي وقت لاحق شكل فوغلر رباعياً للوترات نال شهرة عالمية ، وكانت أندريا تشارك في العزف بالخماسيات التي يوجد فيها بيانو ، ورزقت بطفلة فتركها لرعاية الأقارب ومن ثم المدرسة الداخلية .

وسرعان ما اكتشفت أندريا أن فوغلر لم يكن مخلصاً لها ، فشبهته كانت مفتوحة لجميع أنواع النساء . هذا الرجل القصير ، الضئيل الحجم ، صاحب النظرة الشزراء والقلب المريض ، كان عاشقاً للحب والمتعة وموسيقياً بارزاً . وعندما تركته أندريا أقسم بأنه سوف ينتحر ، فعادت إليه وعاد كل شيء إلى طبيعته .

أدركت أنها تحبه الآن دون تحفظات ، فوضمت جانباً كل المعتقدات ولم تصبح مديرة للرباعي فقط ، بل ومديرة لعلاقات زوجها العاطفية ، وجعلت عشيقات زوجها صديقات لها وأشرفت على هذه الحركة الشهوانية مثل ناظر المحطة وحظيت بثقة زوجها ، لكنه لم يتوقف عن الكذب أبداً لأنه لم يكن قادراً على قول الصدق ، إلا أنه لم يعد مضطراً للتمويه فيما يتعلق بفسقه . ومن خلال إصرارها وموهبتها التنظيمية استطاعت أندريا أن تسافر مع موسيقيتها في رحلات لا نهاية لها داخل البلاد وخارجها .

خلال فترة ما بين الحربين ، وفي كل صيف ، كانا يتلقيان دعوة لزيارة قصر شلوس بالقرب من شتوتغارت ، وكان القصر يقع في ريف ساحر تحيطه الجبال والأنهار ، وتملكه سيدة غريبة الأطوار تدعى ماتيلدا فون مركنز ، أرملة أحد أقطاب الصناعة ، وقد اندثرت لاحقاً هي والقصر .

لكنها كانت تدعو إليها كل صيف أهم الموسيقيين في أوروبا ، ومن بينهم كسالس ورونشستين وفيشر وكريسلر وفور تفانفلر وفوغلر ، وكانوا يلبون دعوتها ويتناولون الطعام على موائدها الفاخرة ويشربون نبيذها ، يستغرقون في زواجهم وزوجات غيرهم ويعزفون موسيقا عظيمة .

وكانت أندريا لا تزال تحتفظ بموهبتها في سرد قصص ايطالية فظة ، وكانت لها ضحكة رنانة ، أما قصصها الجنونية والغريبة والساخرة فكانت مادة لفيلم سينمائي وقد قررت أن أجمعها في كوميديا واحدة .

جاءت أندريا لزيارتنا أنا وكابي في جورشولم واحضرت معها بعض الصور لذلك الصيف في قصر ماتيلدا فون مركنز ، وكانت بينها صورة جعلتني أنتحب من البؤس ، وفيها تجلس المجموعة على الشرفة بعد ما كان يبدو غداء رائعاً ، والأعشاب الخضراء تزحف في المكان وتغطي السلام الحجرية والدرايزين والتماثيل والقناطر . وكانت مجموعة من

عابرة الموسيقيين الاوربيين تجلس مبعثرة في الشرفة ذات الارضية المهترئة . كانوا غير حليقي الذقون ، يدخنون السيجار ويتفصدون عرقاً . جاك تيولت يغطي انفه بقبعته وينحني ليقول شيئاً . ادوين فيشر يسند بطنه على الدرايزين ، الفريد كورتوت يضحك وماتيلدا فون مركزز تمسك فنجان قهوة بيد وسيجاراً باليد الأخرى . بعض النسوة يقفن وراء النوافذ الكبيرة وإلى الجانب البعيد منهن تقف امرأة رفيعة التهذيب والأناقة ، جمالها شرقي ، إنها اندريا فوغلر كورلي ، وهي تحمل بين يديها ابنتها ذات الاعوام الخمسة .

كانت الصورة تشع بالغذاء الفخم وحرارة الطقس المرتفعة والفسق والفساد الرقيق ، وبعد ان انتهى هؤلاء السادة من تناول عشايتهم وقهوتهم الممزوجة بالمسكرات ، تجمعوا في صالون ماتيلدا فون مركزز وعزفوا الموسيقا .

شعرت باليأس والخجل بسبب فيلم (والآن بصدد أولئك النساء) لتصنعه وزيفه . كان خجلي واضحاً وكريهاً ، وكان لدي قبل التصوير الكثير جداً لأفكر به بعد أن أصبحت مدير الدراماتين ، وأواجه موسماً لا أعرف كيف سأنطلق به . وهكذا تمسكت بأبسط الحلول وكنت أفضل الاستسلام لكنني أدنت نفسي ، فالمعقود كلها أبرمت وتم تحضير التفاصيل كاملة لبدء التصوير والسيناريو يبدو ممتعاً والجميع مسرور بالعمل .

إن وضع المكابح يتطلب أحياناً شجاعة أكثر من اضرام النار بالجبال، لقد افتقدت حينها الشجاعة الكافية ، لكنني أدركت فيما بعد أي نوع من الافلام يجب ان أخرجها .

وكان العقاب مؤكداً إذ انتهى المشروع الى فشل كئيب على صعيدي الجمهور والمال .

جاءت الحرب وأغلقت المسارح وقاعات الحفلات وتشتت الفرق الموسيقية ، لكن رباعي فوغلر حصل على اذن استثنائي بإقامة الحفلات .

في يوم خريفى وجدت اندريا وبافى الموسيقين انفسهم في شرق
بروسيا بالقرب من كونيسبرغ ، يقيمون في فندق صغير بجوار شاطئ
البحر ويعزفون الموسيقى .

وذات مساء كانت اندريا تسير وحيدة بمحاذاة الشاطئ تراقب
الشمس الغاربة وسط الضباب والبحر الساكن وتنصت إلى أصوات
المدافع البعيدة ، عندما توقفت فجأة وقد أدركتها فكرتان عفويتان
وقويتان : الأولى انها كانت حاملاً ، والثانية أن الملاك الحارس يحميها .

بعد بضعة أيام احتلت القوات الروسية مدينة كونيسبرغ وتم اقتياد
اندريا وابنتها وزوجها والموسيقين الى نقطة التجمع ، وهناك أثار اذن
السفر الخاص الذي بحوزتهم ارتياب الروس فسجنوهم جميعاً في أحد
الاقبية وصادروا آلاتهم الموسيقية ، ثم امروا جوناثان فوغلر أن ننزع
ثيابه وساقوه مع بعض السجناء لإعدامهم في باحة المدرسة ، حيث
كانوا يقفون لساعات عديدة في مواجهة الحائط بانتظار اجراءات معينة ،
وفي النهاية يعيدونهم إلى الاقبية ، ليتكرر الاجراء نفسه في اليوم التالي .

اغضب الحراس زوجات السجناء ، وحتى لا تثير أندريا خوف ابنتها
فقد تركت الرجال يستخدمونها وأحصت عدد المرات . لقد اغتصبوا
ثلاثاً وعشرين مرة .

وبعد أيام أخرى وصلت إلى المدينة وحدات روسية من النخبة ،
وأقلمت ادارة جديدة واعدمت بعض الجنود الروس الذين اعترتهم
مرتين ، فالجيش الأحمر لا يذهب الفقراء ولا يفتصب الضعفاء .

تحول القبو إلى مكان للإقامة واستعاد فوغلر ملبسه وانهارت
أعصابه فانزوى بعيداً يرتجف طوال الوقت ولا يحدث أحداً ، وانطلقت
اندريا مع الموسيقين للعثور على طعام .

أثناء إحدى جولاتها التقت مدير مسرح المدينة وبعض الممثلين وقرروا جميعهم أن يزوروا قائد المنطقة ويطلبوا منه تصريحاً باستمرار النشاطات الموسيقية والمسرحية . كانت اندريا تتحدث بالروسية وأبدى الضابط اهتماماً بالمشروع ، وبشكل ما غير مفهوم استعداد الموسيقيين الآتية سليمة وبلا أضرار .

وخلال أيام أعلنت اندريا عن إقامة حفلة في صالة المدينة التي فقدت طابقتها العلوي . وفي الثامنة مساءً كانت القاعة قد اكتظت بأهالي المدينة واللاجئين والمحتلين الروس . وعزف الموسيقيون معزوفات لباخ وشوبرت وبرامز وقدمت الفرقة المسرحية مشهداً من (فاوست) . استمر العرض ساعات حتى انهزم المطر وتسرب عبر السقف المثقوب ، معلناً نهاية الحفل .

وتكررت العروض بنجاح كبير وكان رسم الدخول قطعة فحم أو بيضة أو شريحة زبدة أو ما شابه من الاحتياجات الضرورية وكانت اندريا تشرف على العروض وتنظيمها في أثناء تمارين زوجها والموسيقيين .

بعد الحرب هجر فوغلر زوجته وأصبح بروفسوراً في إحدى الأكاديميات الألمانية . بحلول ذلك الوقت كان شعره قد ابيض تماماً وأصبح لون بشرته كما لو أنه مطلي بالطباشير الأبيض ، وتحولت آلام معدته ومتاعب قلبه إلى أمراض مزمنة ، وعاش مع ثلاث عشيقات دائماً .

أما اندريا فاستقرت في شتوتغارت وكرست نفسها معلمة للموسيقا، وكانت كابي لارتي طالبها المخلصة التي عاملتها بلطف غير عاطفي وتصميم قاس كحجر الصوان .

كانت مشكلة كابي جدية . لقد كونت لنفسها مهنة انطلاقاً من موهبة موسيقية ودفء وحيوية ممتزجين بالجمال والحضور المتألق . لكن هذا

التكوين كان يشبه بناءً جيداً يقف على أرضية مهتزة . كانت كابي تفتقر الى تقنية الصوت مما يؤدي بالنتيجة الى شك وخوف وراء الثقة الباهرة بالنفس ، وقد تكون حفلاتها الموسيقية رائعة أو مروعة ، حسب الظروف .

وهكذا لجأت كابي لارتي الى اندريا فوغلر كورللي لتنشئ أساساً قويا تحت هذا البناء الجميل ، وتحول الأمر الى اختبار قاس استمر سنوات عديدة ترسخت خلالها صداقة حميمة بين المرأتين .

أحبت أندريا يدي كابي وحيويتها وموهبتها الموسيقية وكانت تشكو من كسلها وتقسو عليها أحيانا ، أما كابي فكانت لا تهدأ أبدا لكنها تستسلم بسهولة ، وأثناء الدروس تحولت الحلول ذات الطابع التقني البحت الى اعتبارات روحية ونفسية : « ضمي أصابعك ، يدك ، ذراعك الى الأعلى ، الى الأسفل ، الكتف ، الظهر ، الانحناء ، الأصابع . لا تخادعي ولا تتعجلي ، تمهلي وفكري . في هذه الجملة لديك الحل للسطر بأكمله . تابعي . يجب أن تتنفس هنا . لماذا تكتمين أنفاسك طوال الوقت يا طفلي العزيزة ؟ بقي لدينا نصف ساعة فقط ، اصبري قليلا وستنالين فنجانا من الشاي . والان اعزفي نوتة (فا) عشرين مرة ، كلا ، ثلاثين مرة . ولكن فكري جيدا بما تفعلين ! ان القوة تنبع من معدتك ، لا تخادعي بانحناءتك . لا توجد آلة موسيقية واحدة تستطيع أن تعزف ديناميكية بيتوفن التي تخيلها في عالمه الصامت . أترين ، لقد أحسنت الآن . أنت جميلة ، ويجب أن تعرفي كيف تظهرين هذا الجمال . هنا يوجد تحذير مسبق لما سيحدث لنا بعد تسعة وعشرين سطرا ، قد لا تلاحظين ذلك لكنه هام للغاية . لا وجود للحشو عند بيتوفن فهو يتحدث باقناع وعنف ، بحزن وفرح ، انه لا يدمدم أبدا ، وأنت أيضا يجب الا تدمدمي ، والا تقدمي حشوا . يجب أن تعرفي ما تريدين حتى ولو كان خطأ . المعنى والمضمون . تابعي الآن . هذا لا يعني ضرورة التأكيد على كل شيء ، هناك فرق بين التأكيد والمغزى . دعينا نكمل

وكوني صبورة ، علمي نفسك الصبر . وعندما تريدن التوقف يجب ان تشغلي بطارية خاصة لتضاعف لك جهودك ، لا يوجد أكثر فظاعة من الضمير المذنب في الفن . توقفي هنا . كان لدي صديق يذهب الى البيانو كل صباح بعد الافطار ويعزف نغمات من سي ماجور ويقول انه بذلك يفسل أذنيه » .

كنت أستمع الى أندريا في احدى المرات القليلة التي سمحت لي بأن أحضر دروسها ، وأخذت أفكر بالمرح وبنفسي وبالممثلين ، بقدراتنا وجهلنا والحشو الفارغ الذي نتجه مقابل المال .

إن مشهدها الثقافي الضئيل يحوي عدداً من الممثلين البارزين الذين يفقدون التقنيات الأساسية ، فيعتمدون على جاذبيتهم الساحرة ويخرجون الى خشبة المسرح ليقوموا علاقة جنسية مع الجمهور ، وعندما تفتقد هذه العلاقة يصابون بالتشويش وينسون كلماتهم (التي ربما لم يحفظوها من قبل) ويرتكون ويتحولون الى كابوس بالنسبة لزملائهم الممثلين والملقن . لعلهم كانوا هواة رائعين للحظات ، وربما لأمسيات كاملة من التجلي المسبب للدوار ، ولكن دونما مستوى مستقر وليس دونما مخدرات وكحول .

الممثل العظيم غوستا ايكمان هو خير مثال : لم يستفد من خبرته وجاذبيته الساحرة ويمكن رؤية بؤسه في أفلامه حيث تظهر الكاميرا خداعه وفراغه وتزعزعه وحاجته للهوية الجنسية .

ربما كانت عروضه الافتتاحية رائعة ، أما العرض الخامس ، أو الخامس عشر؟! لقد شاهدته في دور هاملت أثناء عرض عادي ، يستعرض غطرسته ويمثل دون دوافع أو مؤثرات ويلقي حوارا يحرضه الملقن وحده على مضمونه .

* * *

على امتداد بضع سنوات ، وفي الصيف ، كنا نستأجر أنا وكابي منزلا في الأرخييل بشمال أورنو ، وكان المنزل عبارة عن قبلا حجرية

رومانية الطراز تطل على خليج دالارو ، وتفصلها عن باقي الجزيرة غابة قديمة كثيفة الأشجار ، يزحف عليها الفريز وتنمو بجانبها نباتات السحلب التي تلتصق في الظلام .

في هذه الأجواء الغرائبية كنا نحتفل بالصيف ، كابي وأمها ، وخدمتنا الألمانية وأنا . كانت كابي حاملا وتعاني من حكة دائمة ومؤلمة في ساقها ، كانت تحك طوال الوقت ولا تستطيع الجلوس كثيرا ، وكانت لياليها سيئة لا تعرف فيها مذاقا للنوم .

كان من عادة كابي أن تتذمر من الأشياء الصغيرة ، لكنها تحملت هذه المعاناة بصبر . وهي تقرأ روايات روسية ضخمة . كانت تمضي ساعات العتمة بالتجوال وتنام أحيانا أثناء سيرها وعندما تستيقظ تجد أنها أقدمت على فعل أشياء تجهلها تماما .

ذات ليلة أيقظني صوت ضجة عنيفة وصرخة رعب ، أسرعت فوجدت كابي ملقاة على الأرض أسفل الدرج . لقد غفت أثناء سيرها ووقعت .

انهارت آلية نومي الى أجزاء وأصبح أرقى مزمنًا . لكنني اغدو على ما يرام عندما انام لأربع أو خمس ساعات . ثمة لولب يشدني من أعماق النوم بقوة تصعب مقاومتها . أهو احساس قلق بالذنب أو حاجة للسيطرة على الواقع ؟ لا أدري . ان المفتاح الوحيد الذي يجعل الليل محتملا يكمن في الكتب والموسيقا والبسكويت والمياه المعدنية . أسوأ الساعات هي (ساعات الذئب) بين الثالثة والخامسة صباحا عندما تأتي شياطين إماتة الأجساد والكراهية والخوف والفضب ، ولا تعود مقاومتها ممكنة لأن ذلك سيزيد الأمور سوءا . عندما تعبت عيناى من القراءة أغمضهما وأستمع للموسيقا بتركيز وأطلق العنان للشياطين : « تعالوا ، أنا اعرفكم جيدا واعرف كيف تعملون ، تستمرون حتى

تصابوا بالتعب » . وبعد فترة يتحولون الى حمقى ثم يختفون وأستطيع
عندئذ أن أنام بضع ساعات .

ولد دانييل سباستيان بعملية قيصرية في السابع من أيلول عام
١٩٦٢ ، وبقيت كابي تتلقى دروسها من اندريا حتى اللحظة الأخيرة .
وبعد الولادة استفرقت كابي بالنوم بعد سبعة أشهر من العذاب ، وكنت
جالسا مع اندريا التي تناولت الجدول الموسيقى الفيلم (الناي السحري)
وأخذت تتصفح . أخبرتها عن رغبتى في إنتاج هذا الفيلم . قرأت اندريا
أغنية الكورس وأشارت الى روعة موزارت الذي اختار لرسالته على
الرغم من كونه كاتوليكيًا أعمالا كورالية لباخ ، ثم قالت : « هذا هو
الرافد الأساسى لديك . لن يعمل (الناي السحري) من دون هذا الرافد ،
انه كورس باخ » .

ووصلنا الى مشهد بابانو وبامينا ، فقالت لي : « انظر هنا ، انها
مثل جملة اعتراضية ، رسالة أخرى . الحب هو أفضل شيء في الحياة .
الحب هو المغزى الأعمق للحياة » .

آن عملي الفني يمتد بمجساته وجذوره عميقا في الزمن والأحلام .
أحب تخيل هذه الجذور مقيمة في غرفة الروح الواسعة ، تنضج مثل
قرص جبن كبير .

لقد بدأ مخزون الأفكار والوحي السريع ينضب الآن ، لكنني لا أشعر
بالحزن أو الخسارة .

* * *

أخرجت في مطلع السبعينيات مجموعة أفلام مشكوك بأمرها ، لكنها عادت علي بأموال طائلة ، كنت في حالة بائسة بعد مشروع العظم وغير الناجح الذي قمت ببطولته مع ليف اولمان وجرت أحداثه في فارو . تركت احدى الشخصيتين الأساسيتين المكان وبقيت أنا وحدي ، فقدمت اخراجا جيدا لمسرحية (لعبة حلم) ووقعت في حب ممثلات شبابات . وكانت ترويني آلية البروفات فأعود الى جزيرتي ، وخلال تلك الفترة الطويلة التي كنت فيها فريسة للكآبة الموحشة ، كتب سيناريو فيلم (صرخات وهمسات) .

جمعت كل مدخراتي واقنعت الشخصيات الرئيسية الأربعة بأن يستثمروا أجورهم في الفيلم ، واقترضت نصف مليون كرونو من معهد الفيلم ، الأمر الذي أثار امتعاض عدد من المخرجين الذين احتجوا بأن برغمان يخطف الخبز من أفواه زملائه السويديين الفقراء ، رغم أنه قادر على تأمين تمويل لأفلامه من الخارج . كانت القضية مختلفة ، فبعد مجموعة من شبه الاخفاقات التي أصابت أفلامي لم يعد هناك خبازون لا في داخل البلاد ولا خارجها . حسنا . . لقد كنت دائما أقدر الوحشية الصادقة في عالم الفيلم ، يجب ألا يشك المرء بقيمته الحقيقية في السوق . كانت قيمتي صفرا . وللمرة الثانية في حياتي بدأ النقاد يتحدثون عن اقتراب نهايتي ، ومن الغريب أنني لم أتأثر بكلامهم مطلقا .

أنجزنا الفيلم في جو من الثقة والبهجة ، وجرى التصوير في بيت ريفي متداع ، يقع خارج ماريفرد ، وكانت غرفه في حالة سيئة للغاية فأصلحناها كما شئنا وعشنا وعملنا فيها مدة ثمانية أسابيع .

أحيانا ينتابني الأسى لأنني لم أعد أصنع أفلاما .. انه احساس طبيعي لكنه يمضي . وأكثر ما افتقده العمل برفقة سقن نيكفست ، ربما لأننا كلينا أسيران لمجموعة من المشكلات والهواجس الواحدة : الاضاعة ، الهدوء ، الخطر ، الأحلام المتشابهة ، الحياة ، الموت ، الوضوح ، الضباب ، الحر ، العنف ، الشماع ، الظلام ، السقوط ، الانحدار ، الحسية ، الخضوع ، المحدودية ، السم ، الهدوء ، النور الشاحب ، الاضاعة .

تطلب انجاز (صرخات وهمسات) وقتا طويلا ، ودون انتظار نتائج النهائية بدانا بفيلم (مشاهد من حياة زوجية) ، عمل لمجرد المتعة . وفي منتصف فترة التصوير اتصل بي المحامي ليخبرني بأن نقودنا ستنفد خلال شهر على الأكثر ، فبعث الحقوق الاسكندنافية للتلفزيون السويدي وأنقذت فيلما مدته ست ساعات .

كان العثور على موزع أمريكي (لصرخات وهمسات) أمرا في غاية الصعوبة ، وقد بذل وكيلي بول كونر ، وهو تاجر عجوز وماكر ، جهودا حثيثة دون فائدة ، حتى أن أحد الموزعين صرخ في وجهه قائلا : « سوف أقدمكم للمحاكمة بسبب هذا الفيلم اللعين » . وفي النهاية عظفت علينا إحدى الشركات الصغيرة المتخصصة بأفلام الرعب والبورنو الخفيف ، واشترت الحقوق . وكانت إحدى دور العرض في نيويورك تعاني من حالة فراغ بسبب تأخر وصول فيلم لفيسكوتني في الوقت المناسب ، فقررت عرض الفيلم ، وكان افتتاحه قبل يومين من عيد الميلاد .

تزوجنا أنا وانغريد في تشرين الثاني وانتقلنا الى شقة في كارلابلان ، رائحة روعة قطعة حلوى . وكان البناء يقوم على انقاض البيت الأحمر الذي عاش فيه سترندبرغ وهاريت بوس . وفي الليلة الأولى استيقظت على عزف بيانو بعيد ، وكانت إحدى مقطوعات شوبان ، وهي نفسها المعزوفة المفضلة لدى سترندبرغ . ربما كانت تحية ودودة ؟

- بدأنا نحضر لعيد الميلاد مع احساس بالقلق تجاه المستقبل .
- كانت كابي تقول بانها لا تأبه للنقود ولكن النقود مريحة للأعصاب .
- شعرت بالاسف لأن شركة سينما توغراف قد تضطر لوقف نشاطاتها .

قبل يوم واحد من ليلة الميلاد اتصل بي بول كونر من أميركا كان صوته غريبا وهو يصيح : « انه الهديان بعينه يا انغمار . انه الهديان ! » . لم أفهم قصده وتطلب الأمر بعض الوقت لاستيعاب النصر الكبير . وبعد عشرة أيام كان فيلم (صرخات وهمسات) قد بيع لكل دولة ما زالت توجد فيها دور عرض سينمائية .

وهكذا انتقلت شركة سينما توغراف الى موقع جديد ، خصصنا فيه غرفة عرض جميلة بتجهيزات ممتازة وتحول مكتبنا الى مكان رائع للقاءات والفعاليات المكثفة ، وبدأت أعمل كمنتج سينمائي في أفلام مخرجين آخرين .

لا أعتقد أنني كنت منتجا جيدا لانني بذلت جهودا كبيرة كي لا اتحول الى مستبد وبالتالي الى مخادع . كنت أشجع المخرجين ولا أطلبهم بالكثير .

زواج ناجح وأصدقاء جيّدون ومؤسسة تعمل برشاقة ومثابرة ، ونسمات لطيفة تهب حول أذني النائتتين قليلا . والحياة طعمها أفضل من أي وقت مضى . نجح فيلم (مشاهد من حياة زوجية) ، ونجح بعده فيلم (الناي السحري) .

ومن أجل أن نحكأ اكتافنا بالشهرة ولو مرة واحدة ، سافرت مع انغريد الى هوليوود بعد أن تلقيت دعوة للقاء محاضرات بمدرسة الفيلم في لوس انجلوس .

وفاقت الرحلة كل توقعاتنا : السماء الصفراء والمسممة فوق لوس انجلوس ، دعوات الطعام الرسمية مع المخرجين والممثلين ، والعشاء

أندي لا يوصف في قصر دينو دي لورينتس الذي يطل على مشهد للمدينة والمحيط ، مع زوجة دينو ، سيلفانا مانغانو ، ملكة الجمال في الخمسينيات والتي تحولت الآن الى هيكل عظمي متجول بجمجمة مصنوعة جيداً وعينين جريحتين لا تهدان . الطعام السيء ، والمودة الرقيقة غير المبالية .

في مناسبة أخرى دعا وكيلبي بول كونر ، جندي هوليوود المخضرم ، مجموعة من المخرجين القدامى لتناول العشاء ، فجاء وليام ويلر وبيلي ويلدر ووليام ولان ، وتحدثنا عن نشاط الأفلام الأميركية الرائع ، وروى لنا وليام ولان كيف بدأ بالمشريقيات مع ممثلين اثنين ، وكان يجب أن يجعل كل شيء واضحاً منذ البداية ، فصور مشهداً لشارع ترايبي خارج الحانة وكلب صغير يجلس على العتبة . يأتي البطل خارجاً فيداعب الكلب بحنان ويمتطي حصانه ويمضي ، ثم يظهر الشرير خارجاً بدوره فيركل الكلب بقدمه ويبتعد . الآن يمكن أن تبدأ الدراما بعد أن قرر الجمهور في دقيقة واحدة من سيحب ... من سيكره .

كنت أنوي أن أتحدث في فيلم (وجهاً لوجه) عن الاحلام والواقع ، حيث تصبح الاحلام واقعاً ملموساً ، ويتلاشى الواقع ليتحول الى حلم . وكنت قد استطعت في محاولات كثيرة أن أزيل الحواجز بين عالمي الاحلام والواقع كما في أفلام (برسونا) و (الليلة العارية) و (صرخات وهمسات) لكن الوضع مختلف الآن . لقد تطلبت نواياي الهاماً خذلني ، فأصبح تسلسل الاحلام مركباً والواقع غير واضح ، ثمة مشاهد قوية هنا وهناك وليف اولمان تكافح فيها بضرواة ، لكنها لم تستطع انقاذ الذروة .

كان الظلام يخيم حولي دون أن أراه . أرادوا في التلفزيون الايطالي أن يصوروا فيلماً عن حياة المسيح ، وكان يقف وراء هذا المشروع خبازون أقوىاء ، حضر خمسة منهم الى السويد ليفاوضوني على العمل ، فعرضت عليهم ملخصاً للفيلم يستعرض الثماني والأربعين ساعة الأخيرة من حياة المنقذ ، ويتألف من مجموعة مشاهد يروي كل منها قصة احدي

الشخصيات المهمة في هذه الدراما : بيلاطس البنطي وزوجته ، بطرس ، مريم والدة المسيح ، مريم المجدلية ، الجندي الذي ثنى التاج وسمعان الذي حمل الصليب ، ويهوذا الخائن . كل شخصية لها مشهدها الخاص الذي تتضح خلاله مواهبهم للمأساة التي دمرت واقعهم وغيرت حياتهم . من ناحية أخرى أخبرت جماعة التلفزيون الايطالي انني انوي التصوير في فارو ، حيث ستكون قاعة المدينة القديمة سور القدس والبحر بحيرة طبرية ، وسوف أرفع الصليب فوق هضبة لانغهامر .

قرأ الايطاليون الملخص ، وتأملوه بكآبة ثم رحلوا ووقعوا عقداً سخياً مع فرانكو زيفيريلي الذي أخرج لهم فيلماً عن حياة وموت المسيح .

كان الظلام يخيم حولي دون أن أراه .

عادت حياتي هائلة بعد أن تخلصت من الصراعات المضنية ، وتعلمت كيف أتعامل مع شياطيني واستطعت تحقيق أحد أحلام طفولتي ، فبعد انتهاء تصوير (مشاهد من حياة زوجية) في البيت القديم الذي أعدنا اصلاحه في دامبا بفارو ، حولت البيت الى قاعة للعرض مع غرفة مونتاج في مخزن التبسن .

وبعد الانتهاء من مونتاج (الناي السحري) قمت بدعوة كل من شارل بالفيلم ، بالاضافة الى أهالي فارو وبعض الاطفال ، لحضور العرض الاول . كان شهر آب والقمر بدرأ والضباب فوق دامبا والطواحين تدور في الضياء البارد .

عندما يتقدم السن بالمرء تخف حاجته للتسلية واللهو ، وأشعر الآن بالامتنان لكل أيامي اللطيفة وليالي المؤرقة . لقد منحني غرفة العرض السينمائي في فارو متعة لا توصف ، واستطعت من خلال علاقتي الطيبة مع أرشيف معهد الفيلم أن أستعير افلاماً قديمة من مستودعهم الذي لا ينضب . لدي كرسي مريح وغرفة دافئة ، يسود الظلام لبرهة ثم تظهر

الارتعاشات الاولى على الحائط الابيض . الهدوء يعم المكان وآلة العرض
تصدر صوتاً خافتاً في غرفة العرض المعزولة ، وتتحرك الظلال ، ويلتفتون
بوجوههم الي وكأنهم يحثونني أن أتابع مصائرهم . .
لقد انقضى ستون عاماً وما زالت الاثارة هي نفسها .



في عام ١٩٧٠ دعاني لورنس أوليفيه لاجراج (هيدا غابلر) على خشبة المسرح الوطني في لندن ، مع ماثي سميث للدور الرئيسي ، فحزمت امتعتي وسافرت يراودني احساس بالواجهة والتفاؤل .

كانت غرفتي بالفندق قدرة ومعتمة ، تهتز مع البناء كله بسبب حركة السير الفظيعة في الشارع، وتفوح منها رائحة نتنة، وكانت تعيش في الحمام حشرات صغيرة خجولة ، جميلة ولكن في غير مكانها . أما العشاء الذي أقامه لورنس أوليفيه ، الذي نال لقب لورد مؤخراً ، ترحيباً بي ودعا اليه بعض الممثلين ، فكان سيء الطعام وغير صالح . ثمل أحد الممثلين وأخبرني بأن سترندبرغ وابسن ديناصوران لا يمكن العمل معهما مما يعني ببساطة ان المسرح البورجوازي في طريقه للانقراض . سألته عن سبب مشاركته (بهيدا غابلر) ما دام هذا اعتقاده ، فأجابني أنه يوجد في لندن حوالي خمسة آلاف ممثل وممثلة عاطلين عن العمل . ابتسم اللورد أوليفيه بقليل من السخرية وأخبرني بأن صديقنا هو ممثل ممتاز في الحقيقة. ولكونه أصبح ثورياً بعد أن ثمل ، أمر لا يعني شيئاً على الاطلاق.

انقضت الجلسة بسرعة .

كان مقر المسرح الوطني المؤقت في مكان مستأجر لان المسرح الجديد لا يزال قيد البناء على الضفة الجنوبية . وكانت البروفات تقام في قاعة اسمنتية ذات سقف حديدي ، تقع قريباً من ساحة تضم صناديق قمامة ذات روائح كريهة ، وعندما كانت تحتد الشمس وتصب جام غضبها على السقف الحديدي يصبح البقاء في القاعة جحيماً لا يطاق . وكان

يوجد مرحاضان بين قاعة البروفات ومركز الادارة تفوح منهما روائح البول والاسماك الفاسدة .

كان الممثلون ممتازين والبعض منهم خارقاً ، وقد أخافني قليلاً حرفيتهم وسرعتهم العالية ، ولاحظت فوراً أن اساليب عملهم تختلف عن أساليبنا . انهم يحفظون أدوارهم أثناء القراءة الاولى ، وعندما تبدأ البروفة يمثلون بايقاع سريع . طلبت منهم أن يخففوا سرعتهم فحاولوا باختلاص لكن المحاولة ضايقتهم لأنهم لم يعتادوا بعد .

كان اللورد أوليفيه مصاباً بالسرطان ، لكنه كان يوجد في مركز الادارة اعتباراً من التاسعة صباحاً كل يوم ، فيعمل طيلة النهار ثم يؤدي دور شاييلوك في عدة امسيات بالاسبوع وأحياناً يقدم عرضين في اليوم الواحد . في امسية أحد ذهب لرؤيته في غرفة ملابس الضيقة بعد انتهاء العرض الاول ، فوجدته جالساً بملابسه الداخلية والمكياج يغطي وجهه الشاحب شحوب الموت والمتفصد عرقاً ، وكانت امامه بعض الشطائر غير المشجعة ، وزجاجة شمبانيا ، شرب الكأس الاولى والثانية والثالثة ، ثم اقترب الماكير منه ، وساعده عامل الملابس على ارتداء الزي الخاص بالدور .

لم أستطع عندئذ الا أن أفكر بالممثلين السويديين الشباب الذين يتدمرون لوجود بروفات أثناء النهار وعروض في المساء : يا له من عمل شاق ! هذا مسيء لأحاسيسهم الفنية ! كم سيصعب العمل في اليوم التالي ! كم هو الوضع كارثي بالنسبة لحياتهم العائلية !

قررت أن انتقل الى فندق آخر جيد مهما بلغت النفقات ، لكن اللورد أوليفيه عرض علي الإقامة في استراحته الخاصة الواقعة في ألطف أحياء المدينة ، وأكد لي بانني ان أشعر بالانزعاج هناك . كان يقيم في برايتون مع زوجته بلوريت ونادرا ما يقضي الليل في لندن ، لذلك لن يسبب أحد منا احراجاً للآخر . قبلت العرض وشكرته وانتقلت الى الاستراحة حيث

استقبلتني واحدة من شخصيات ديكنز ، وكانت امرأة ايرلندية تشرف على المنزل ، وتقرأ صلواتها كل ليلة بصوت عالٍ حتى انني ظننت لدى سماعي لها لأول مرة ان الصلاة تبت في غرفتها بواسطة مكبرات للصوت .

وعمليا كنت اقابل اللورد اوليفيه كل صباح على مائدة الافطار ، وكانت اللقاءات منيرة بالنسبة لي . واثناء احتساء القهوة كان لورنس اوليفيه يحدثني عن شكسبير وكان حماسي لسماعه بلا حدود . كنت اسأله وهو يجيبني ويستفيض بالاجابة حتى انه كان يتصل بالهاتف أحيانا ويعتذر عن حضور اجتماع ما ، ويصب فنجانا جديدا ويتابع حديثه .

هذا الصوت اللطيف والوحيد يتحدث عن حياة كاملة أمضاها مع شكسبير ، عن الاكتشافات والمحن ، عن البصيرة والخبرة . وبالتدريج بدأت أفهم ، وبمتعة ، مودة الممثلين الانكليز العميقة وفهمهم العملي وتعاملهم مع قوة طبيعية مجهولة كان يمكن أن تحطمهم أو تحولهم الى عبيد . لقد عاشوا أحرارا ولكن ضمن التقاليد . طيبو القلب ، متكبرون ، عدوانيون ولكن أحرار . مسرحهم ، أوقات البروقات المحدودة ، الضغط القاسي ، الالتزام بضرورة الوصول الى الجمهور ، كل هذه كانت أمورا أساسية لارحمة فيها . كان ارتباطهم بتقاليدهم متعدد الابعاد ومطلقا . لقد تمسك لورنس اوليفيه بالتقاليد وتمرد عليها في الوقت نفسه وذلك بفضل تعاونه المستمر مع زملائه ، الأصغر والأكبر سنا ، الذين كانوا يعيشون ظروف الابداع القاسية ذاتها ، وبفضل علاقاته الكثيرة خلال حياته المهنية العظيمة ، وحيث أصبحت علاقته الخاصة بفته أكثر عمقا وقدرة على التدبير ، لكنها بقيت خطرة ومرهقة ومفاجئة .

التقينا مرات عديدة . كان اللورد اوليفيه قد انتهى لتوه من اخراج فيلم (الشقيقات الثلاث) ، وكنت أعتبره سيئا باخراجه وتصويره ومونتاجه ، بالاضافة الى افتقاده اللقطات الكبيرة لوجوه الممثلين .

حاولت ان اخبره برابي بقدر المستطاع من اللطف والتهذيب ، مع الإشادة بأداء الممثلين وخصوصا جوان بلورايت ، ولكن دون جدوى . لقد تحول لورانس اوليفية فجأة الى شخص يتعامل بشكل رسمي ، وانقلبت مودتنا واهتماماتنا المشتركة الى شجار متبادل حول تفاصيل تافهة .

جاء الى بروفة الملابس لمرحية (هيدا غابلر) متأخرا نصف ساعة ولم يعتذر ، بل حاول أن يشير بتهمك الى ضعف العمل .

غادرت لندن ، التي كرهتها من كل أعماقي ، في يوم افتتاح المسرحية ، ووصلت استوكهولم في أمسية بيضاء من شهر أيار . وقفت على الجسر الشمالي أتأمل الصيادين وقواربهم . كانت ثمة فرقة موسيقية تعزف في مكان قريب ، وعبير ازهار الكرز يملأ الفضاء ، واحساس بالبرودة ينبعث من مياه النهر المتدفقة .



خلال الستينيات زار شارلي شابلن اسوكهولم ليشارك بالحملة الدعائية لكتاب سيرته الذاتية ، واتصل بين الناشر لاس برغستروم وسألني إن كنت راغبا بلقاء هذا الرجل العظيم في فندق الفراند ، وكنت راغبا بالفعل . وفي العاشرة من صباح اليوم التالي كنا ندق باب غرفته ، وسرعان ما فتح لنا شابلن نفسه وقد ارتدى ثيابا أنيقة لا عيب فيها ، ورحب بنا وقدمنا الى زوجته وأنا وابنتيه الصغيرتين ، الجميلتين كغزالتين .

جلسنا نتحدث حول كتابه ، وسألته عن المرة الأولى التي اكتشف فيها أنه كان مضحكا للجمهور ، فأوما برأسه بتلهف وروى لنا الحادثة عن طيب خاطر :

كان قد عين من قبل كيستون مع مجموعة من الممثلين ، ليؤدوا دور رجال الشرطة . وفي أحد المشاهد طاردوا رجلاً شريراً ، وبعد عدة لقطات من المطاردة والسقوط وقع الشرير في قبضتهم ، فطرحوه أرضاً وانهاوا عليه بهراواتهم ، وخطر لشابن ألا يضرب الرجل بشكل متكرر كما أخبره المخرج ، فوقف في مكان بحيث يشاهدونه جيداً ضمن الرجال الآخرين وأمضى وقتاً طويلاً وهو يحدد الهدف بهراوته ، وكان في كل مرة يشرع بضرب الشرير ، يتوقف في اللحظة الأخيرة ويعيد الكرة من جديد . وعندما قرر أن يسدد ضربته الأخيرة رفع هراوته وهوى بها ، لكنه فقد توازنه وأخطأ الهدف وسقط أرضاً .

عرض الفيلم في نيكيلدون ، وذهب شابن لمشاهدته . وعندما أخطأ الهدف وسقط أرضاً ضحك الجمهور على شارلي شابن للمرة الأولى .



وصلت غريتا غاربو الى السويد في زيارة سريعة لاستشارة أحد الاطباء السويديين ، واتصل صديق يخبرني عن رغبة النجمة بزيارة مدينة السينما في وقت متأخر من بعد ظهر اليوم ، وكانت قد اعتذرت عن حفل استقبال وطلبت أن ارافقها في المكان الذي عرف خطواتها الأولى .

وفي حوالى السادسة من مساء يوم ربيعي بارد توقفت سيارة سوداء فاخرة في ساحة الاستوديو ، ونزلت منها النجمة . استقبلتها مرحباً ، وبعد قليل من الاضطراب والعبارات الاجبارية انسحب كل من مساعدينا لتناول البراندي وتبادل الحديث ، وبقيت مع غريتا غاربو وحدنا في غرفة عملي الضيقة والمتواضعة .

جلست على الكرسي وأضأت مصباحاً صغيراً ، أما غريتا فجلست على الكنبة وقالت : « لقد كانت هذه غرفة ستيلر » ، وبدأت تتفحصها

بنظراتها . لم ادر بماذا أجيب فقلت لها إن غوستاف مولاندر كان يعمل في هذه الغرفة قبلي ، لكنها عادت تقول « نعم انها غرفة ستيلر ، أنا متأكدة » ، ثم تحدثنا بشكل غائم عن ستيلر وسيوستروم ، وأخبرتني بأن ستيلر أخرج لها فيلمها الأول في هوليوود رغم انه كان مطرودا من العمل . « كان مطرودا ومريضا وأنا لم أعرف بذلك فهو لم يكن يتذمر ابدا ، وأنا كانت لدي مشكلاتي الخاصة . » .

وساد الصمت .

وفجأة نزعنا نظاراتها الشمسية السوداء وقالت لي : « انظر إلي كيف ابدو يا سيد برغمان » ، وابتسمت ابتسامة سريعة ومتألقة .

يصعب القول فيما اذا كانت الاساطير العظيمة ساحرة بسبب كونها أساطير أو أن سحرها وهم خلقناه نحن المستهلكين . ولكن في تلك اللحظة لم يكن يوجد مجال للشك . في تلك الغرفة الضيقة ذات الاضاءة الخافتة كان جمالها خالدا ، ولو أنها كانت أحد ملائكة الأناجيل لقلت أن الجمال يطلق حولها ، هذا الجمال المتجسد بلامح وجهها الصافية وبجبهتها وعينيها وحتى ثقبتي أنفها . انتبهت غريتا الى ردة فعلي فورا ، فانتعشت وبدأت تتحدث عن دورها في مسرحية لسلمة لاغرلوف .

توجنها الى الاستوديو الصغير وأخذت تذكر أسماء المساعدين والفنيين الذين ماتوا جميعا باستثناء واحد . قمنا بجولة سريعة في المنطقة وكانت تستند الى ذراعي بين الحين والآخر بسبب الطرقات الزلقة ، وعندما عدنا الى الغرفة كانت مبتهجة ومسترخية ، وكان مساعدي يمرح مع ضيوفه في الغرفة المجاورة .

« أراد آلف سيوبرغ أن نضع فيلما سوية ، وأمضينا الليل كله جالسين في السيارة نتحدث . كان ملحا وتصعب مقاومته . قبلت

عرضه لكنني غيرت رأبي في صباح اليوم التالي ورفضت . كان هذا غباءً مروعا من طرفي . ألا تعتقد ذلك يا سيد برغمان ؟ » .

وانحنت قليلا بحيث انكشف وجهها أمام ضوء المصباح الموجود على طاولة المكتب .

وفجأة رأيت ما لم أره من قبل . كان فمها بشعا . شق رمادي محاط بالتجاعيد . كانت الرؤية غريبة ومزعجة . كل هذا الجمال وفي وسطه نشاز عالي النغمة ، ولن يكون بوسع أي جراح تجميلي أن يصلح هذا الفم . قرأت أفكارني بسرعة فلاذت بالصمت ودب الملل إليها وافترقنا خلال دقائق قليلة .

لقد شاهدت بتمعن فيلها الأخير الذي صورته وهي في السادسة والثلاثين . كان وجهها جميلا ولكن مشدودا ، فمها بلا رقة ونظراتها مشتتة وحزينة رغم الكوميديا . ربما لمح الجمهور لها بما كانت مرآة مكياجها قد أسرت إليها .



في صيف عام ١٩٨٣ قدمت مسرحية موليير (دون جوان) في مهرجان سالزبورغ ، وكان التخطيط لهذا العرض قد استمر ثلاث سنوات وبدأ في مرحلة شهر الصسل بيني وبين مدير مسرح الريدنز ، النمساوي كورت يزل الذي كان سيؤدي دور سفاناريل ، ثم اختلفنا فطرديني من المسرح لكن عقدي ظل ساري المفعول ، فاخترت ممثلا آخر لاداء دور سفاناريل وكانت تشمل تحت تصرفي مجموعة رائعة ، منها مايكل ديفن في دور دون جوان العجوز .

تلقيت دعوة لزيارة هربرت فون كارايان الذي كان يحضر لإعادة تقديم أوبرا (الفارس حامل الورد) خلال المهرجان ، وكان يعتبرها من أهم أعماله .

أقلتني سيارته ، ثم وصلت الى مكتبه الخاص داخل أحد الابنية الضخمة ، ووصل متأخرا بضع دقائق . كان رجلا نحىلا ورأسه كبيرة ، وكان يساعده على السير أحد مساعديه بعد أن أجرى مؤخرا عملية في ظهره وأخرى لساقه . جلسنا في غرفة أنيقة ومريحة تغلب عليها الالوان الرمادية الباردة والملائمة ، وانسحب كل المساعدين والسكرتيرات ، وكان يفترض أن تبدأ بروقات (الفارس حامل الورد) خلال نصف ساعة .

دخل المايسترو في الموضوع مباشرة ، كان يريد أن يصور (توراندوت) كفيلم أوبرالي للتلفزيون على أن أقوم باخراجه بنفسى . ونظر إلي بعينين مرهقتين وباردتين (وكنت اعتقد بأن توراندوت عبارة عن خليط مزعج وثقيل) لكننى كأنما خضعت لجلسة تنويم مغناطيسى أثناء نظرات هذا الرجل النحيل إليّ ، فقلت له إن هذا شرف عظيم بالنسبة لى وإننى كنت دائما مسحورا بتوراندوت وأن الموسيقى رائعة ولا يوجد ما يشجع أكثر من التعاون مع هربرت فون كاربان .

حددنا موعد الانتاج في ربيع عام ١٩٨٩ ، واقترح كاربان بعض الاسماء من نجوم الاوبرا في العالم ، ومصمم المناظر والاستوديو ، وسيكون الفيلم مقتبسا عن تسجيل سوف ينجزه في خريف عام ١٩٨٧ .

وفجأة أصبح كل شيء غير واقعي ، الشيء الواقعي الوحيد هو (توراندوت) . كنت أعرف أن هذا الرجل أمامى قد بلغ الخامسة والسبعين وأنا أصغره بعشر سنوات . في عام ١٩٨٩ ، سيقوم مايسترو فى الواحدة والثمانين ، ومخرج فى الواحدة والسبعين بنفخ الحياة فى عمل موسيقى غريب ومحنط . لم أشعر بمثل هذه الغرابة ، لكننى كنت سعيدا بها .

وبعد الترتيبات الأولية بدأ المايسترو يتحدث عن شتراوس ، وعمله (الفارس حامل الورد) ، الذى قام كاربان بقيادته للمرة الأولى

عندما كان في العشرين من العمر ، وعاش معه هذا العمل طوال حياته ولا يزال يراه جديدا ومليئا بالتحديات ، ثم قال فجأة : « لقد شاهدت مسرحيتك (لعبة حلم) أنت تخرج وكأنك موسيقي ، لديك احساس بالايقاع والموسيقا ، كذلك كان الحال في (الناي السحري) . توجد فيه مشاهد رائعة ، لكنني لم احب الفيلم وكان يجب أن تضيف بعض المشاهد الى النهاية . لانك لا تستطيع أن تفعل هذا بموزارت ، فكل شيء عضوي ومترابط » .

ظهر أحد المساعدين بالباب وقال إن وقت البروفة قد حان ، فلوح له كاريان بيده مشيرا الى أن ينتظروا .

بعد لحظات نهض بصعوبة وامسك عصاه وجاء مساعده ليمسك بيده أثناء عبور الممرات الحجرية الطويلة في مسرح المهرجان . وما أن سرنا حتى تحولنا الى موكب امبراطوري من المساعدين والسكرتيرات ومغني الأوبرا من كل الاجناس والنقاد المنذلين والصحفيين الخانعين .

كان العازفون المنفردون يقفون باستعداد على خشبة المسرح ، أما أعضاء فيلهارمونيا فينيا فأخذوا موقعهم في المكان المخصص للاوركسترا ، وامتلات القاعة بمئات من مواطني امبراطوريته .

وعندما ظهر الرجل النحيل ذو الساق العرجاء ، وقف كل الموجودين احتراما له وانتظروه حتى تبوا منبره .

وبدا العمل فورا ، وغرقنا في موجة من الجمال .



بدأت عملية النفي الذاتي في باريس عام ١٩٧٦ . وبعد فترة من التجول انتهت الى ميونيخ ومن ثم الى مسرح الرزيدانز ، الذي يعادل بالنسبة للبافاريين المسرح الدرامي الملكي في استوكهولم ، ويضم ثلاث قاعات ، وعدد العاملين نفسه وحجم الانتاج نفسه أيضا . خلال فترة وجودي قدمت أحد عشر انتاجا مسرحيا ، واكتسبت قدرا كبيرا من الخبرة ، وارتكبت قدرا أكبر من الحماقات .

يوجد في ألمانيا الغربية عدد هائل من المسارح ، يجتذب بعضها أفضل الكوادر المسرحية في البلاد لأسباب منها الأجور العالية ، وانتفاء خطورة الفرق بالنسيان . يتحرك المخرجون والنقاد باستمرار ، ويأتون من أقصى الامكنة لمشاهدة كل جديد ، وبالمقارنة مع بلاد أخرى فان صفحات الثقافة والفنون في الصحف الرئيسية تخصص حيزا للنشاطات المسرحية مستقلا عن حيز أخبار الفيديو والأغاني ، ويصعب أن يمضي يوم واحد دون وجود تقرير عن أحداث مسرحية معينة ، أو تغطية لحوارات حامية الوطيس عن المسرح .

كما يصعب وجود منتجين أو مصممي مناظر ممن يتمتعون بامتيازات خاصة . ويرتبط الممثلون بعقود سنوية ويمكن أن يطردوا من العمل بشكل اعتباطي ما عدا أولئك الذين مضى أكثر من خمسة عشر عاما على وجودهم بالمسرح . الاحساس بعدم الأمان مطلق وهو أمر له حسناته وسيئاته . بالنسبة للحسنات فهي واضحة ولا تحتاج لتعليق وأما السيئات فتولد المكائد وسوء استخدام السلطة والعدوانية والاحساس بالذل والخوف وعدم الاستقرار . وعندما يتسلم مخرج

جديد ادارة المسرح ، ينقل معه عشرين أو ثلاثين ممثلا ممن كانوا يعملون معه في مسرحه السابق ويطرد العدد نفسه من ممثلي المسرح الجديد. هذا نظام ساري المفعول ولا يناقشة أحد بمن فيهم مسؤولو النقابات .

وكان العمل يسير بسرعة .. ثماني مسرحيات على الأقل للقاعة الكبيرة ، وأربع لقاعة انكس ، ومجموعة من الأعمال المنوعة للقاعة التجريبية . العروض تقدم يوميا بلا توقف ، البروفات طوال ستة أيام في الأسبوع وأحيانا في المساء أيضا . البرنامج المسرحي أمر يجب الالتزام به كلية . البرامج تتغير يوميا . ثمة عروض تستمر لسنوات ، وعروض أخرى تزيد مدة عرضها عن العشر سنوات .

الحرفية تقدر عاليا ، وكذلك المعرفة والمهارة والقدرة على تحمل المحن والمضايقات بلا تدمير .

وهكذا فالعمل طبيعته شاقة للغاية ، والوقت المخصص لبروفات العمل الواحد يحدد بين ثمانية وعشرة أسابيع . اعتقد أنه لا يوجد في العالم كله مسرح مستبد ومتطلب كما هو المسرح الألماني ، ربما باستثناء المسرح البولوني .

عندما ذهبت الى ميونخ اعتقدت أن لغتي الألمانية جيدة بما فيه الكفاية ، لكنني سرعان ما اكتشفت عكس ذلك .

واجهتني المشكلة للمرة الأولى اثناء القراءة المشتركة لمسرحية (لعبة حلم) ، حين وجدت أربعة وأربعين ممثلا وممثلة رائعين يجلسون أمامي وينظرون الي بتوقع . شعرت بالإخفاق التام ، فتلعثمت ولم أعر على الكلمات المناسبة وتشوشت وتوردت خجلا وعرقت واعتقدت بأنني اذا اجتزت هذه اللحظات الصعبة أستطيع اجتياز أي شيء .

كانت السنوات الأولى شاقة ، أحسست خلالها كأنني عاجز مقطوع اليدين والساقين وأدركت ان الكلمة الصحيحة الرشيقة في

وقتها المناسب هي أداتي القوية بوصفي موجهًا للممثلين ، الكلمة التي لا تكسر إيقاع نفسها ولا تزعج الممثلين أثناء تركيزهم أو استماعهم لي ، الكلمة السريعة والفعالة التي تولد حدسياً وبالشكل الصحيح . وقد لاحظت بفضب وأسف ونفاد صبر أن هذه الكلمة لا تولد من لغة المحادثة القدرة .

استطعت بعد سنوات أن أتعلم كيفية إقامة اتصال مع الممثلين الذين يفهمونني بحدسهم ، وتمكنت معهم من إرساء نظام للإشارات كان مقنعا في أحيان كثيرة . ويعود الفضل بأنني استطعت ، ورغم عجزتي ، تقديم أفضل عروضي في ميونخ ، إلى حساسية الممثلين الألمان العالية وفهمهم السريع وصبرهم . إن تعلم لغة جديدة في مثل سني أمر لا يمكن مناقشته .

ثمة شيء رائع فيما يتعلق بجمهور مسارح ميونخ ، فهم أناس يعرفون الفن جيدا رغم أنهم ينتمون إلى شرائح اجتماعية مختلفة ، ولديهم جراءة كبيرة لانتقاد ما لا يعجبهم والتعبير بالصغير عن عدم إعجابهم . لكن الطريف فيهم أنهم يذهبون إلى المسرح بغض النظر عن مستوى المسرحية ، وهذا لا يعني أنهم لا يصدقون كتابات نقاد الصحف اليومية التي يقرؤونها حتما ، لكنهم يحتفظون بحقهم ليحددوا بأنفسهم موقفهم من المسرحية .

وتكون نسبة الحضور بحدود ٩٠ بالمائة ويكون التصفيق هو التعبير عن أنهم أمضوا أمسية جيدة ، يغادرون بعدها المسرح ببطء وعلى مضض ويقفون بدوائر يناقشون انطباعاتهم ، وبعد قليل تكتظ بهم حانات البيرة والمقاهي بشارع ماكسيمليان . الطقس دافئ ورطب وثمره يعود تقصف فوق الجبال البعيدة ، وحركة المرور صاخبة ، فأقف قلقا ومثارا أنتشق روائح الطعام وأدخنة عوادم السيارات وعبير الحقائق المبللة ، واستمع إلى وقع آلاف الخطوات واللغة الأجنبية الغريبة وأقول لنفسي : « لا شك أنني في بلد أجنبي » .

وفجأة أشعر بالحنين الى جمهوري الخاص الذي يصفق بلطف
ويغادر المسرح بسرعة وكان النار قد شبت فيه .

كان استقبالي الاول في ميونخ رائعا ، فأشروعوا أيديهم مرحبين بي .
إنه برغمان الذي فر هاربا من جحيم الاشتراكية في الشمال ووجد
ملاذه في مجتمع بافاريا الديمقراطي ، حيث عانقه بحب فرانس -
جوزيف شتراوس .

في حفلة خاصة اقيمت على شرفي ، التقطت لي صورة مع شتراوس
استخدمها لاحقا في حملته الانتخابية . وتنازلت حفلات التكريم واحدة
تلو الأخرى ، وكان فيلم (الناي السحري) يجتذب الجمهور في واحدة
من أكبر دور العرض السينمائية بالمدينة ، وقدم التلفزيون (مشاهد
من حياة زوجية) والحقه بمقابلات ونقاشات حادة . حاولت بدوري
أن أبادل هذه النوايا الطيبة بجهود حثيثة لأن أكون لطيفا مع الجميع ،
الى أن لاحظت متأخرا أن المجتمع البافاري مجتمع مُسيّس ، تفصل
بين أحزابه وزمره حواجز عالية .

خلال فترة قصيرة للغاية نجحت في أن أبدو أحمق .

دخلت مسرح اليزدانز حاملا مبادئ وأفكارا تشكلت وتطورت
عبر حياتي المهنية الطويلة في تلك الزاوية من ضاحية العالم ، وارتكبت
خطأ شنيعا بمحاولة تطبيق النماذج السويدية على الظروف الألمانية ،
فأمضيت وقتا طويلا وجهودا كبيرة في محاولة جعل عملية اتخاذ
القرارات في المسرح أكثر ديمقراطية .

كان هذا غباء مني .

كنت اندفع الى اجتماعات الشركة واقترح فكرة المجلس الإداري
المؤلف من خمسة ممثلين ، لكن المشروع لم ينجح في البداية ، ويجب

الإشارة في هذا السياق الى أنه لا يوجد مجلس ادارة في مسرح بافاريا الوطني الذي تديره بشكل مباشر وزارة الفنون ، وعن طريق شخصية مفرورة يصعب الوصول إليها أكثر من امبراطور الصين .

وأخيرا بعد صراع طويل مع الشركة تم اعتماد فكريتي وتشكل المجلس الاداري الاستشاري وياشر أعماله ، وعندئذ لاحظت ذلك الوحش المخيف الذي استطعت أن أخلقه في داخلي ، لقد خرجت الى النور تلك الكراهية التي تراكمت وتقيحت عبر السنين ووصل معها الاحساس بالخوف والذل الى درجة لا توصف . لقد أصبحت المكائد ، التي يصعب في السويد تصور حدوثها حتى في كواليس الكنائس ، أمرا يوميا ومألوفا .

كان مدير مسرحنا في السبعين من عمره ، وقد جاء من فينا . وكان ممثلا باهرا ومتزوجا - لسوء حظه - من ممثلة جميلة ولكن أقل موهبة منه ، حاولت التعويض عن ذلك بأن أصيبت بجنون العظمة وبدأت تتصرف بلا وعي وتحوك المكائد . وتكافح مع زوجها ليشقا الطريق سوية عبر مذلة وعظمة المسرح الألماني .

وعاش المدير متوهما انه يستطيع ادارة المسرح بحكمة أبوية ، لكن مجلس الممثلين المشكل حديثا قوض أوهامه بقوة ، ولأسباب واضحة عدني المدير شخصا مدمرا لعلاقة الحب بين الأب وطفله ، وأكثر أعدائه ضراوة فبدأ يحاربني ، تسانده بكل طاقتها زوجته التي كانت تؤدي دور أولغا في مسرحيتي (الشقيقات الثلاث) ، والتي كانت تضايقني بطريقة حديثها التي ربما اعتقدت أنها مشيرة جنسيا ، حتى أنني نصحتها أخيرا بأن تواظب على دروس الالتقاء ، فلم تغفر لي نصيحتي أبدا .

واحتد الصراع بيني والمدير واتخذ طابعا قاسيا وفظا ، وأصبح أكثر مأساوية لأن كلاً منا كان معجبا بالآخر فيما مضى .

وكانت النتيجة ان عاش المسرح في حالة من التوتر واللاجدوى ، وقد نسيت اثناء تطلعي الدائم الى الأفضل ، أمرا أساسيا وهو أن هؤلاء الممثلين يفتقدون الاحساس بالامان ، فكان خوفهم مفهوما وشجاعتهم لا تصدق .

• طردت من العمل في حزيران ١٩٨١ .

شغبت أعمالي من جداول العروض وأبعدت عن المسرح ، ورافق ذلك اتهامات واهانات سربت الى الصحافة ووزارة الفنون . ولا أريد ان أقول : إنني عوملت بغير نزاهة ، لأنني لو كنت مديرا للمسرح لأقدمت على الخطوة نفسها ولكن في وقت مبكر .

عدت الى العمل بعد ستة أشهر مع تولي مدير جديد ادارة المسرح إثر فوزه بحملة انتخابية سياسية وصحافية شنيعة ، غير مقنعة في مجتمع منفتح مثل بافاريا . وكانت نتائجها مثيرة لأي شخص من خارج المسرح لكنها مذلة ومرعبة للضحايا في داخله .

من حماقاتي الأخرى انني قطعت كل صلة ممكنة مع صحافة ميونخ ورفضت مقابلة أي من النقاد مهما كان حجمه ، وكان هذا خطأ آخر ارتكبه ، لأن وجود تفاعل معين بين الضحية والجلاد يعتبر عاملا مهما في لعبة التمجيد والذل البافارية ذات الطقوس الصارمة .

ذات مرة قال صديقي أرلند يوزفسن إن الانسان يجب أن يكون حذرا أثناء تعرفه على الناس لأنه قد يبدأ بحبهم . هذا ما حدث لي تماما . أعجبت بالكثير من زملائي وكان من المؤلم فك الارتباط معهم ، هذا الارتباط الذي كان سببا في إرجاء رحيلي سنتين على الأقل .

لم أعرف في حياتي كلها صحافة سيئة مثل التي عرفتھا خلال السنوات التسع من وجودي في ميونخ ، حيث قوبلت مسرحياتي وأفلامي

ومقابلاتي وأي ظهور آخر لي بالاهانات والازدراء ، مع وجود بعض الاستثناءات بالطبع .

توجد توضيحات لذلك : فأعمالي الاولى لم تكن جيدة بالقدر الكافي بل كانت تقليدية بطريقة مضجرة وأثارت قلقا وتشويشا ، وكنت أرفض وبشكل مبدئي أن أقدم شروحات حول أفكارى وأعمالي مما أثار مزيدا من القلق والازعاج .

لكنني تحسنت مع الوقت وكنت بحالة جيدة في معظم الأحيان ، ومع ذلك فقد وقع الضرر ، واتخم الناس بهذا الاسكندنافي غير المحتمل الذي يفكر كثيرا بنفسه ، ثم جاءني الدم وانهالت علي أصوات الاستهجان والازدراء بعد العرض الافتتاحي لمسرحية (الأنسة جوليا) ، وكانت تجربة مثيرة .

يجب على المخرج أن يقف مع الممثلين في نهاية عرض الافتتاح ليتلقى معهم تحية الجمهور . خرج الممثلون وقبولوا بالتصفيق وصيحات الاستحسان لكنني عندما خرجت إليهم أخذوا يصفرون ويستهجنون ، وماذا بوسعك أن تفعل ؟ لا شيء . يجب أن تبقى مكانك وتنحني مع ابتسامة مرتبكة وفي الوقت نفسه قلت لنفسي : « والآن يا برغمان هذا جديد بالنسبة لك ، ولكن لا بأس ان يكون الناس قادرين على الغضب . من أجل لا شيء » .

الجمهور يغضب ويصفق ، والنقاد يفضبون ويصفقون ، وأنا أحس النار تشتعل في رأسي والأرض تميد تحت قدمي . ما هذا الذي أراه وأسمعه ، هل هذا أنا - أم ؟

إن معظم الذي سقط فوق رأسي داخل المسرح الألماني لم يكن حرية مطلقة ، بل عصابة مطلقا .

ولكن في وسط هذه الفوضى كانت تزدهر تجارب مسرحية عظيمة .

شاهدت قبل سنوات فيلماً من الرسوم المتحركة لوالث ديزني ، يتحدث فيه عن بطريق صغير يحزن الى بحار الشمال ولكن ينتهي به المطاف الى مياه زرقاء دافئة عند شاطئ مليء بأشجار النخيل ، حيث يعلق صورة للقطب الشمالي على إحدى الأشجار ويبدأ ببناء قارب يعيده الى موطنه الذي يشعر بالحنين اليه .

انا أشبه هذا البطريق ، فأثناء عملي في مسرح الرزيدانز بميونخ كنت أفكر كثيراً بالمسرح الدرامي الملكي وأشعر بالحنين اليه والى لفتي الام وأصدقائي . وها انا عدت أتوق الى التحديات والمعارك الدامية .

في مثل سني يصبح المستحيل مهمازاً وحافزاً ، وأستطيع هنا أن أفهم شخصية البناء لدى إسبن ، والذي بدأ يصعد أدراج برج الكنيسة رغم معاناته من الدوار . إن المحلل النفسي قد يقول إن الدافع نحو المستحيل له علاقة بالفعالية المتقهقرة . وماذا بوسع المحلل النفسي أن يقول غير ذلك ؟

أعتقد أن لدي دوافع مختلفة ، فقد يكون للفشل طعم طازج وحاد ، وقد تعرض المحن مشاعر العدائية وتدفع بالحياة الى الإبداع الذي ربما كان ساكناً .

إن المستحيل مغرر ولا يوجد لدي ما أخسره .

وفي إحدى لحظات الغضب التي يرافقها وضوح بالرؤية ، أدركت أن مسرحي ينتمي الى الخمسينيات وأن أساتذتي ينتمون الى العشرينيات . هذه الفكرة جعلتني حذراً ومثقل الصدر . يجب أن أفضل المفاهيم المترسخة عن التجارب الهامة ، وأفند الحلول القديمة دون أن أحل محلها بالضرورة ، حلولا أخرى جديدة .

إن الحقيقة في أعمالنا مرتبطة بالزمن ، فانتاجنا المسرحي لا يلبث أن يختفي في الظلمة ولا يتبقى سوى لحظات خاصة من الإحساس

بالمعظمة أو البؤس . أما الأفلام فتعيش وتبقى شاهداً على تقلب الحقائق
الفنية القاسي .

عندما أصبح يوربيديوس ، والد المسرح ، عجوزاً ، نفي الى مقدونيا
حيث كتب آخر مسرحياته (باخوس) . بنى جداره حجراً بحجر ،
بغضب وضراوة ، فتعارضت المتناقضات مع المتناقضات ، والعبادة مع
التجديف بالله ، واليومي المتبدل مع الطقوس . كان قد سئم الأخلاقيات
ورأى أن اللعبة مع الآلهة انهارت تماماً ، وأنداك تحدث المعلقون عن سأم
وضجر الشاعر الطاعن في السن . لكن الأمر كان مختلفاً تماماً . إن بناء
يوربيديوس الخطير يقدم النوع البشري والآلهة والعالم في حركتهم
القاسية وغير المجدية تحت سماء فارغة .

إن (باخوس) تقدم شاهداً على الشجاعة في تحطيم القوالب .

* * *

عند غروب شمس يوم الثلاثاء ٢٧ كانون الأول عام ١٩٨٣ ، انقطعت الكهرباء عن مدينة استوكهولم بينما كنا نقوم بالبروفات لمسرحية (الملك لير) في غرفة فسيحة ومريحة بالدراماتن اجتمع فيها ستون شخصاً بين ممثلين وراقصين ومساعدين .

كان الملك المجنون واقفاً في وسط الخشبة محاطاً بكل انواع الرعاع ، مشيراً الى أن الحياة مسرح للحمقى ، عندما انقطعت الكهرباء في تلك اللحظة عينها فضحك الجميع ، كانت الريح تضرب ندف الثلج بزجاج النوافذ التي تسلل عبرها الى غرفة البروفات ضياء رصاصي . اتصل احدهم بواسطة الهاتف الداخلي واخبرنا بأن المدينة كلها غارقة في الظلام .

اقترحت أن ننتظر قليلاً فلا يمكن أن تقطع الكهرباء عن المدينة لأكثر من دقائق ، جلسنا على الأرض والكراسي نتبادل الأحاديث بهدوء ، وانسحب المدخنون المدمنون الى غرفة الانتظار ، لكنهم ما لبثوا أن عادوا بسبب الظلام الدامس هناك .

انقضت الدقائق وبدأ يتلاشى ما تبقى من ضياء النهار الرمادي . وكان الملك لا يزال واقفاً بثيابه ومتوجاً بإكليل من الأزهار ، شفتاه تتحركان ، يده تحسب الزمن وعيناه مغلقتان . أما غلوستر فكان واقفاً يغطي عينه المفقوءة برباط ملطخ بالدم ويتمم بشيء ما حول سمك الرنكة المقلبي . جلس بعض الراقصين في الزاوية يستمعون الى تهكمات البني الذي كان يحمل سيفاً ويرتدي بذلة رياضة ، ويضحكون أحياناً بسعادة ولكن بتحفظ ، فالجو في الغرفة لم يكن ساراً .

نزع ادغار نظاراته وبدأ يتحدث الى مدير الخشبة الذي كان يدون ملاحظاته ، في حين استلقى ايرل أوف كنت على الأرض وكأنه يعاني من آلام بالظهر أو متاعب صحية لعينة أخرى ، واشعلت كورديليا الجميلة شمعة وأخذت تطوف بها في عتمة غرفة الانتظار باحثة عن سيجارة .

مضت نصف ساعة ، ازدادت قوة العاصفة الثلجية وخيم الظلام على زوايا الغرفة البعيدة ، فتجمع قائد الفرقة الموسيقية وبعض الشباب والشابات ذوي الأصوات الجميلة وجلسوا في وسط الغرفة حول خمس شموع مضاءة وانشدوا قصيدة غزالية .

صمت الباقون وأنصتوا . كانت أصوات الفناء تطوف حولنا بلطف، والعاصفة تعوي خارجاً ولا اثر لضوء في الشارع . لامست الأغنية مشاعرنا وأصبحت وجوهنا غير واضحة . لقد توقف الزمن وكنا هنا ، عميقاً في عالم كان قريباً ودائماً هنا . كنا بحاجة الى قصيدة غزلية وعاصفة ثلجية ومدينة بلا كهرباء . في مهنتنا هذه كنا نلعب كل يوم مع الزمن ، فنمده أو نقصره أو نوقفه ، وقد توقف الآن من تلقائه . . . إن الزمن هش وها هو الآن يتلاشى تماماً .

كان (الملك لير) قارة بحد ذاتها ، تزودنا لاستكشافها بمهارات مختلفة وبخريطة لمروج ونهر وشواطئ وجبل وغابات . وكنا أحياناً نصطدم بعضنا ببعض أثناء تجوالنا ونكتشف بيأس أن ما كان جزيرة بالأمس أصبح جبلاً اليوم . رسمنا خرائطنا ، ناقشناها ووصفناها لكنها لم تنجح . في البداية كان كل شيء منتظماً ثم انقلب الى فوضى وكارثة كونية .

كنت أعرف ماذا يحدث : فقد جربت الدراما واختبرتها بأعماق روحي . كيف يمكن أن أوظف خبرتي بحيث يستطيع الك أن يهدم حواجزه المحصنة ضد الفوضى والانحلال .

لكن عروضنا يجب ألا يثقلها العمق الزائد : يجب أن تكون رشيقة ومنبسطة ومفهومة . لا يوجد لدينا نحن السويديين أية خبرة أو أية تقاليد شكسبيرية . لدينا تعاليم مدرسية سيئة . هل يمكن أن تحل الرغبة محل التقنية ؟ أو هل نموت في مستنقع هذا الكم الهائل من الكلمات ؟ نحن الذين مارسنا فقط حوار سترندبرغ المباشر والذي يقف على قدميه . هل يستطيع ممثلون عاديون أن يعبروا عن ألم غلوستر المزدوج وغضب كنت الزائف وجنون ادغار المدعي وشيطانية ريفان ؟

شقت بعثتنا طريقها عبر الحرارة اللافحة وكنا نتصب عرقاً . وفجأة تسقط الشمس مثل حجر متوهج ويسود الظلام وندرك أننا في مستنقع لا نهاية لأعماقه . أياماً وأياماً : كانت هذه لحظة الحقيقة ، نقطة ثابتة ، وأخيراً نستطيع أن نكون منهجين بهدوء . المسافة من هناك الى هناك متران وسبعون سنتمراً . نسجل ذلك . يفضل أن نقيسها ثانية . إنها الآن أربعة عشر ألف متر !

والمخرج والممثل والناقد ، كل منهم يرى (الملك لير) بطريقة مختلفة ، أحياناً بضباية وأحياناً أخرى بوهم ، كل وفق حدسه وشعوره الذاتي .

أرى وأدرك أنها لحظة انتصار : فالיום لم ينقض عبثاً وحياتنا المترددة اكتسبت معنى ولوناً .. يا للروعة .

* * *

قال احدهم إنني يجب أن اكتب عن أصدقائي ، وهذا غير واقعي إلا إذا كان المرء طاعناً في السن ، وأصداؤه قد غادروا الحياة ، وإلا فإنه سينتهي الى توازن غير دقيق بين الطيش وكتم الأسرار .

ذات مرة كتب أحد الأشخاص مذكرات مفصلة قرأتها عشيقته السابقة فذهبت الى الحمام وتقيات ، ثم طالبتة بحذف اسمها فوافق لكنه في الوقت نفسه ألغى كل آرائه الإيجابية عنها وأبقى السلبية فقط .

الصداقة مثل الحب ، وجوهر الصداقة يقوم على الصراحة والعاطفة والصدق . من المريح أن ترى وجه صديقك أو تسمع صوته بالهاتف وتحدث معه حول أمور مؤلمة وملحة ، وتسمعه يعترف بما يخشى التفكير به . إن للصداقة لمسة من الحسية ، فشكل الصديق ووجهه وعيناه وشفته وصورته وحركاته ونبرة صوته ، كل هذا محفور في ذهنك ، مفتاح سري يمنحك الثقة لأن تبوح بنفسك في صداقة حقيقية .

إن علاقة الحب تنفجر متحولة الى صراعات لا يمكن تفاديها ، أما الصداقة فلا تحتاج الى الرغبة نفسها من الاهتمام والتعقيم . في أحيان كثيرة يلتصق الرمل بين أسطحه التواصل القابلة للخدش ويلبي ذلك الأسف والصعوبات . أفكر وأقول لنفسي إنني أستطيع تدبير أموري جيداً دون هذا الأحمق ، ثم يمضي بعض الوقت ويظهر إحساس غير سار بفقدان هذا الشخص ، إحساس يعبر عن نفسه بمستويات مختلفة ، واضحة أحياناً ومكتومة غالباً .

الصداقة لا تعتمد على الوعود والاحتجاجات أو على الزمان والمكان .
الصداقة غير متطلبة إلا في أمر واحد . إنها تتطلب الصدق ، وهو مطلبها
الوحيد ، ولكن الصعب .

كتب احد اصدقائي من الممثلين دراما اذاعية رائعة المستوى فسألته
إذا كان بإمكانني أن أخرجها . بعد بضعة أشهر عرضت عليه أن يؤدي
دوري الشبح والعازف الأول في (هاملت) والاحتد النقاش بيننا ، ثم
خذلني . شعرت بالفضب وقلت له إنني في هذه الحالة لن أخرج
مسرحيته الإذاعية ، فأصيب بالصدمة وأجاب إنه لا يرى الصلة بين
الأميرين ، والتي كانت واضحة بالنسبة لي . وبعد أخذ ورد أنهينا
خلافاتنا دون أن يبدل أحدنا مواقفه ، لكن صداقتنا كانت قد تأثرت .

كان أحد اصدقائي من الشخصيات الاجتماعية والسياسية الناجحة
يعيش حالة خوف عصابي من كل أشكال العدائية المباشرة . وكنت أحب
أن أستمع اليه لأنه يعلمني أشياء كثيرة . ومنذ سنوات حاضرتي طويلاً
عن مستواي المتذبذب في سوق الفيلم العالمي ، الشيء الذي كنت أعرفه
أكثر من أي شخص آخر ، وفي المرة الأخيرة التي عاد يتحدث فيها عن
الموضوع نفسه انفجرت غاضباً ونصحته بعبارة غير مباشرة أن يصمت
ويذهب الى الجحيم ، ثم اقتضى الأمر سنوات أخرى حتى استطعنا
استعادة صداقتنا .

وبشكل عام لا أوهم عندي بشأن موهبتي للصداقة . أنا مخلص
للغاية لكنني مرتاب جداً . وإذا فكرت بأن أحداً خانني فإنني أرد له
الخيانة بسرعة ، وإذا قاطعني أحد أقاطعه فوراً . إنها موهبة مشكوك
بأمرها وذات طابع برغماني بحت .

أجد صداقة النساء أكثر سهولة . فالصراحة واضحة (كما أحب أن
أعتقد) لا مطالب فيها (كما أمل) . الاخلاص غير قابل للخدش (كما
أتصور) . الحدس يتحرك بلا تحامل أو ضرر ، العواطف غير مقتنعة أو

متنكرة ولا دخل للصيت والشهرة . الصراعات التي تنشأ غير معدية .
لقد رقصت معهن في كل وجهة ممكنة : المعاناة ، الحنان ، العاطفة ،
الحماقة ، الخيانة ، الغضب ، الكوميديا ، الملل ، الحب ، الأكاذيب ،
المتعة ، الفيرة ، الزنا ، تجاوز الحد ، الوفاء ، وهناك المزيد أيضاً :
الدموع ، الشهوانية ، الشهوانية المجردة ، الكوارث ، الانتصارات ،
المتاعب ، الأذى الجسدي ، القلق ، الوخر بالدبايس ، الخصيتان ،
المني ، النزف ، الرحيل . ويستحسن أن ننتهي من هذا قبل أن نصل
الى آخر السكة ، فهناك أيضاً العنة ، الفسق ، الرعب ، قرب الموت ،
الموت نفسه ، الليالي ، الليالي البيضاء ، الليالي المؤرقة ، الموسيقى ،
الإفطار ، الأنداء ، الشفاه ، الصور . والآن ندير الكاميرا باتجاه آخر
لنرصد خليطاً آخر من الصور : الجلد ، الكلب ، الطقوس ، لحم
الحوت ، المحار سيء الطعم ، الاغتصاب ، الملابس الأنيقة ، المجوهرات ،
اللمسات ، القبلات ، الأكتاف ، الأرداف ، الأضواء ، الشوارع ، المدن ،
المنافسة ، المفريات ، المشط في الشعر ، الرسائل الطويلة ، الشروحات ،
كل الضحك ، التقدم بالسن ، الرماد ، الأيدي . وتأتي المنطقة الآن الى
نهايتها : الظلال ، الرقة ، شاطئ البحر ، البحر .

والآن يسود الهدوء ، وانظر الى ساعة والدي الذهبية القديمة ذات
الزجاج المكسور ، والموجودة أمامي على المكتب . إنها تشير الى الثانية
عشرة إلا سبع دقائق .

كلا ، لن اكتب عن أصدقائي أو زوجتي انفرادي . هذا مستحيل .

منذ سنوات اخرجت فيلماً غير ناجح تماماً يدعى (حب مع
العاشقين) ، عبارة عن بانوراما للحياة في ألمانيا الغربية ، ثم مات الفيلم
بشكل طبيعي لكنني نحت منه شريحة أصبحت فيما بعد فيلماً تلفزيونياً
بعنوان (من حياة الدمى) أعده واحداً من أهم أفلامي ، وهو رأي
يشاركني فيه قلة .

ويوجد في سيناريو الفيلم حكاية مأخوذة عن أوفيد حول الآلهة التي تنكرت ونزلت الى الأرض لترى كيف يعيش الخلق . وذات امسية ربيعية باردة وصلت الآلهة الى مزرعة مهملة عند شاطئ البحر حيث يعيش رجل عجوز وزوجته ، فيدعونها للعشاء وقضاء الليل . وفي الصباح تابعت الآلهة طريقها بعد أن سمحت للعجوزين بالتعبير عن أملهما الوحيد بالألا يفرق الموت بينهما . استجابت الآلهة لرغبتهما وحولتهما الى شجرة واحدة كبيرة تظلل المزرعة .

نعيش أنا وزوجتي سوية ، وإذا فكر أحدنا بأمر فإن الآخر يجيبه . لذلك لا توجد لدي أية وسيلة لوصف هذه الصلة الروحية .

ولكن ثمة مشكلة لا يمكن حلها ، ففي يوم ما سوف نفترق ، ولن توجد الآلهة الطيبة التي ستحولنا الى شجرة تظلل المزرعة . إن لدي موهبة في تخيل معظم مواقف الحياة فأنا أكدح في حدسي وخيالي ومشاعري .

ومع ذلك فإنني أفنقر الى وسائل تصور لحظة الفراق ، وبما انني لست قادراً ولا راغباً بتصور حياة أخرى وراء الآفاق ، فإن تلك اللحظة تبدو مروعة . سوف أتحوّل من شخص ما الى لا أحد على الإطلاق ، وهذا اللا احد لن تكون لديه الذاكرة لاية صلات روحية .



عندما ذهب والدي الى فارموس لقضاء اجازته في منتصف شهر تموز ، كان يبدو متعباً وقلقاً ، فأمضى وقته يسير وحيداً في الغابات وينام في مخازن الحبوب .

وذات يوم احد كان متوجهاً لإلقاء موعظة في كنيسة امسبرغ . وكان الصباح رعدياً ومغماً انتشرت خلاله فوق التلال سحب زرقاء قائمة .

وكان قد تقرر منذ مدة طويلة ان اصطحب والدي في رحلته هذه فوضعتني امامه على الدراجة وثبت خلفه صرة الطعام وحقيبة تضم غفارته . كانت قدماي عاريتين ، وأرتدي بنظالا أزرق قصيراً وقميصاً لونه باهت ووضعت رباطاً حول معصمي بعد ان لسعنتني بعوضة وتورم موضع اللسعة . اما والدي فكان يرتدي بنظالا أسود وجزمة سوداء ورباط وقميصاً أبيض وقبعة بيضاء وسترة صيفية .

أستطيع ان أؤكد هذا لانني عثرت مؤخراً على صورة ، وفيها تقف غرترود ، صديقة العائلة الشابة ، في الخلفية ، تنظر الى والدي بحب وتبتسم بغيظ ، وكانت المفضلة بالنسبة لي لان الامور تتحسن بوجودها فتجمل والدي يضحك دائماً وتلطف مزاجه . ويمكن رؤية جدتي في طريقها الى المرحاض ، وشقيقي منكباً على إحدى الوظائف اللعينة وشقيقتي نائمة وانا في حوالي الثامنة من العمر . وكانت أمي تمسك الكاميرا وتحب التقاط الصور .

اجتازنا منحدر الغابة المزروع بالصنوبر ، عبر روائح الصمغ والطحالب ، ومررنا بجانب حديقة مزروعة بالفروالة . وكان شقيقي ورفاقه من دار الارسالية قد قاموا منذ اسابيع بسرقة الفروالة وهرسها على ملاءات السيدة تورنكفيست . واشتبه بنا جميعاً ، ثم اطلق سراحنا لعدم وجود الأدلة .

في أحد الأيام دلى شقيقي أمام انفي دودة تستخدم لصيد السمك وقال لي : « إذ أكلتها اعطيك خمسة أورات » . تدبرت أمري واكلت الدودة وبعد أن ابتلعته نهائياً قال لي : « ما دمت أحقق لدرجة أنك تأكل الدود فلن اعطيك الأورات الخمسة » .

كان يسهل خداعي ، وكنت أعاني من زائدة أنفية واتنفس غالباً عن طريق فمي الذي يبقى مفتوحاً فيجعلني أبدو كالابله .

وفي مرة أخرى قال لي شقيقي : « خذ مظلة جدتك واصعد بها الى الشرفة . والآن افتحها . اقفز وسوف تطير » . كنت غيباً للنهاية فبكيت بغضب لا لأنني خدعت ولكن لأنني لم أطر بواسطة مظلة جدتي .

وذات يوم قالت لي لالا العجوز : « انت ولدت يوم الاحد يا انفمار وتستطيع أن ترى الجنيات ، ولكن لا تنسى أن ترفع غصنين أمام عينيك » .

لا اعرف الى أية درجة كانت لالا تؤمن بما تقوله ، لكنني لم أشاهد جنيات بل رجلاً رمادياً صغيراً ذا وجه كرية يمسك بيد فتاة لا يزيد حجمها عن حجم اصبعي ، أردت أن أمسك بها ، لكنها اختفت هي والقزم .

عندما كنا نقطن فيلا غاتن كان يأتي لزيارتنا موسيقيون جوالون فيعزفون ويمضون ، وذات يوم جاءت عائلة كاملة منهم فدخل والذي

الى غرفة الطعام وقال : « لقد بعنا انفمار للفجر وحصلنا على سعر جيد » . بدأت أنتحب من الرعب وانفجر الجميع ضاحكين فأخذتني اُمي الى احضانها وداعبت رأسي برفق وقد دهشت لكوني ساذجاً الى هذه الدرجة : « إنه يخدع بسهولة وليست لديه روح دعابة » .

وصلنا الى مكتب البريد في قمة الهضبة ونزلت عن الدراجة وتابعت الطريق سيراً على الاقدام . القينا تحية الصباح على ساعي البريد الذي كان في طريقه الى المحطة ليسلم البريد لقطار الصباح المتجه الى كريليو .

بعد الهضبة تابعنا الطريق صاعدين واجتازنا مزرعة برغلوندي الكبير ، من حيث كنا نأخذ الحليب ، ثم اجتازنا بيتاً تقطنه الاشباح ، وبيت الإرسالية حيث يعيش عدد من الاطفال الذين يعمل آباؤهم في بعثات تبشيرية لصالح الله في حقول افريقيا . وكانت تحكم هذا البيت مسيحية مبهجة دون قوانين أو إكراه ، وكان الاطفال يقضون أيامهم متجولين حفاة الاقدام ، ويتناولون وجبات الطعام عندما يشاؤون ، ويشاهدون مسرحاً بناه خصيصاً لهم بنفت فريكهولم نقلاً عن موديل موجود في إحدى المجلات المتخصصة بالعائلات .

وها نحن نعدو الآن باتجاه المنحدر المؤدي الى سولباكا . الطريق يمتد بمحاذاة النهر والشمس متوهجة والعجلات تصرصر على الارض المبللة بالماء ، والغيوم لا تزال فوق التلال . كان والدي يغني بصوت خافت وقطار الصباح يصفر بعيداً ، وفكرت بقطاري الموجود في البيت . فقد كان يمكن أن أكون هناك في هذه اللحظة ، أمد السكة في القبو المشوشب والهو وحدي . إن الرحلة مع والدي مشروع متقلقل لأنك لا تعرف كيف سينتهي ، فأحياناً يبقى مزاجه رائقاً طيلة النهار وأحياناً أخرى تتلبسه الشياطين فيصبح صامتاً ونزقاً .

وجدنا بعض العربات التي تقل الناس الذاهبين الى الكنيسة واقفة بانتظار المعديّة ، وكان هناك رجل مع بقرة فدرّة ومجموعة صبيّة في طريقهم للسباحة والصيد في جوبتارن .

وبدأت المعديّة عبورها الى الطرف الآخر وانشغل والدي بالحديث مع إحدى النساء ، فجلست عند الحافة وأسقطت قدمي في الماء البارد كالثلج رغم حرارة الصيف .

منذ طفولتي أرى النهر في أحلامي دائماً .. يجري ملتفاً وقائماً مثل نهر غرادا أسفل جسر السكة الحديدية حيث تمتد جذور أشجار جار الماء والبتولا ، ثم تضيئه الشمس للحظات وعندما تختفي يعود اشد قتامة من قبل ويمضي بحركته الأزلية تجاه المنعطف .

كنا نذهب أحياناً لنسج قريباً من ضفة النهر ونأخذ الطريق المنحدر من فارموس عبر بناء المحطة وطاحونة برغلوند ، وكنا نقفز الى الماء من طرف خشبي موثق الى الضفة باحكام ، وذات مرة وجدت نفسي أغوص تحت الطوف ولا أعرف كيف أعود الى السطح ، لكنني لم أشعر بالخوف وفتحت عيني فشاهدت الأعشاب المائية تتراقص أمامي وفقاعات الهواء تتصاعد من فمي والأسماك الصغيرة تتوارى بين الحجارة . بعد ذلك اذكر أنني كنت ممدداً على الطوف اتقيماً ماءً ومخاطاً والجميع حولي يتحدثون بوقت واحد .

لكنني الآن اجلس على حافة المعديّة ابرد أخصص قدمي واداوي لسمات البعوض . وفجأة رفعتني أحدهم من كتفي ودفعني إلى الخلف وهوى بضربة قوية على رأسي . ووجدت والدي يصيح غاضباً : « أنت تعرف بأن هذا ممنوع ، الا ترى كيف يمكن أن تسقط إلى الأسفل » . وضربني من جديد . لم أبك لكنني امتلأت كراهية . هذا السفاح اللعين الذي يضرب دائماً . سوف اقتله . لن أصفح عنه ، وعندما نعود

إلى البيت سأفكر بموت مؤلم له وسوف يتوسل الرحمة وأسألمه
بصرخ فزعاً .

وصلنا الشاطئ ، وأجرت العربات بعيداً ، وودع والذي الناس .
كان يجد سهولة دائمة في التحدث إليهم . ابتسم الصبية بازدياد ومضوا
وأخذ الرجل العجوز يصعد المنحدر مع بقرته القدرة .

قال والذي بصوت ودود : « تعال الآن يا بني » . لكنني لم أتحرك
وأشحت بوجهي وكدت أن أبكي بعد أن سمعت صوته الودود . اقترب
مني قائلاً : « لا بد أنك رأيت كم كنت خائفاً عليك . كان يمكن أن تفرق
دون أن ينتبه أحد إليك » .

ومد يده الكبيرة يبحث عن يدي فزال غضبي ببرهة سريعة . لقد
كان خائفاً . هذا مفهوم . إذا كنت خائفاً فسوف تغضب . استطيع
أن أفهم هذا . إنه لطيف الآن . لقد ضربني بقسوة لكنه يشعر بالندم .

كان المنحدر شديداً ، فساعدت والذي على دفع الدراجة
إلى القمة وهناك كان الحر ينتصب مثل الجدار ولا يوجد اثر لنسمة باردة .

دخلنا ساحة الكنيسة عندما كانوا يعلنون الساعة العاشرة تماماً .
كانت ساحة الكنيسة مظلمة وبعض النساء المتشحات بالسواد يسقين
زهور الأضرحة . وكان الجو لطيفاً داخل الأروقة . لحق أمين الكنيسة
الذي كان يقرع الأجراس بالوادي الى غرفة المقدسات حيث يوجد حمام
وابريق ماء داخل الخزانة . نزع والذي قميصه واغتسل ، ثم ارتدى
قميصاً نظيفاً وياقة ورداءه الكهنوتي وجلس إلى طاولة يكتب الأرقام
الأناشيد على ورقة . بعد ذلك قمت وأمين الكنيسة بتوزيع الأرقام في
الكنيسة دون أن يحدث أحدنا الآخر اثناء هذه المهمة ، لان الرقم الخاطيء
كان يعني كارثة .

كنت أعرف أن والدي يود البقاء وحيداً بعض الوقت فخرجت إلى
الساحة وقرأت الكتابات على الأضرحة في مقبرة الاطفال . كانت قبة
السماء بيضاء والحرارة تبرص بلا حراك . ثمة نحل شديد الطنين .
بعوضة . خوار بقرة . أشعر بالنعاس . أغفو لبرهة . أنام .



أثناء التحضير لفيلم (ضوء الشتاء) كنت أتجول في كنائس أوبسالا،
وأمضي فيها ساعات طويلة أراقب حركة الضوء بداخلها وأفكر بنهاية
الفيلم . كل شيء كان جاهزاً باستثناء النهاية .

ذات يوم ، وكان الأحد ، اتصلت بوالدي وسألته ان كان يرغب
بالخروج معي ، فأمي كانت ترقد بالمستشفى بعدما داهمتها أزمة قلبية
وبقي هو وحيداً في البيت وقد ساءت حالته الصحية وأصبح يرتدي
حذاءً طبيًا مقوماً ويسير مستنداً إلى عكاز ، لكنه بقوة إرادته ونظامه
الذاتي الصارم استمر بواجباته في أبرشية القصر الملكي ، ، وكان في
الخامسة والسبعين .

كان صباحاً ربيعياً وضبابياً . وصلنا في الوقت المحدد الى كنيسة
صغيرة تقع شمال أوبسالا ، ووجدنا أربعة أشخاص يجلسون أمامنا على
المقاعد الضيقة ينتظرون بدء الصلاة . كان أمين الكنيسة وحامل
الصولجان يتهاوسان في الرواق ، وعازفة الاورغن في العلية تبحث عن
شيء ما . تلاشى صوت الجرس الذي يدعو للاجتماع ولم يظهر الكاهن
بعد . ساد صمت طويل ، وكان والدي يفعم بقلق . مضت بضعة دقائق،
ثم سمعنا صوت سيارة مسرعة تتوقف خارجاً وصوت اغلاق الباب
بعنف ، وشاهدنا الكاهن يدخل الكنيسة لاهئاً .

وعندما صعد الى المذبح تلفت حوله ونظر الى رعاياه بعينين حمراوين،
وكان رجلاً نحيلاً طويل الشعر . لوح بذراعيه كمن يتزحلق على الثلج

وسنفل ، ثم قال : « انا مريض ، حرارتي مرتفعة ولدي رعشة » . وبحث عن تعاطف في اعيننا ، وتابع : « لدي اذن بأن تكون الصلاة قصيرة ولكن من دون المشاركة لهذا اليوم ، سأعظ بأفضل ما أستطيع وسنشد أغنية وهذا كل شيء ، أما الآن فسأذهب الى غرفة المقدسات وأضع ردائي الكهنوتي » . وصدق للحظات دون أن يحسم ذهابه ، وكأنه ينتظر تصفيقا أو استحسانا أو دلائل استيعاب لكلماته . وعندما لم يجد ردة فعل من أحد استدار واختفى وراء الباب الضخم .

نهض والذي عن مقعده . كان يشعر بالضيق . « دعني امر ، يجب ان اتحدث الى هذا المخلوق » أفسحت له المجال فمضى باتجاه غرفة المقدسات وهو يستند الى عكازه بصوابة . بعد ذلك دار نقاش عنيف بالداخل .

ظهر امين الكنيسة ، وابتسم بحرج وأوضح ان المشاركة ستكون بعد الصلاة ، وان زميلا مسنا سوف يساعد الكاهن .

أنشدت عازفة الأورغن والحاضرون لحن المقدمة ، وخرج والذي برداء كهنوتي ابيض ، وعندما انتهى اللحن بدأ والذي يتحدث بصوت حر وهادىء .

وهكذا حصلت على نهاية فيلم (ضوء الشتاء) ، وعلى قاعدة ما زلت اتبعها حتى اليوم : يجب ان تلمسك بمشاركتك بصرف النظر عن أي شيء . هذا مهم بالنسبة لرواد الكنيسة ، وأكثر أهمية بالنسبة لك انت .



نمت جيدا على المقعد الطويل المظلل ، وأفتت على قرع الأجراس فتوجهت الى الكنيسة حافي القدمين ، حيث أمسكتني زوجة الكاهن ودفمتني لأجلس بجانبها تحت منبر الوعظ مباشرة رغم أنني كنت راغبا

بالصعود الى علية الاورغن . وفجأة شعرت برغبة للذهاب الى الحمام وادركت أن محنتي سوف تطول (ان صلوات الكنائس والمسرحيات السيئة تستمر أكثر من أي شيء آخر بالعالم ، واذا شعرت بأن الحياة تمضي بسرعة كبيرة فاذهب الى الكنيسة او المسرح . عندئذ سوف يتوقف الزمن وتظن أن ساعتك لا تعمل جيدا ، وكما يقول سترندبرغ في (العاصفة) : ان الحياة قصيرة ، لكنها قد تكون طويلة اثناء استمرارها » .

مثل كل رواد الكنيسة في كل العصور استغرقتني تفاصيل المذبح والالواح الثلاثية والصليب وزجاج النوافذ الملون واللوحات الجدارية التي أرى فيها المسيح والعذاب ومريم والقديس يوحنا ومريم المجدلية، والفارس يلعب الشطرنج مع الموت ، والموت ينشر شجرة الحياة وساحر شرير يفرك يده . الموت يقود الرقصة الى أرض الظلمات ويستخدم منجله كالراية ، ورعايا الكنيسة يقفون في طابور طويل والشياطين تترك قدور الماء تغلي ، والخاطئون يندفعون الى الأعماق ، وآدم وحواء يفطيان عورتيهما . لا وجود لبقعة خالية في الكنيسة ، فالناس يملؤونها ، والقديسون والأنبياء والملائكة والشياطين ، كلهم احياء يلعمون على الجداريات . الواقع والخيال ينبثقان في صنع اسطوري قوي .

عندما عملت مدرسا في مدرسة مالمو للدراما كان يجب أن نقدم عرضا لكننا لم نعرف ما هو ، وعندئذ فكرت بتلك الجداريات التي رأيتها في طفولتي ، وخلال أيام كتبت مسرحية بعنوان (الرسم على الخشب) ووجدت فيها دورا لكل طالب .

وبالتدريج تحولت : (الرسم على الخشب) الى (الختم السابع) ، وهو فيلم متفاوت المستوى لكنه قريب الى قلبي لأنني أخرجته في ظروف صعبة ومع دفق من الحيوية والبهجة ، ويستطيع المشاهد أن يلمح في مشهد الغابة السوداء حيث تُعدم الساحرة ، من بين الأشجار ، النوافذ

العالية لضاحية قريبة من الاستوديو ، أما مشهد موكب الضارين أنفسهم بالسوط فتم تصويره في موقع مهجور شيدت عليه فيما بعد معامل التحميص التابعة للاستوديو .

اقد صورنا لقطة رقصة الموت تحت الغيوم المظلمة بسرعة عجيبة لان يوم العمل قد انتهى بالنسبة للممثلين ، فارتدى المساعدون والفنيون والماكير ، بالاضافة الى زائرين لم يفهما أبدا ماذا كنا نفعل ، ملابس المحكومين بالموت ، ونصبت الكاميرا وصورت اللقطة قبل أن تتبدد الغيوم .



لم اكن أجرؤ على النوم أبدا اثناء مواعظ والدي في الكنيسة . كان يرى كل شيء . وحدث ذات مرة أن نام أحد أصدقاء العائلة اثناء صلاة الصباح في كنيسة مستشفى صوفيا همت ، فأوقف والدي طقوسه وناداه بوضوح وهدوء ، « استيقظ يا اينار ، ان الذي سيأتي له علاقة بك » ، ثم تحدث عن موضوع الاخير الذي يصبح الأول . وكان الهم اينار موظفا في ارشيف وزارة الخارجية ويطمح لاستلام منصب أعلى .

بعد انتهاء الصلاة قدمت القهوة في بيت الكاهن الذي كان له ابن سمين ذو شعر اصفر في مثل سني ، اسمه اوسكار ، وكان مشرا للقرف لاصابته بالاكريميا في فروة رأسه وتفوح منه رائحة ميبد للحشرات . سعدنا الى غرفة نومه التي حولها الى كنيسة فيها مذبح واعمدة شموع وصليب وقماش ملون ملصق على النوافذ وزاوية للأورغن ، خيرني اوسكار بين سماع موعظة أو لعب جنازة حيث كان يحتفظ بنعش طفل صغير في خزانة الثياب ، فقلت له انني لا أؤمن بالله ، فحك رأسه وقال ان وجود الله مثبت علميا ، وسرعان ما تشاجرنا ، وكان أقوى مني فأمسك بذراعي ولوaha وطالبني بالاعتراف بوجود الله . أحجمت عن

طلب المساعدة ، فمن المحتمل أن يكون أوسكار مجنوننا ولا يمكن التنبؤ
بما سيفعل ، واعترفت بسرعة أنني أو من بوجود الله .

بعد اعترافي جلس كل منا عابسا في احدى زوايا الغرفة ، ثم قلنا
وداعا وافترقنا . كان والدي قد حزم رداءه وأمتعته وارتدى قبعته
استعدادا لرحلة العودة . أراد الكاهن وزوجته أن تبقى حتى تمر
العاصفة فالشمس على حافة غيمة كثيفة ، ولكنها لا تزال مشعة
والحرارة تزداد مع اقتراب المطر . ابتسم والدي وشكرهما مؤكداً
بأننا سنجتاز العاصفة ولا بأس بقليل من المطر المنعش . ضمتني زوجة
الكاهن الى بطنها وكانت تفوح منها رائحة العرق ، وصافحني الكاهن ،
اما أوسكار فلم يكن له اثر في المكان .

واخيرا قفلنا عائدين . لم نقل شيئاً لكنني شعرت بأن والدي كان
مرتاحاً ، يردد لحنا ويقود الدراجة بسرعة .

وعندما اجتزنا المنعطف المؤدي الى جوبتارن اقترح والدي أن
نسبح قليلاً ، وكانت فكرة جيدة ، فاستدردنا الى طريق صغير ومضيئنا
باتجاه النهر .

نزعنا ثيابنا والقي والدي نفسه بالماء وأخذ يسبح ويلهث ، أما
انا فكانت حذرا وبقيت قريبا من الشاطئ ، فعمق النهر هنا بلا قرار .

بعدها جلسنا على الشاطئ نجفف أنفسنا بحرارة الشمس
الحارقة ، والحشرات الطائرة تطوف حولنا . كان لوالدي كتفان عريضان
وصدر مرتفع وساقان طويلتان وقويتان وقضيب كبير ، وجلد بلا شعر
تقريبا . جلست بين ركبتيه كما جلس المسيح مستندا الى الصليب ،
ولمحت وردة أرجوانية اللون وسألته عن اسمها فقد كان يعرف كل شيء
عن الورد والعصافير .

وعلى الرغم من تناولنا للطعام بوفرة في بيت الكاهن ، فقد أتينا على الشطائر التي كانت بحوزتنا .

بدأ الظلام يخيم تدريجيا ، وقامت مجموعة دبابير بهجمات سريعة على بقايا الشطائر ، ثم تكاثرت وتجمعت بحلقات فوق سطح الماء واختفت .

قررنا أن نتابع الطريق ..

* * *

عندما ترمل والذي اعتدت أن اذهب لزيارته وأتحدث اليه . وذات يوم كنت جالسا مع مشرف البيت أعالج معه بعض الأمور العملية ، فسمعنا صوت والذي وهو يجرجر قدميه في المر ويدق الباب ويدخل الغرفة ويحدق في الضوء الباهر وقد استيقظ من النوم اتوه . نظر الينا بدهشة ثم سألنا : « ألم تعد كارين بعد ؟ » . وفي اللحظة نفسها أدرك التشويش المؤلم الذي أصابه فابتسم بحرج . كانت أمي قد توفيت منذ أربع سنوات وقد جعل نفسه يبدو أحق بالسؤال عنها ، وقبل أن يجيبه احد منا بكلمة واحدة لوح بمصاه وعاد الى غرفته .

كتبت في دفتر يومياتي : « ٢٢ نيسان ١٩٧٠ ، والذي يحتضر . ذهبت لرؤيته أمس الأحد في مستشفى صوفيا همت فوجدته نائما يشخر ، وبجانبه اديت التي لا تفارقه أبداً . أيقظته اديت وغادرت الغرفة . همس بشيء ما ، وكان مستحيلا أن أفهم كلماته ، وافترضت أنه مضطرب قليلا ، وكنت أرى التحولات السريمة التي تطرا على تعابير عينيه : التحدي والتساؤل ، نفاذ الصبر والخوف ومحاولة للتواصل . وعندما نهضت لاغادر أمسك بيدي فجأة وتحدث بصوت غير واضح . كان يقرأ شيئا وأدركت أنها المباركة . والد محتضر يدعو الله ليبارك ابنه ! كل شيء حدث بسرعة ودون توقع . » .

« ٢٥ نيسان ١٩٧٠ ، والذي لا يزال على قيد الحياة لكنه غائب عن الوعي تماما ، وقلبه القوي لا يزال ينبض . اديت تعتقد بأنها تتواصل

معه بواسطة الـيدين . تتحدث اليه فـيرد عليها من خلال يده . . الامر غامض ومؤثر . انهما صديقان منذ الطفولة » .

« ٢٩ نيسان ١٩٧٠ ، مات والدي . رحل في الساعة الثامنة واربع دقائق من مساء يوم الاحد . كان موته هادئاً . وانتابني احساس يصعب تفسيره عندما رأيت وجهه ولم اتعرف اليه . كان وجه الموت . أفكر به من مسافة بعيدة يائسة ، ولكن بحنان . الأمور سيئة اليوم بالنسبة لبرغمان . اتوق الى أحد يلمسني ويباركني . الأمور سيئة اليوم ، لست انا الذي أشعر بالمرض - بالعكس - انها روجي . . » .



عندما خرجنا من غابة البتولا الى الحقول العريضة المنبسطة ، شاهدنا الشمس تضيء التلال . قلت لوالدي : « يجب أن نطوف العالم هكذا ، أنا وانت » ، فضحك وأعطاني قبعته لامسكها . كنا في مزاج رائع . هبت العاصفة أثناء صعودنا الهضبة باتجاه قرية مهجورة ، وخلال دقيقة تقريباً اشتدت العاصفة وأخذ البرق يلتمع في السماء المظلمة وتحول الرعد الى هدير مستمر وحببات المطر الى كتل ثلجية قاسية . أسرعنا الى اقرب مزرعة مهجورة واختبأنا في مخزن للتبن .

جلسنا على عارضة كبيرة نتأمل الطقس بالخارج ، عبر الباب المفتوح ضرب البرق شجرة بتولا مرتين وبدأ الدخان يتصاعد من جذعها ، واهتزت الأرض نتيجة الرعد المتواصل . جلست متكوماً عند ركبتي والدي . فاجبته بأنني لست خائفاً ، وفكرت بأنه ربما كان يوم القيامة حيث تنفخ الملائكة أواقها وتهوي النجوم في البحر . كنت أنكر وجود الله واعتقد أن العقاب لن ينالني لأن الله والمسيح الى جانبه ، سيران انبي مختبىء .

أصبح عصف الريح أكثر شدة وبرودة وبدأت اسناني تصطك من البرد ، فنزع والدي سترته ولفني بها . كانت مبللة قليلاً لكنها دافئة

بدفء والدي . توقفت العاصفة واستمر المطر وأخذ ضياء النهار الرمادي يتقلب كما في ساعة الغروب دون شمس .

وتابعتنا الطريق وكانت امامنا مسافة طويلة قبل بلوغ المنزل ، رغم ان الساعة قد تجاوزت موعد العشاء . كانت قيادة الدراجة صعبة وسيط الدروب الموحلة ، وفجأة انزلت الدراجة فسحبت ساقي بسرعة وتدحرجت على منحدر عشبي بسيط ، أما والدي فوقع على الطريق ، فنهضت ونظرت اليه كان يرقد بلا حراك وساقه محشورة تحت الدراجة، وعندئذ خيل الي أن والدي مات .

بعد لحظة أدار وجهه وسألني اذا ما أصبت بضرر ، ثم ضحك ضحكته العادية والبتهجة ، ونهض ورفع الدراجة ، وكان خده قد جرح قليلاً وبدأ ينزف . كنا متسخين تماماً والمطر لا يزال يتساقط فتابعنا السير ووالدي يضحك بين الحين والآخر وكأنه تحرر من أمر ما .

دق والدي باب مزرعة صادفناها قبل الوصول الى المدينة ، وسأل صاحبها العجوز أن يسمح له باستخدام الهاتف ، لكن العجوز أجاب بأن العاصفة قد قطعت الخطوط، ودعتنا زوجته للدخول واحتساء القهوة، ثم أصرت أن أغير ثيابي واحضرت لي سروالاً داخلياً من الكتان الخشن وسترة صوفية محبوكة باليد وجوارب صوفية سميكة . في البدء رفضت أن ارتدي ثياب العجوز لكن نظرة صارمة من والدي جعلتني أطيعها حتى النهاية . واستعار والدي بدوره بنظلاً من الرجل العجوز وارتدى صدرية جلدية قديمة فوق ردائه الكهنوتي ، واعد العجوز لنا عربية مغطاة، ووصلنا قارموس عند الغروب .

وهناك ضحك الجميع من منظرنا .

في الأسمية نفسها طار شقيقي واثنان من رفاقه بواسطة بساط الريح وحلقوا فوق الغابة ، بعد أن أمرني شقيقي بأن التزم فراشي ولا أتحرك .

لم يكن بوسعي أن أظير معهم لأنني كنت صغيراً ، بالإضافة الى أن البساط السحري لا يتحمل أكثر من ثلاثة أشخاص . في البداية سمعت صوت حديثهم الخافت وضحكاتهم المكتومة عبر الباب النصف مفتوح ، وكان الرعد يقصف في مكان بعيد والمطر يتساقط على السطح ، وتضاء الغرفة بومضات من البرق .

بعد ذلك سمعتهم يفتحون النافذة ويلقون البساط السحري على رواق السطح ويصعدون اليه . تعصف الرياح بالبيت فتتهز الجدران وينهمر المطر بغزارة أكثر . لم أستطع أن أمالك نفسي فهرعت الى الغرفة المجاورة حيث كانوا ينامون ، فوجدتها خالية وقد اختفت السجادة ، والنافذة مشرعة لليل والريح .

في صباح اليوم التالي كانوا متعبين وصامتين ، واثناء تناول الإفطار مع العائلة حاولت أن أشير الى موضوع رحلتهم الطائرة ، لكن شقيقي أسكتني بنظراته المتوقدة .

* * *

كنت جالسا في كنيسة هيدفغ اليانورا بعد ظهيرة يوم احد في شهر كانون الاول ، استمع الى موشحة باخ الدينية لعيد الميلاد . كان الثلج يتساقط بهدوء ، وفجأة أشرقت الشمس .

توهجت النوافذ الملونة للحظات ، وسقطت حزم الضوء من أعلى القبة وتحرك الكورس بثقة عبر الكنيسة . ان تقوى باخ تشفي عذاباتنا .

برد الطقس ولم تضىء مصابيح الشارع بعد وكان الثلج يخشخش تحت الاقدام والبخار يتصاعد مع انفاسي . برد قارص حل قبل أوانه ، ولا تزال صورة الكورس تطوف بمخيلتي .

عبرت حي شتور غاتن الهادىء يوم الاحد ، واثّر خاطرة سريعة دخلت الى بيت الكاهن الذي تفوح منه رائحة المنظفات والقداسة ، تماما كما كان قبل خمسين عاما .

كانت الشقة واسعة غارقة بالصمت ، ضياء متسلل من الخارج يتحرك على سقف الصالون ومصباح مكتبي يشع من غرفة نوم أمي ، أما غرفة الطعام فكانت معتمة ، ويمبر أحدهم بسرعة الى حجرة المؤن وأسمع أصواتا خافتة من بعيد ، أصوات نسائية ، وضجة الملاعق والصحون الخفيفة . انه موعد قهوة المساء في المطبخ .

أنزع معظفي وحذائي وأسير على الارضية الخشبية الملمعة حديثا . أمي جالسة الى مقعدها وقد وضعت نظاراتها . شعرها غير مرتب ولم يبيض بعد، تنحني على دفتر مذكراتها وتكتب بقلم رفيع. أصابعها قصيرة

وقوية ، يزينها خاتم الزفاف الثقيل وخاتم آخر بجوهرة لامعة . أظافرها قصيرة وبشرتها بلا عناية .

تلقت بسرعة وتلمحني . (كم أتوق الى هذه اللحظة . منذ أن توفيت أمي وأنا أتوق اليها) . تبسم بشكلية وتطلق دفترها وتنزع نظاراتها . أقبل جبهتها ، والشامة البنية فوق عينها اليسرى .

« أعرف أنني اضايقتك ، فهذا وقتك الخاص ، والذي يستريح قبل العشاء وأمي تقرأ او تكتب في غرفتها . لقد كنت لتوي في الكنيسة واستمعت لاحدى موشحات باخ الدينية . كانت جميلة ، والضوء كان جميلا ، وقلت لنفسى : سوف أحاول ، ربما أنجح هذه المرة » .

تبسم أمي بشيء من التهكم كما اعتقد . أعرف بماذا تفكر ! انت تمر بهذا الحي كل يوم في طريقك للمسرح ونادراً ما يخطر ببالك أن تأتي لرؤيتنا . كلا ، لم يكن يخطر ببالي .

وتنهض أمي وتسير بسرعة (خطواتها سريعة دائماً) ، تفادر الغرفة وتختفي في عتمة غرفة الطعام ، ثم أسمع همهمة ، وأراها تضيء مصباح الطاولة المستديرة وتعود الى الغرفة وتستلقي على السرير وتتدثر بشالها الازرق .

وتقول معتذرة : « ما زلت متعبة » .

« أريد أن أسأل أمي عن أمر هام ، فمنذ سنوات كنت جالسا في مكتبي بفارو ، وكانت السماء تمطر مطراً صيفياً هادئاً لم نعد نرى مثيلا له هذه الايام . كنت أقرأ وانصت الى صوت المطر ، وأحسست فجأة بأن أمي كانت قريبة مني وبوسعي أن أمسك بيدها وأضمها الي ، لم اكن أحلم بذلك . كنت عرف أن أمي معي في الغرفة ، او ربما خيل الي ذلك ! لا أستطيع أن أجزم بالأمر ، لذلك أريد ان أسألك يا أمي » .

وتجيب بصوت هادئ : « بالتأكيد لست أنا . ما زلت متعبة . هل انت متأكد من أنها لم تكن شخصاً آخر ؟ » .

أهز رأسي ، احساس بالقنوط والاثم .

« لقد أصبحنا أصدقاء ، السننا كذلك ؟ انتهينا من توزيع الادوار القديم ، الام والابن ، وأصبحنا أصدقاء ، نتحدث بصراحة ومودة . السننا كذلك ؟ ألم تصبح الحياة مفهومة ؟ الا اقترب قليلا من الفهم ؟ لا اعتقد انني جالس هنا مضطرباً يقرعني ضميري . ليس الوضع هكذا ابداً . ولكن الصداقة؟ الحب؟ أعرف اننا لا نستخدم هذا التعبير في اسرتنا فوالدي يتحدث دائماً عن حب الله في الكنيسة ، ولكن ماذا عن المنزل ؟ كيف كان يبدو الحب بالنسبة لنا ؟ كيف انتهينا الى قلوب محطمة مشبعة بالكراهية ؟ » .

« تحدث مع أحد آخر حول هذا ، فانا متعبة » .

« مع من ؟ لا أستطيع ان احدث نفسي . امي متعبة الآن ، وأنا أيضاً أشعر بالتعب في أعصابي واحشائي . وتقول امي : « يجب ان تتسلى قليلا ، اذهب والهو بالمابك الجديدة . لا اريد ان تلاطفني ، أنت تبدو كالفتاة عندما تلاطفني » .

وتشيع بوجهها ، وتحقق بضوء المصباح .

« لقد أخذنا أئنة عوضاً عن الوجوه ، وهيستريا عوضاً عن المشاعر والخجل والاحساس بالذنب عوضاً عن الحب والتسامح » .

نظرتها كثيبة وساكنة ، وعيناها لا تطرفان ابداً .

« لماذا أصبح شقيقي عاجزاً ؟ لماذا انهارت شقيقتي ؟ لماذا عشت مع داء لا يشفى ابداً ؟ لا اريد ان الوم ، كما انني لا استرد اية ديون ، اريد

أن أعرف فقط لماذا بات بؤسنا مرعباً الى هذا الحد وراء صيئنا الاجتماعي الهش ؟ لماذا ابتلى شقيقي وشقيقتي رغم كل العناية والدعم والثقة ؟ لماذا لم أكن قادراً على علاقة انسانية طبيعية لمدة طويلة من الزمن ؟ » .

وتنهض أمي وتتنهد بعمق ، وألح الضماد الصغير بلف أصعها ، ثم تزدرد لعدة مرات .

« لدي مخزون هائل من التفسيرات لكل احساس وكل لحظة وكل تومك جسدي . لقد اندفعت الى هاوية الحياة : انها كلمات ذات وقع رائع ، الاندفاع الى هاوية الحياة ، لكن الهاوية حقيقية وسحيقة وبلا قرار فالانسان لا يقتل نفسه في وهد صغير أو مياه ضحلة . استغيث بأمي كما كنت أفعل دائماً ، وأنا محموم في الليل ، عائد من المدرسة ، أهرع من المستشفى والأشباح تطاردني ، أبحث عن يد أمي في تلك الامسية الماطرة بفارو . لا أعرف . لا أعرف شيئاً على الاطلاق . الى أين نحن ذاهبان ؟ إن نجح . . نعم هذه حقيقة مؤكدة ، فأنا أعاني من ضغط دم مرتفع ، و قد حدث لي هذا في وقت المذلة والاهانة . انني أسمع عويل شخص ما ، أعتقد أنه عويلي .

يجب ان أهدأ وأسيطر على نفسي ، فاللقاء لم يستمر على النحو الذي تخيلته . كان يجب أن نكون أقل كآبة ونتحدث بهدوء عن هذه الاسرار الغامضة . كان يجب أن تسمعي وتفسري ، وكان يجب أن يصوغ كل شيء نفسه بهدوء وكمال كما في كورس باخ . لماذا لم نستخدم أبداً تعبير « بفضل أبي وأمي » ؟ ولماذا كنا مضطرين لان نخاطبهما دائماً بلغة قواعدية سخيفة ؟ » .

عثرنا على يوميات أمي في خزانة الودائع ، وبعد موتها كان والدي يجلس كل يوم ويستعين بالعدسة المكبرة لقراءة خطها . وشيئاً فشيئاً

أدرك أنه لم يعرف ابداً تلك المرأة التي تزوجها خمسين عاماً . لماذا لم تحرق أمي يومياتها ؟ ربما تركتها كعقاب مخطط له ؟

لماذا كنا نتشاجر ؟ لماذا كل هذه الدموع والانفجارات الغاضبة ؟ لا أستطيع أن أتذكر السبب باستثناء آخرة مرة تشاجرنا فيها عندما كان والدي بالمستشفى ؟ أذكر عندما تصالحنا والاحساس الرائع بالراحة .

* * *

منذ سنوات صورت فيلما عن وجه أمي بواسطة كاميرا من قياس ٨ مم وبعض العدسات الخاصة . فعندما توفي والدي سرقت البومات العائلة ووجدت بحوزتي مادة معتبرة . وهكذا كان الفيلم عن وجه أمي ، وجه كارين ، من الصورة الاولى عندما كانت في الثالثة والى الصورة الاخيرة التي التقطت لجواز سفرها قبل أشهر قليلة من وفاتها .

يوماً بعد يوم قمت بدراسة مئات الصور بواسطة عدسات مختلفة . . ها هي طالبة مع صديقاتها في مدرسة العمدة روزا . انه العام ١٨٩٠ ، ترتدي قميصاً أبيض روسي الطراز وكأنها احدى فتيات تشيخوف الفامضات . ممرضة شابة في الزي الخاص بها ، امرأة ذات كفاءة عالية ، تملؤها الثقة والاصرار . صور الخطوبة التي التقطت عام ١٩١٢ في أورسا ، الخطيب يجلس الى الطاولة بردائه الكهنوتي الاول يقرأ كتاباً والخطيبة تجلس الى الطاولة نفسها تطرز قطعة ثياب ، وتنحني الى الامام قليلاً وتنظر الى الكاميرا . الصورة التالية مؤثرة ، وفيها تجلس على مقعد طويل وامامها كلب ضخم ، وتضحك بفرح (وهي احدى الصور القليلة التي تضحك فيها أمي) . انها حرة ، متزوجة حديثاً .

الحمل الاول ، اُمي تنحني باستسلام على كتفي والذي وهو يتسم
بفخر ، فمها ذائل وكأنما حصل ذلك من كثرة القبل ، ووجهها ناعم
ومنشرح .

ثم تأتي صور استوكهولم ، الزوجان في شقتهما الجديدة بحي
أوستر مالم الهادىء ، يرتديان ثيابا أنيقة وبيتسمان شكليا بعد أن تقبل
كل منهما دوره وبدأ يؤديه بحماس .

صورة أخرى لأمي وهي تضحك . إنها جالسة على درجات الشرفة
بقارموس وأنا في حضنها ، وربما كنت وقتها في الرابعة ، وشقيقي في
الثامنة يقف بعيدا ، ترتدي معظفا قطنيا أبيض وحذاء عاليا رغم
حرارة الصيف . انها تضمني بقوة وتشبك يديها على بطني . يداها
قصيرتان وقويتان ، أظافرها مقصوصة . وأكثر ما اذكر في يدها خط
الحياة العميق ، هذه اليد الناعمة ، شبكة من العروق ، نفوح بروائح
الازهار والاطفال والمسؤولية والحرص والقوة والحنان والواجب .

تابعت مشاهدة الصور وشيئا فشيئا بدأ ينحسر وجود أمي في
صور العائلة . كانت قد أجريت لها عملية جراحية واستئصل رحمها
ومبيضاها ، إنها تحديق بوهن ، وابتسامتها لم تعد تصل الى عينيها .
مزيد من الصور ، تبدو مرهقة وربما غاضبة ، لقد بقيت وحيدة مع
والدي بعدما رحل عنهما جميع الأبناء والأحفاد .

وأخيرا تأتي صورة جواز السفر . كانت أمي تحب السفر والمسارح
والكتب والأفلام والناس ، أما والذي فكان يكره السفر والزيارات غير
المتوقعة والغرباء . ازداد مرضه سوءاً وأصبح محرراً بسبب تلغثمه واهتزاز
رأسه وصعوبات السير ، وأصبحت أمي مقيدة به . كانت تزور إيطاليا
باستمرار حتى انتهت صلاحية جواز سفرها فتطلب الامر جوازا
جديدا لتزور ابنتها وزوجها في انكلترا ، والتقطت صورة لجواز السفر ،

ثم تعرضت أمي لنوبتين قلبيتين ، وتبدو في آخر صورة لها وكأن ريحا
ثلجية مرت أمام وجهها فجزأت ملامحها الى أقسام ، غارت عينها ،
ولم يعد باستطاعتها أن تقرأ بعد وهي الشغوفة بالمطالعة ، وافترق قلبها
الى الدم الكافي ، ومشطت شعرها الرمادي الى الخلف وابتسمت على
عجل . . يجب أن يتسم المرء أمام الكاميرا . كانت بشرة خديها منتفخة
تتقاطع فيها التجاعيد والأخايد ، وقد جفت شفتاها .



وهكذا ذهبت الى كنيسة هيدفغ اليانورا في مساء يوم الاحد مع
حلول البرد ، وشاهدت انعكاسات الضوء على القباب ، ثم صعدت
ثلاثة طوابق الى الشقة ووجدت أمي منكبة على يومياتها واذنت لي أن
أتحدث معها قليلا .

اكنني سرعان ما أصبحت متناقضا وبدأت أسأل عن اشياء اعتقدت
أنها ماتت ودفنت .

ادعوها للحساب وأوجه الاتهام اليها ، فتتحدث أمي عن تعبها ،
وهذا ما كانت تفعله في الفترة الاخيرة ، لقد هزلت وأصبحت شبه
مرئية . يجب أن افكر بما هو موجود عندي وليس بما هو غير موجود
أو لم يوجد قط .

في لحظة سريعة ، أسبر غور آلامها عندما واجهت اخفاقا في
حياتها . لم تكن مؤمنة ، وكانت قوية لتحمل اللوم حتى وإن لم تكن
مشاركة بما يستحق اللوم . لقد كشفت بصيرتها عن كارثة حياتها .

وها أنا الآن أجلس في مقعدها واتهمها بجرائم لم تقترفها ، وأطرح
عليها اسئلة لا أجوبة لها ، وأغرق في تفصيل التفاصيل .

وأسال بعناد كيف ولماذا ، وفي برهة سريعة تومض البصيرة واعتقد انني وجدت اثرا لقوة جدتي الباردة وراء مأساة والدي . فعندما كانت جدتي امرأة شابة تزوجها رجل عجوز له ثلاثة أبناء لا يصفرونها كثيرا . كان زواجا قصير الأمد ، وتوفي الزوج تاركا وراءه زوجة وخمسة أبناء . فما الذي اضطرت الى قمعه وتدميره ؟

ربما تكون الاجابة سهلة لكن الغموض باق ، وأستطيع أن أرى بوضوح أن عائلتنا كانت تتألف من أشخاص طيبي الإرادة والنوايا ، لكنهم يحملون موروثا كارثيا من الضمير المعذب والواجبات المسندة اليهم .

أبحث في يوميات أمي عن شهر تموز عام ١٩١٨ ، فأجدها كتبت :

« كنت متعبة خلال الاسابيع الماضية ولم أستطع أن اكتب . لقد أصيب اريك بالانفلونزا الاسبانية للمرة الثانية ، وولد ابننا في صباح الاحد ١٤ تموز ، وعندي بحرارة مرتفعة واسهال قوي . انه يبدو مثل هيكل عظمي وله أنف احمر كبير ، ويرفض بعناد أن يفتح عينيه ، وبعد أيام من ولادته فقد حليبي بسبب المرض وعمدناه في المستشفى بحالة طارئة ، اسمه انغمار . وقد أخذته أمي الى فارموس لترعاه ممرضة مختصة . إن أمي قاسية جدا تجاه عجز اريك عن معالجة بعض شؤوننا العملية ، وهو بالمقابل يرفض تدخلها في حياتنا الخاصة . ارقد الآن ضعيفة وبائسة ، وأحيانا عندما أكون وحيدة أبكي . اذا مات الرضيع فسوف تطلب أمي أن تأخذ داغ وأن أعود الى عملي ثانية . تريدني أن انفصل عن اريك في أسرع وقت ممكن قبل أن تدفعه كراهيته الجنونية لشيء خطير . لا أعتقد أنني املك الحق بالتخلي عن اريك . لقد أمضى الربيع الاخير مجهدا وقلقا ، وأمي تقول انه يدعي كل ذلك ، لكنني لا اصدقها . ادعو الى الله دون إيمان . يجب على المرء أن يتدبر شؤونه وحده وبأفضل ما يستطيع » .

فأور ١٩٨٦/٩/٢٥

انغمار برغمان

(وقائع حياته واعماله)

اعدها : بيتر كوي

- ١٩١٨ - ولادة انغمار برغمان في ١٤ تموز بأوبسالا ، السويد . والده اريك ، (راعي أبرشية هيدفغ اليانورا) ، وامه كارين .
- ١٩٢٠ - العائلة تنتقل الى اوستر مالم باستوكهولم .
- ١٩٢٢ - ولادة شقيقته مارغريتا .
- ١٩٢٤ - تعيين والده قسيسا في المستشفى الملكي ، صوفياهمت .
- ١٩٣٤ - تعيين والده كاهناً في أبرشية هيدفغ اليانورا .
- التحاق انغمار بمدرسة بالمغرني بأوستر مالم (وهذه الفترة تشكل قاعدة لفيلم (النوبة)) .
- يمضي شهرا من اجازته الصيفية في تورنيغيا بالمانيا ، وفي طريق عودته للسويد يزور برلين للمرة الاولى .
- ١٩٣٧ - ينال الشهادة الثانوية .
- ١٩٣٨ - يلتحق لمدة قصيرة بالخدمة العسكرية الالزامية في شتراغناس .
- [ايار] يخرج مسرحياته الاولى في ماستر - اولفسغاردن :

- (الحد الخارجي) لقان ، (رحلة بيتر السعيد) لسترنديبرغ ،
 (الطائر الأزرق) لترلينك ، (المعلم أولف) لسترنديبرغ .
- ١٩٣٩ - يفشل بالحصول على عمل في مسرح الدراما الملكي باستوكهولم ،
 ويعمل مساعدا للانتاج في أوبرا استوكهولم .
- ١٩٤٠ - يغادر جامعة استوكهولم .
- يخرج (ماكبت) لشكسبير في الماستر - أولفسغاردن
 باستوكهولم .
- (البجعة) لسترنديبرغ في مسرح الطلاب باستوكهولم .
- ١٩٤١ - (حلم ليلة صيف) لشكسبير في مركز استوكهولم المدني .
- (سوناتا الاشباح) لسترنديبرغ في مركز استوكهولم المدني .
- ١٩٤٢ - تعيين كارل اندرس ديملنغ مديرا لشركة سفنسك فيلم .
- [أيار] : (بيبو المهرج) لإنزا فيشر في حديقة الشعب
 باستوكهولم .
- [أيلول] : (موت المثقب) ، مسرحية من تأليفه ، في مسرح
 الطلاب .
- تدعوه ستينا برغمان للعمل في سفنسك فيلم .
- ١٩٤٣ - [كانون الثاني] : يبدأ عمله في قسم السيناريو بسفنسك فيلم
- [آذار] : يتزوج الزا فيشر .
- (تيفواي) لهيلمار برغمان في مسرح الطلاب باستوكهولم .

- (قبل ان يستيقظ المرء) لبنت اولوف فوس في مسرح الطلاب
- (من انا ؟) لكارل اريك سويبا في مسرح الطلاب .
- (اوبوت ٣٩) لردولف فارلوند في استوديو الكاتب المسرحي باستوكهولم .
- (نلز ايسن) لكاي مونك في استوديو الكاتب المسرحي باستوكهولم .
- [كانون الاول] : ولادة ابنته لينا .
- ١٩٤٤ - [شباط - ايار] : آلف سيورغ يخرج فيلم (النوبة) عن سيناريو لبرغمان .
- (بيت اللعب) لهيلمار برغمان في استوديو الكاتب المسرحي باستوكهولم .
- (حضور السيد سليمان) لهيلمار برغمان في استوديو الكاتب المسرحي باستوكهولم .
- [نيسان] : يعين مديرا لمسرح مدينة هيلسنبورغ .
- [ايلول] : (الليدي اشبرغ) لبريتافون هورن والزاكولين في مسرح هيلسنبورغ .
- [تشرين الاول] : (من انا ؟) لكارل اريك سويبا في مسرح هيلسنبورغ ، افتتاح فيلم (النوبة) .
- [تشرين الثاني] : (ماكبت) لشكسبير في مسرح هيلسنبورغ
- ١٩٤٥ - [شباط] : (سكان ، بيمبل وكاسبر) مسرحية من تأليفه

في مسرح هيلسنبورغ . (القصة البطولية) لهيلمار برغمان ،
مسرح هيلسنبورغ .

– [نيسان] : (الاخلاق تتراجع) لشون بيرغستروم ، مسرح
هيلسنبورغ .

– (تموز) : يبدأ تصوير فيلم (أزمة) .

– [تشرين الثاني] : (البجعة) لسترندبرغ ، مسرح مدينة مالو
– يطلق الز فيشر ، ويتزوج هيلين لوند ستروم .
– ولادة ابنته ايفا .

– ١٩٤٦ [شباط] : افتتاح فيلم (أزمة) .

– [آذار] : (القداس) لبيورن – اريك هدير ، مسرح
هيلسنبورغ .

– يلتحق بلورانس مارمستدت في تيرا فيلم .

– يصور فيلم (انها تمطر على حينا) .

– [ايلول] : (بواب المسرح) مسرحية من تأليفه ، مسرح مالو

– يلتحق بالعمل كمخرج في مسرح مدينة غوتنبرغ .

– [تشرين الثاني] : (كاليغولا) لالبر كامو ، مسرح غوتنبرغ
افتتاح فيلم (انها تمطر على حينا) .

– ولادة ابنه جان .

– ١٩٤٧ – يكتب سيناريو (امرأة بلا وجه) ويخرجه غوستاف مولاندر

- يكتب مسرحية (جاك بين الممثلين) .
- [كانون الاول] (اليوم ينتهي باكرا) مسرحية من تأليفه ،
مسرح غوتنبرغ .
- [آذار] : (السحر) لشسترتون ، مسرح غوتنبرغ .
- يخرج للاذاعة مسرحيتين لسترنديبرغ (اللعب بالنار) و
(الهولندي) .
- يصور فيلم (أرض الرغبات) .
- [ايلول] : افتتاح فيلم (أرض الرغبات) .
- [تشرين الاول] : (من شدة رعيي) مسرحية من تأليفه ،
مسرح غوتنبرغ .
- يصور فيلم (موسيقا في الظلام) .
- ١٩٤٨ - ولادة التوأمين آنا وماتس .
- [كانون الثاني] : افتتاح فيلم (موسيقا في الظلام) .
- [شباط] : (الرقص على الرصيف) لبيورن - اريك هوير
مسرح غوتنبرغ .
- [آذار] : (ماكبث) لشكسبير ، مسرح غوتنبرغ .
- يصور فيلم (مرفأ النداء) .
- [ايلول] : (لصوص الكرنفال) لجين انويل ، مسرح غوتنبرغ
- يتعاون في كتابة سيناريو (ايفا) ، اخراج غوستاف مولاندر

- [تشرين الاول] : افتتاح فيلم (مرفا النداء) .
- [تشرين الثاني] : يصور فيلم (السجن) .
- يخرج للاذاعة (حب الام) لسترندبرغ .
- [كانون الاول] : (رسم الفراغ) ، مسرحية من تأليفه ، مسرح هيلسنبورغ .
- ١٩٤٩ - [كانون الثاني ، شباط] : يصور فيلم (الظمأ) .
- [شباط] : (طير متوحش) لجين انويل ، مسرح غوتنبرغ .
- [آذار] : (عربية اسمها الرغبة) لتنسي ويليامز ، مسرح غوتنبرغ . افتتاح فيلم (السجن) .
- يخرج للاذاعة مسرحيته (رسم الفراغ) .
- [تموز - آب] : يصور فيلم (الى الفرح) .
- يقضي ثلاثة اشهر في باريس مع غان هيفبرغ .
- [تشرين الاول] : افتتاح فيلم (الظمأ) .
- ينتهي عقده مع مسرح غوتنبرغ .
- ١٩٥٠ - يقدم ملخصاً لفيلم (عندما تنام المدينة) من اخراج لارس - اريك كيلفرين .
- [شباط] : افتتاح فيلم (الى الفرح) .
- (الكلمات المقدسة) لدي فال انكلان ، مسرح غوتنبرغ .
- [نيسان - حزيران] : يصور فيلم (لحن صيفي) .

- [تموز - آب] : يصور فيلم (هذا لا يحدث هنا) .
- [تشرين الاول] : (أوبرا القروش الثلاثة) لبريخت ، مسرح أنتيما باستوكهولم .
- افتتاح فيلم (هذا لا يحدث هنا) .
- [كانون الاول] : عرض مزدوج لمسرحيتي (الظل) لهيلمار برغمان و (ميديا) لجين انويل ، مسرح أنتيما باستوكهولم .
- يطلق هيلين لوندستروم .
- ١٩٥١ - يكتب سيناريو (طلاق) من اخراج غوستاف مولاندر .
- يتزوج غان هيغبرغ .
- [نيسان] : (ضوء في الكوخ) لبيورن - اريك هوير ، المسرح الدرامي الملكي .
- [أيار] : ولادة ابنه انفمار .
- [تشرين الاول] : افتتاح فيلم (لحن صيفي) .
- [تشرين الثاني] : (الوردة تاتو) لتنسي ويليامز ، مسرح نوركوبنغ .
- في فترة اغلاق الاستوديوهات بالسويد ، يصور برغمان مجموعة من الدعايات لصابون بريس .
- ١٩٥٢ - [شباط] : (الجريمة في بار جارنا) مسرحية من تأليفه ، مسرح مالو .
- يعين مديراً لمسرح مالو .

- [حزيران - تموز] : يصور فيلم (انتظار النساء) .
- [آب] : يصور فيلم (الصيف مع مونيكا) .
- تبدأ علاقته مع هاريت أندرسون .
- [تشرين الثاني] : (العروسي العذراء) لسترنديبرغ ، مسرح مالو .
- افتتاح فيلم (انتظار النساء) .
- ينتج ثلاث مسرحيات للإذاعة : (هناك وجرائم) و (عيد الفصح) لسترنديبرغ ، و (عرس الدم) للوركا .
- ١٩٥٣ - [شباط] : افتتاح فيلم (الصيف مع مونيكا) .
- [شباط - حزيران] : يصور فيلم (الليلة العارية) .
- [تموز - أيلول] : يصور فيلم (درس في الحب) .
- [ايلول] : افتتاح فيلم (الليلة العارية) .
- [تشرين الأول] : ينتج للإذاعة (الهولندي) لسترنديبرغ .
- [تشرين الثاني] : (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) لبيراندلو ، مسرح مالو .
- [كانون الأول] : (القصر) لكافكا ، مسرح مالو .
- ١٩٥٤ - [آذار] : (سوناتا الأشباح) لسترنديبرغ ، مسرح مالو .
- [حزيران - آب] : يصور فيلم (رحلة الى الخريف) .
- [تشرين الأول] : افتتاح فيلم (درس في الحب) .

- (الأرملة السعيدة) لليهر ، مسرح مالو .
- ١٩٥٥ - [كانون الثاني] : (دون جوان) لولبير ، مسرح مالو .
- [شباط] : (بيت الشاي) لجون باتريك ، مسرح مالو .
- [آذار] : (الرسم على الخشب) ، مسرحية من تأليفه ،
مسرح مالو .
- [حزيران - آب] : يصور فيلم (ابتسامات ليلة صيف) .
- تبدأ علاقته مع بيبي أندرسون .
- [آب] : افتتاح فيلم (رحلة الى الخريف) .
- [كانون الأول] : افتتاح فيلم (ابتسامات ليلة صيف) .
- ١٩٥٦ - [كانون الثاني] : (الطير الفقير) لالكسندر أوستروفسكي ،
مسرح مالو .
- يكتب سيناريو (آخر زوجين خارجاً) ويخرجه آلف سيوبرغ .
- [أيار] : يفوز فيلم (ابتسامات ليلة صيف) بجائزة لجنة
التحكيم في مهرجان كان .
- [تموز - آب] : يصور فيلم (الختم السابع) .
- [تشرين الأول] : (قطعة على سطح قصدير حار) لتنسي
ويليامز ، مسرح مالو .
- [كانون الأول] : (اريك الرابع عشر) لسترنديبرغ ،
مسرح مالو .

- ١٩٥٧ - [شباط] : افتتاح فيلم (الختم السابع) .
- [آذار] : (بيري غانيت) لإيسن ، مسرح مالو .
- [نيسان] : يخرج عمله الأول للتلفزيون عن مسرحية (حضور السيد سليمان) لهيلمار برغمان .
- [أيار] : يفوز فيلم (الختم السابع) بجائزة لجنة التحكيم الخاصة في مهرجان كان .
- [تموز - آب] : يصور فيلم (الكرز البري) .
- [تشرين الثاني - كانون الأول] : يصور فيلم (قريباً من الحياة) .
- [كانون الأول] (مبعوض البشر) لمولير ، مسرح مالو .
افتتاح فيلم (الكرز البري) .
- ١٩٥٨ - [شباط - آب] : يصور فيلم (الوجه) .
- [آذار] : افتتاح فيلم (قريباً من الحياة) .
- [أيار] : يفوز فيلم (قريباً من الحياة) بثلاث جوائز في مهرجان كان .
- [نيسان] : (القصة البطولية) لهيلمار برغمان ، مسرح مالو .
- [حزيران] : يفوز فيلم (الكرز البري) بجائزة الدب الذهبي في مهرجان برلين .
- [تشرين الأول] : (فاوست) لفوته ، مسرح مالو .
- [كانون الأول] : (شعب فارملاند) لدالفرين ، مسرح مالو .
افتتاح فيلم (الوجه) .

- ١٩٥٩ - يلتحق بالعمل كمخرج في المسرح الدرامي الملكي باستوكهولم .
- [أيار - تموز] : يصور فيلم (الربيع البكر) .
- [أيلول] : يتزوج كابي لارتي .
- [تشرين الأول - كانون الثاني ١٩٦٠] : يصور فيلم (عين الشيطان) .
- ١٩٦٠ - [كانون الثاني] : (جو غاصف) لسترنديبرغ ، للتلفزيون .
- [شباط] : افتتاح فيلم (الربيع البكر) .
- [تموز - أيلول] : يصور فيلم (عبر المرأة المظلمة) .
- [آب] : (التحذير الأول) لسترنديبرغ ، للتلفزيون .
- [تشرين الأول] : افتتاح فيلم (عين الشيطان) .
- ١٩٦١ - [كانون الثاني] : (النورس) لتشيخوف ، المسرح الدرامي الملكي .
- (اللعب بالنار) لسترنديبرغ ، للإذاعة .
- وفاة كارل أندرس ديملنغ ، وتعيين انغمار برغمان مستشاراً فنياً لشركة سفنسك .
- يكتب سيناريو (حديقة المتعة) بالاشتراك مع أرلند يوزفسن واخراج ألف كيلين .
- يفوز فيلم (الربيع البكر) بجائزة الأوسكار لأفضل فيلم أجنبي .

- [نيسان] : (عملية المِدمة) لسترافنسكي ، أوبرا استوكهولم .
- [تشرين الأول] : افتتاح فيلم (عبر المرأة المظلمة) .
يصور فيلم (ضوء الشتاء) .
- ١٩٦٢ - يفوز فيلم (عبر المرأة المظلمة) بجائزة الأوسكار لأفضل
فيلم أجنبي .
- [تموز - أيلول] : يصور فيلم (الصمت) .
- [أيلول] : ولادة ابنه دانييل سيباستيان .
- ١٩٦٣ - [كانون الثاني] : يعين مديراً للمسرح الدرامي الملكي
باستوكهولم .
- [شباط] : افتتاح فيلم (ضوء الشتاء) .
- (لعبة حلم) لسترندبرغ ، للتلفزيون .
- [تموز] : يباشر عمله في المسرح الدرامي الملكي .
- [أيار - تموز] : يصور فيلم (كل أولئك النساء) .
- [أيلول] : افتتاح فيلم (الصمت) .
- [تشرين الأول] : (من يخاف فرجينيا وولف ؟) لادوار البي ،
المسرح الدرامي الملكي .
- (القصة البطولية) لهيلمار برغمان ، المسرح الدرامي الملكي .
- ١٩٦٤ - [حزيران] : (ثلاث سكاكين من في) لهاريت مارتينسون ،
المسرح الدرامي الملكي .

- افتتاح فيلم (كل أولئك النساء) .
- [تشرين الأول] : (هيدا غابلر) لإبسن ، المسرح الدرامي الملكي .
- ١٩٦٥ — خلال أشهر العام الأولى يصاب بفيروس معدٍ فيلغى مسرحية
(الناي السحري) بهامبورغ .
- [تموز — ايلول] : يصور فيلم (برسونا) .
- تبدأ علاقته مع ليف أولمان .
- يفوز بجائزة اراسموس (مناصفة مع شارلي شابلان) .
- [كانون الأول] : (أليس الصغيرة) لادوار ألبى ، المسرح
الدرامي الملكي .
- ١٩٦٦ — [شباط] : (التحقيق) لبيتر فايس ، المسرح الدرامي الملكي .
- [آذار] : وفاة والدته .
- شركة الفنانين المتحددين تدفع مليون دولار لحقوق فيلم
(برسونا) .
- ليف أولمان تلد له ابنة يسميها لين .
- [ايار — ايلول] : يصور فيلم (ساعة الذئب) .
- [تشرين الأول] : افتتاح فيلم (برسونا) .
- [تشرين الثاني] : (مدرسة للزوجات) لمولير ، المسرح
الدرامي الملكي .
- يستقيل من عمله كمدير للمسرح ويبني منزلاً في جزيرة فارو .

- ١٩٦٧ - [آذار] : افتتاح مشهد (دانييل) من فيلم (الحافز) .
- [نيسان] : (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) لبراندلو ، المسرح الوطني ، اوسلو .
- [ايلول - تشرين الثاني] : يصور فيلم (العار) .
- يؤسس شركته السينمائية السويسرية « برسونا » .
- ١٩٦٨ - [شباط] : افتتاح فيلم (ساعة الذئب) .
- يؤسس شركته السينمائية السويدية « سينما توغراف » .
- [ايار - حزيران] : يصور فيلم (الطقس) .
- [ايلول] : افتتاح فيلم (العار) .
- [ايلول - تشرين الاول] : يصور فيلم (عاطفة) .
- ١٩٦٩ - [شباط] : يفوز فيلم (العار) بجائزة الاوسكار لافضل فيلم اجنبي .
- [آذار] : (فويتشك) لغيورغ بوشنر ، المسرح الدرامي الملكي باستوكهولم .
- [آذار - ايار] : يصور فيلماً وثائقياً بعنوان (فارو) .
- يكتب مسرحية تلفزيونية (الكذبة) .
- [تشرين الثاني] : افتتاح فيلم (عاطفة) .
- ١٩٧٠ - [كانون الثاني] : التلفزيون يعرض فيلم (فارو) .

- [آذار] : (لعبة حلم) لسترنديبرغ ، المسرح الدرامي الملكي .
- [نيسان] : وفاة والده .
- [حزيران] : (هيدا غابيلر) لإيسن ، المسرح الوطني ، لندن .
- [أيلول - تشرين الثاني] : يصور (اللمسة) أول فيلم له ناطق بالإنكليزية .
- ١٩٧١ - وفاة غان هيغبرغ بحادثة سيارة في يوغوسلافيا .
- [آذار] : (العرض) للارس فورسل ، المسرح الدرامي الملكي .
- [نيسان] : ليف أولمان تستلم نيابة عنه جائزة تالبرغ التذكارية في هوليوود .
- [آب] : افتتاح فيلم (اللمسة) .
- يصور في الخريف فيلم (صرخات وهمسات) .
- [تشرين الثاني] : يتزوج انفريد فون روزن ، وينتقل الى حي كارلابلان باستوكهولم .
- ١٩٧٢ - [آذار] : (البط البري) لإيسن ، المسرح الدرامي الملكي .
- يصور فيلم (مشاهد من حياة زوجية) .
- [كانون الأول] : افتتاح فيلم (صرخات وهمسات) في الولايات المتحدة .
- ١٩٧٣ - [كانون الثاني] : (سوناتا الأشباح) لسترنديبرغ ، المسرح الدرامي الملكي .
- [آذار] : افتتاح فيلم (صرخات وهمسات) في السويد .

- [نيسان - أيار] : التلفزيون السويدي يعرض (مشاهد من حياة زوجية) .
- [نيسان] : (مبعوض البشر) لمولير ، المسرح الدانماركي الملكي ، كوبنهاغن .
- [أيار] : يشارك بفيلم (صرخات وهمسات) في مهرجان كان .
- ١٩٧٤ - [شباط] : (الطريق إلى دمشق) لسترنديبرغ ، المسرح الدرامي الملكي .
- [نيسان] : يفوز سقن نيكفست بأوسكار أحسن تصوير عن فيلم (صرخات وهمسات) .
- يصور في الربيع فيلم (الناي السحري) .
- ١٩٧٥ - [كانون الأول] : التلفزيون يعرض (الناي السحري) .
- [آذار] (الليلة الثانية عشرة) لشكسبير ، المسرح الدرامي الملكي .
- يسافر إلى الولايات المتحدة للقاء دينو دي لاورينتس الذي يريد تمويل فيلم (وجهاً لوجه) .
- [نيسان - تموز] : يصور فيلم (وجهاً لوجه) .
- يكتب سيناريو لم يصور بعد بعنوان (الأمير المتحجر) .
- يُمنح درجة الدكتوراة الفخرية من جامعة استوكهولم .
- ١٩٧٦ - [كانون الثاني] : يتلقى القبض عليه أثناء بروقات (الرقص مع الموت) .

- [نيسان] : يغادر السويد إلى منفاه الاختياري .
- [نيسان - ايار] : التلفزيون السويدي يعرض فيلم (وجهاً لوجه) .
- يوقع عقداً مع مسرح الرزيدانز في ميونخ .
- [آب] : ينال جائزة غوته .
- [ايلول] : يستقر في ميونخ ويصور فيلم (بيضة الأفعى) لاستوديو بافاريا .
- ١٩٧٧ - [شباط] : افتتاح فيلم (قصر الفردوس) من انتاجه واخراج غونيل ليندبلوم .
- [تشرين الأول] : افتتاح فيلم (بيضة الأفعى) .
- [ايلول - تشرين الأول] : يصور فيلم (سوناتا الخريف) في أوصلو .
- ١٩٧٨ - [حزيران] : (الشقيقات الثلاث) لتشيخوف ، مسرح الرزيدانز ، ميونخ .
- [تموز] : يحتفل بعيد ميلاده الستين في فارو بحضور جميع أولاده .
- [آب] : تتوقف بروقات (الرقص مع الموت) بسبب مرض اندرس إيك المميت .
- [تشرين الأول] : افتتاح فيلم (سوناتا الخريف) .
- ١٩٧٩ - [كانون الثاني] : (طرطوف) لموليير ، مسرح الرزيدانز ، ميونخ .

- [نيسان] : (هيدا غابري) لإيسن ، مسرح الرزيدانز ، ميونخ .
- يكتب في الصيف سيناريو فيلم (فاني والكسندر) .
- [آب] : (الليلة الثانية عشرة) لشكسبير ، المسرح الدرامي الملكي ، استوكهولم .
- [تشرين الاول] : يصور فيلم (من حياة الدمى) .
- [تشرين الثاني] : تنتهي قضيته مع مصلحة الضرائب ببراءته التامة .
- [كانون الاول] : التلفزيون يعرض الفيلم الوثائقي (فارو) .
- ١٩٨٠ - وفاة ألف سيوبرغ .
- [ايار] : (ايفون ، امير بورغندي) لفيثولد غومبروڤيتش ، مسرح الرزيدانز .
- [تموز] : افتتاح فيلم (من حياة الدمى) في اكسفورد .
- [تشرين الثاني] : الإعلان عن فيلم (فاني والكسندر) بمؤتمر صحفي .
- ١٩٨١ - [نيسان] : عرض مزدوج لمسرحيتي (بيت الدمى) لإيسن و (الانسة جولي) لسترنديبرغ ، مسرح الرزيدانز .
- [حزيران] : يطرد من مسرح الرزيدانز بميونخ .
- [تشرين الثاني - صيف ١٩٨٢] : يصور فيلم (فاني والكسندر) .

- [كانون الاول] : يعود الى مسرح الزبيداتز بعد تغير الادارة .
- ١٩٨٢ - يعلن اعتزاله للسينما .
- [كانون الاول] : افتتاح فيلم (فاني والكسندر) .
- ١٩٨٧ - يصور فيلم (بعد البروفة) للتلفزيون .
- (دون جوان) لموليير ، مسرح هوف بسالزبورغ .
- يصور فيلم (وجه كارين) في ذكرى امه .
- [ايلول] : يشارك بفيلم (فاني والكسندر) بمهرجان فينيسيا.
- ١٩٨٤ - (الملك لير) لشكسبير ، المسرح الدرامي الملكي ، استوكهولم .
- [نيسان] : يفوز فيلم (فاني والكسندر) بأربعة اوسكرات .
- [ايار] : عرض فيلم (بعد البروفة) في مهرجان كان .
- ١٩٨٥ - [حزيران] : (جون غابرييل بوركمان) لإبسن ، مسرح بافاريا ، ميونخ .
- يصور فيلم (المباركون) للتلفزيون .
- وفاة شقيقه داغ برغمان .
- ١٩٨٦ - [شباط] : اغتيال أولف بالمه في استوكهولم .
- [نيسان] : (لعبة حلم) لسترنديبرغ ، المسرح الدرامي ، استوكهولم .
- [ايلول] : ينتهي من كتابة سيرته الذاتية (المصباح السحري).

- [كانون الأول] : (الأنسة جولي) لسترنديبرغ ، المسرح
الدرامي الملكي ، استوكهولم .

- [كانون الأول] : (هاملت) لشكسبير ، المسرح الدرامي
الملكي ، استوكهولم .

١٩٨٧ - نشر كتاب سيرته الذاتية في السويد .

- يخبره الأطباء بضرورة الراحة والتخلي عن برنامج
المسرحي اليومي .

١٩٨٨ - [نيسان] : (رحلة اليوم الطويلة الى الليل) لاونيل ، المسرح
الدرامي الملكي .



الفهرس

• - الامداد

انفمار برغان

وقائع حياه واعماله

اعداد : بتر كوي

۲۹۷

1. $\frac{1}{x^2}$

2

2. $\frac{1}{x^3}$

3. $\frac{1}{x^4}$

4. $\frac{1}{x^5}$

3

5. $\frac{1}{x^6}$

4

... ۲۰۰۰ ۱۲/۱۸/۱۹۹۵



« في بعض الأحيان، ألاحظه بوضوح، وأراه متجسداً، هذا المخلوق الذي نصفه وحش ونصفه الآخر انسان، والذي يتحرك في أعماقي وأوشك على ولادته. لقد قررت أن أتقاعد قبل أن يرى الممثلون ومن يعملون معي هذا المخلوق المرعب، فينظرون إليّ بنفور أو بشفقة. لقد رأيت عدداً كبيراً من زملائي يسقطون في الحلبة مثل مهرجين مرهقين، باتوا يشعرون بالسأم في بلادتهم، وقد قتلهم صمت الآخرين اللبق أو استهجانهم، فدفع بهم بعيداً عن الأضواء بأيدٍ لطيفة وأحياناً قاسية... »

سوف اتناول قبعتي مادام بوسعي أن أصل بيدي إلى مشجب القبعات وأمضي خارجاً رغم آلام جسدي..

إن الإبداع في الشيفوخة أمر غير مضمون..»

في ضوء المصباح السحري نقرأ حياة بيرغمان من زوايا مختلفة، من الداخل والخارج، من الطفولة البعيدة إلى الأمس القريب، بكل ما في هذه الحياة من أحداث وأسرار وأحلام وذكريات حب وعمل، وأزمات، وتفصيل صغيرة ينبشها من الذاكرة ويعيد سردها في ضوء مصباحه السحري.

كان بيرغمان في طفولته مرشحاً لأن يكون واعظاً دينياً، ولكنه اختار المبدع الآخر، الفن الأكثر التصاقاً بالحياة، حينما اكتشف السينما، وهاهو يعترف بأخطائه الصغيرة قبل أن يعترف بنجاحاته الباهرة.

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٤

في الاصدار المربّعة ما ياجدل

٢٥٠ ل. ص

سما النسخة داخل الغطر

١٢٥ ل. ص